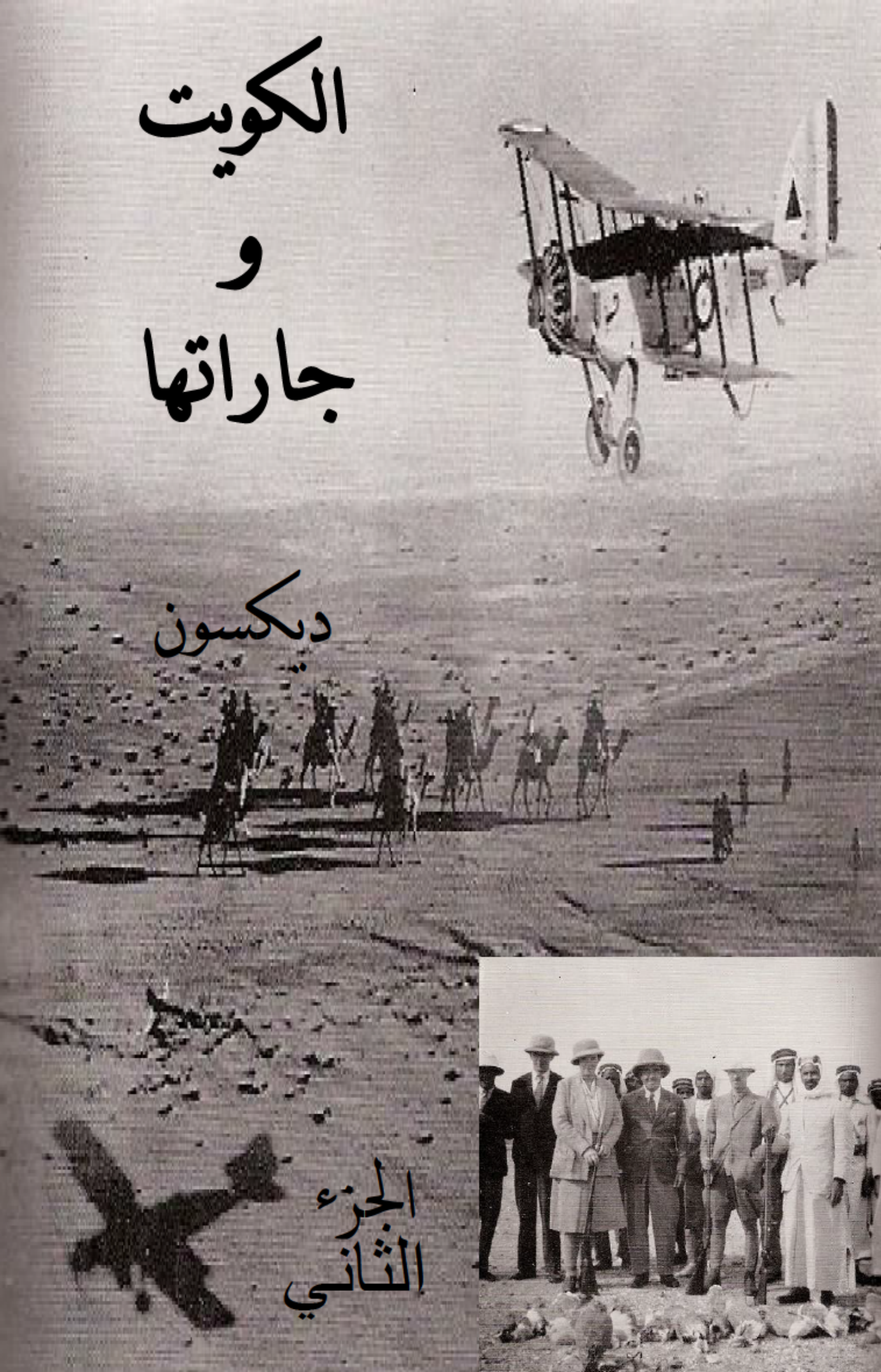

الكويت
و
جاراتها
ديكسون
الجزء
الثاني



وجاراتها

ه. ر. ب. ديكسون

الجزء الثاني



١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الأولى

١٩٦٤م

الطبعة الثانية

١٦٩٠م

القسم الثالث

ومعظمه ذكريات

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا
نحن الضيوف وأنت رب المنزل

بهذا البيت من الشعر استقبلني ابن سعود عندما زرته لأول مرة في الهفوف سنة ١٩٢٠ .

الفصل الرابع عشر

الكويت

١٩٣١ - ١٩٣٦

جريمة لها ما يبررها

اهتز العراق سنة ١٩٣١ لمقتل حاكم بغداد المحبوب عبدالله بن أحمد باشا السنا في مكتبه بالبلاط على يد عبدالله بك الفالح باشا السعدون الشيخ الأعلى في المنتفق. لقد كنت أعرف الرجلين جيداً مع أنني لم أرَ لهما وجهاً منذ عدة سنوات.

عرفت عبدالله بك عندما استسلم لي في كانون الثاني سنة ١٩١٩ عندما سمح له أن يعود للإقامة في ممتلكاته في كثيبان على بعد عدة أميال من البصرة حيث عاش بهدوء دون أن يشترك في السياسة، ولم يكن يقصد بغداد إلا لزيارة الملك فيصل أو لحضور جلسات المحكمة المتعلقة بقضايا حول أملاكه الكثيرة. وقد قابلته في إحدى تلك المناسبات فوجدته نفس الرجل الهادىء المعتد بنفسه الذي قصدني تحت جنح الظلام في الناصريه وتوسل إليّ ان أتوسط بشأنه لدى السير بيرسي كوكس.

أما عبدالله السنا فقد كانت معرفتي به أكثر وثوقاً. فهو ابن أحمد باشا متصرف البصره أيام الحكم البريطاني وقد عمل تحت امرتي كقائمقام على الحلة.

وعندما غادرت العراق الى الهند علمت انه شق طريقه بجدارة واستحقاق وترقى خطوة خطوة الى أن أصبح حاكم بغداد وحاز على ثقة الملك فيصل الى أقصى الحدود . وقد كنت فخوراً بذلك لأن بعض الفضل في ارتقاء الرجل يعود الى التدريب الذي لقيه على يدي في اوائل عهده .

ثم كانت غلطة عبدالله السنا الذي كان يتوق لطلب يد ابنة رئيس وزراء العراق الراحل عبد المحسن السعدون . فبعد انتحار عبد المحسن في سنة ١٩٢٩ ذهبت الفتاة لتعيش مع والدتها في سورية . امـا عبدالله السنا ، كما يستدل من اسمه وكما يعرف الجميع ، فقد كان من أصل متواضع . ولم يصل الى ما وصل إليه إلا بطموحه واجتهاده وقدرته ورضا الملك فيصل عليه . ومجرد تفكير هذا الرجل في الزواج من إحدى سيدات آل السعدون نخبة النخبة في الارستقراطية القبلية العربية ، كان جريمة ، ان لم نقل عملاً جنونياً صرفاً .

ان لعائلة السنا مكانة وضيعة في سلم الدرجات الاجتماعية عند البدو بحيث ان اية قبيلة شريفة في طول الجزيرة وعرضها لا تحلم بتزويج احدى بناتهـا الى واحد من عائلة السنا التي صنفت منذ أقدم الأزمان بانها وضيعة المولد لكون اعضائها يعملون كاسكافيين وحدادين ، وينظر اليهم بأنهم خدام عند القبائل . ان خرق هذه القاعدة يعني الموت للرجـل وللفتاة ولا يمكن ان تكون هناك أسباب أو ظروف تخفيفية .

ولسنا نعرف ما اذا كان عبدالله السنا يعتقد ان مركزه أصبح قوياً وان بغداد أصبحت متمدنة ألى حد دفعه الى تحدي العادات والقواعـد القبلية . ويكفي القول انه خطب ود الفتاة وطلب موافقة الملك على الزواج . ويقال ان فيصل بارك الزواج رغبة منه في مكافأة صديقه ، ويقول بعضهم — خطأ على ما اظن — ان القضية كانت سياسية وتستهدف عن قصد تحقير اسم آل السعدون في العالم العربي . ففيصل لم يكن على علاقـة طيبة معهم وكان يكره ادعاءاتهم المتطاولة بانهم في مستواه ويعادلونه منزلة ، وكانت تغيظه تحدياتهم الصريحة له في كل المناسبات .

والشيء الوحيد المؤكد هو ان الملك فيصل الذي ينحدر من أعرق عائلات الحجاز والذي شب وترعرع في محيط قبلي ، كان يعرف مدى خطورة رد الفعل الذي سيحدثه هذا الزواج لا سيما في أوساط عائلة السعدوون، ومع ذلك لم يمنعه. ويبدو ان البريطانيين في بغداد لم يقدروا الموقف لأنهم دائماً يفكرون ببلادهم وبمكافأة المستحق،لذلك تمنوا لعبدالله السنا حظاً سعيداً وهنأوه على حسن اختياره.

ولما لمس عبدالله السنا تشجيعاً من الملك لم يتوان لحظة واحدة بل احاط بوالدة الفتاة بنجاح وهي سيدة تركية الأصل ظنت ان موافقة الملك ضمانة كافية لسلامة ابنتها . ولما كانت تعيش في بلاد متمدنة كسورية ظنت ان العادات والاحقاد القبلية قد انقضت .

وما ان وصلت الانباء الى البصره ، معقل آل السعدون ، حتى بلغ الغيظ والرعب ذروته . وفي الحال أرسلت بعثة الى بغداد لتطلب من الملك ان يفسخ الخطبة ويمنع الزواج . وبالرغم من كل اسبابهم وحججهم فقد فشلوا في مهمتهم . وأرسلت بعثة ثانية الى الملك برئاسة تامر بك السعدون وضاري بك الفهد السعدون وغيرهما . ويقال ان كلمات كبيرة وعادية استخدمت اثناء المقابلة . والكلام الذي وصلنا الى الكويت يفيد ان البعثة أبلغت الملك انه اذا تم الزواج فسيقتل العروسان ويتعرض الملك نفسه الى نفس المصير . وقالوا له ان آل السعدون ينحدرون من عائلة توازي عائلته مكانة، وعيروه لأنه استخدم مركزه لفرض زواج يعرف تماماً انه يلحق العار ببيتهم .

لقد استقبل الملك البعثتين بصورة سرية ومن المفروض ان لا يعلم العالم الخارجي شيئاً عما دار في الاجتماع ، ولكن الوقائع تسربت بطريقة من الطرق. ويقال أيضاً ان الملك حنق لأن مجموعة من رعاياه تحدته وهددته في قصره . وقد اتهمهم بدوره بتحدي السلطة والتطاول عليها ورفض ان ينظر فيما يسعون اليه بصورة من الصور .

اما عبدالله بك الفالح باشا السعدون فلم يذهب مع البعثة وبقي في البصره بانتظار التطورات . وقد تلقى انباء الفشل الثاني بأسى واشمئزاز . والآن أصبح

شرف العائلة في خطر والحياة لا تساوي شيئاً في مثل هذه الحالة . وقبل ان يقرر اتخاذ أي اجراء قضى عدة أيام في مدينة البصره .

بعد ذلك ظهر عجيمي بك السعدون على المسرح . فقد اتى على جناح السرعة الى البصره قادماً من ماردين في تركيا تلبية لإلحاح عائلته . وقد اجتمع فور وصوله بشقيقه سعود بك الذي جاء من الناصريه وبعبدالله بك وقرروا وجوب القيام بعمل فوري حاسم . وفي جلسة سرية تقرر ان يتوجه عبدالله بك وسعود بك كل على حدة الى بغداد لقتل عبدالله السنا .

وقيل أيضاً ان أنباء وصلت الى البصره تفيد ان العقد قد تم نيابة عن أهل العروس التي كانت تجهز نفسها للسفر الى سورية لا كمال العقد هناك . ولكن ذلك يصعب تصديقه . اما الذي حدث فعلاً وعجل في وقوع المأساة فهو حادث عائلي . فقد عاد عبدالله بك السعدون الى منزله في كثيبان ذات يوم ونادى زوجته بأعلى صوته لدى دخوله المنزل . ولم تظهر زوجته من غرفتها بل سألت عن المنادي من وراء القاطع . ورد عليها غاضباً :

– انا عبدالله زوجك .. لماذا لا تأتين ؟

واجابته على الفور :

– انا الآن لست زوجتك ، ولن أكون إلا اذ قتلت السنا الذي تجرأ وطلب يد واحدة من بناتنا .

وبدون ان ينبس ببنت شفة أخذ عبدالله بك مسدسه وغادر المنزل لوحده وتوجه بالسيارة الى بغداد حيث توجه فوراً الى البلاط وطلب مقابلة الحاكم . وأدخل الى مكتب عبدالله السنا الذي استقبله بأدب وترحاب وسأله عن سبب تشريفه له بهذه الزيارة؟ . ورفض عبدالله بك ان يشرب القهوة التي قدمت له وقال لعبدالله السنا – حسب رواية الفراش الذي قدم لهما القهوة – ، انه في الوقت الذي لا يشعر نحوه بأية عداوة شخصية ، إلا انه يرى من واجبه منع زواجه المقترح من فتاة من قبيلته . ثم شهر مسدسه واطلق النار على السنا عبر المنضدة فسقط الى الارض مضرجاً بدمه . وعاد عبدالله بك فأفرغ بقية

الرصاصات في الرأس السنا بصورة متعمدة . وبعد ذلك فتح الباب وطلب من الفراش ان يستدعي البوليس الذين وجدوه لدى وصولهم جالساً على المقعد يدخن سيجارة . فشرح لهم بهدوء الاسباب التي دفعته الى ارتكاب جريمته .

ان محاكمة عبدالله بك برئاسة قاض بريطاني ، حركت العالم العربي الى اعماقه . وعندما صدر حكم الاعدام بحقه كان رد الفعل لصالح القاتل شديداً بحيث ان برقيات قوية اللهجة وصلت الى الملك فيصل من شخصيات مرموقة كابن سعود وحكام الكويت والبحرين وعمان واليمن ، ومن رهط من الامراء والشيوخ في اواسط الجزيرة العربية والحجاز والعراق واماكن أخرى ، تطالبه بتخفيض الحكم . وبالفعل ابدل الملك فيصل الحكم بالاعدام الى السجن العادي ٢٠ سنة ثم عاد الملك فيصل بقرار استرحام فخفض الحكم الى سنة واحدة .

وصدف ان كنت في البصرة عندما اطلق سراح عبدالله بك وعاد الى تلك المدينة . ولم اشاهد في حياتي استقبالاً لرجل شرقي كالاستقبال الذي جرى له . فقد تجمهر آلاف الاشخاص على المحطة وآلاف غيرهم اصطفوا في شوارع البصرة والعشار . ولكي يصدق المرء ذلك يجب ان يشاهده . فالجماهير لم تكن تستقبل مجرماً عادياً بل بطلا وطنياً .

وأعترف انني اخطأت في شق طريقي بين الجماهير في الاستقبال الحافل الذي تلا ذلك لأقدم تهاني لعبدالله بك لخروجه من السجن . وبعد هذا وذاك ، فهو رجل شجاع وفعل ما كان يظنه صحيحاً حسب القواعد التي شب عليها .

القبور التسعة

وهذه قصة أخرى عن الأحقاد القبلية .

في نهاية يوم طويل من الصيد على طول سلسلة الظهر في الكويت سنة ١٩٣١ عدت وزوجتي الى المخيم عند حلول الظلام وقد انهكنا التعب . وفي الصباح أمرت ان تضرب خيمتنا وخيام مرافقينا سالم المزين وعائلته في مكان اعد لنا كنت قد اخترته بصورة عفوية- وهو مكان جميل في الطرف الاسفل من المنحدر

الغربي لسلسلة الظهر بمواجهة تلال برقان . وفي المساء عثرت على بعد حوالي مئة ياردة من خيمتنا على تسعة قبور حفرت جنب بعضها البعض على سفح تلة جرداء. وبعد استفسارات عديدة علمت ماذا جرى هناك في شهر شباط سنة ١٩٢٦ .

اثناء الصيف واوائل الخريف من كل عام يعيش الهندال وهم فرع من بني مالك بجوار قناة الغريافيه قرب سوق الشيوخ . وفي الشتاء والربيع يهاجرون جنوباً الى الكويت مع غيرهم من الرعاة في المنتفق .

ويستطيع الذي يعيش فترة طويلة في الكويت أن يميز بين هؤلاء الرعاة الشماليين وبين بدو الكويت والسعودية.فهم عادة يلبسون على رؤوسهم كوفيات ذات بقع زرقاء داكنة وعقالاً ثخيناً أسود اللون له زاوية مائلة عند أعلى الرأس. أما البدو في ذلك الجزء من شرق الجزيرة العربية فيلبسون كوفيات ذات بقع حمراء أو كوفيات بيضاء عليها عقال أسود فاتح أو قطعة بسيطة من الحبال معقودة حول الرأس . وكما ذكرت آنفاً ، فإن نساء قبائل المنتفق سافرات الوجوه ويزين وجوههن وأذرعهن وأقدامهن بأشكال مختلفة من الوشم .

وللهندال أصدقاء كثيرون بين عجمان الكويت والاحساء وكانوا على علاقة طيبة بصورة خاصة مع عائلة مشواة من فرع محفوظ في عجمان القاطنين في منطقتي أبو حليفــا وعره في الكويت . وكان هؤلاء العجمان يبلغون الهندال أثناء رحلتهم الى الكويت عن وجود غزاة من الاخوان في الجوار مما يتيح لهم أبعاد ماشيتهم الى أماكن امينة عندما يدق ناقوس الخطر .

وكان زعيم الهندال رجل يدعى فزع وهو صديق حميم لي عرفته أيام كنت في سوق الشيوخ . وقد أخبرني هو وقريباه عبد العزيز وسمير المعروف بسمار قصة مقتل تلك العائلة .

قالوا انه في سنة ١٩٢٥ هطلت امطار مبكرة في الصحراء وكانت تباشير الربيع تبدو طيبة . وكانت الأحوال لم تهدأ بعد إذ ان الاخوان كانوا لا يزالون يقومون بغزوات قريبة من مدينة الكويت ويسلبون الأغنام والجمال . ولكن ذلك لم يبدل من التحركات المزمنة نحو الجنوب ، فالخيول والماشية يجب أن

تتغذى من طحالب الربيع وأزهـــارد في الربيع . وبالإضافة الى ذلك كانت الفلاحة وزراعة المحاصيل الجديدة قـــد بدأت في المنتفق نظراً لهطول أمطار مبكرة مما حتم إبعاد الأغنام والحمير .

وجاء رعاة المنتفق جميعهم كالمعتاد من الفرات في العراق ولكن أحداً منهم لم يتوغل الى الجنوب كما كانوا يفعلون في السابق . وفي شباط سنة ١٩٢٦ كان الهندال يخيمون على طول الجهة الغربيـــة من سلسلة الظهر فوق آبار عرفجيه على بعد ثمانية أميال تقريباً الى الجنوب الشرقي من تلال برقان . وككل الرعـــاة العراقيين لم ينصبوا خيامهم في خط واحد كما يفعل البدو في المملكة السعودية ، ولكنهم ، حفاظاً على ماشيتهم ، كانوا يفرقونها واحدة واحدة او اثنتين اثنتين لا تبعد الواحدة عن الأخرى أكثر من مسمع طلقة بندقية في حالة الانذار .

إن رعاة المنتفق لا يقتنون الجمـــال ولذلك فإن خيامهم التي تحمل على ظهور الحمير كانت صغيرة وواطئة . وكان لخيمة فزع اربعة أعمدة ولكنها أخف من النوع الذي يستخدمه البدو . أما كل خيمة من خيام رعاياه فكانت تضم على الأقل بساطاً زاهي الالوان تصنعه النساء من الصوف أثنـــاء أشهر الصيف تحت أشجار النخيل في المنتفق. وكان كل واحد منهم سعيداً بقدر ما كانت تسمح له تلك الايام القلقة لأن الهجرة السنوية الى صحراء الكويت الجنوبية أمر يترقبونه سنة بعد سنة.

وأما شباب الهندال فقد كانوا ، كغيرهم من شبان قبـــائل المنتفق ، رفيعي التهذيب ويتمتعون بصحة جيـــدة . وكانت غالبيتهم تملك خيولاً يركبونها في رحلتهم الطويلة الى الكويت . وغالباً ما كانوا يشاهدون في أسواق الكويت يشترون حاجياتهم أو يبيعون منتجاتهم ، بينما تظل خيولهم في اسطبلات مجاورة.

ومن هؤلاء الشبان شرائب بن مضرب الهندال ابن عم فزع . وكان هـــذا الشاب لعدة أشهر خلت ، يحمل سراً في طيات قلبه حبـــاً جارفاً لفتاة تدعى رخيصه وتنتمي الى قبيلة زراعية صغيرة تدعى عباده . واتضح ذلك عندمـــا أبلغ مضرب الهندال ابنه أن عليه أن يتزوج ابنة عمـــه لدى عودتهم الى المنتفق في الصيف . وغضب شرائيب وامتعض وأقسم انـــه لن يتزوج طيلة حياته إلا

محبوبته رخيصه . ولكن صعوبات كبيرة كانت دون ذلك لأنه بالرغم من أن العباده – وهم من بني مالك أيضاً – كانوا على علاقات حسن جوار مع الهندال ، فإنه لم يسبق وأن سمح لرجل من الهندال أن يتزوج فتـــاة من العباده الذين لا يمانعون قط في تزويج بناتهم للهندال .

وبعد عدة أيام من هذه الأحداث ، وفيما كان عبدالله الهندال أحد كبــار أفراد العائلة قد ذهب الى الكويت برفقة عدد من النسـاء لشراء الحاجيات ، دعا فزع معظم أفراد العائلة لتنـاول القهوة في خيمته ولبحث الموقف . ونظراً لأن الأوضاع في المنطقة كانت مضطربة ، فقد جلس الرجال حول نار القهوة وبنادقهم المحشوة على ركبهم وأحزمـة الذخيرة على خصورهم . وكانت رخيصه حاضرة بين النسـاء اللواتي حاولن أن يظهرن لها استحالة زواجها من شرائيب .

وبعد أن دارت القهوة بدأ النقاش وأخذ يشتد نظراً لأن شرائيب أصر على الرفض في النظر بعين العقل. وفجأة وبلمح البصر وبدون أن يفكر في العواقب، أطلق أحد الشبان النار ببندقيته على شرائيب فقتله فوراً . وفي الحـال قتل القاتل وتحولت الخيمة الى كتلة من الرجال الغاضبين يطلقون النار على بعضهم البعض . وعندما خرجت رخيصه راكضة من الخيمة تولول أصابتها رصاصة في ظهرهـــا فأردتها قتيلة . وهربت النسـاء الأخريات الى الصحراء حيث أخذن يبكين ويندبن ويمزقن ثيابهن ويلطمن على صدورهن .

ولم يبق على قيد الحيـــاة ممن كانوا في الخيمة سوى أربعة رجـال : فزع ، والشاب عبـــد العزيز وشقيقيه شديد ومزعل وكلهم أصيبوا بجراح . وكانت الجثث ملقاة على الأرض حولهم . وأمسك فزع زمام المبادرة فأمر عبد العزيز ، أقلهم جراحاً ، أن يذهب إلى المدينة ويحضر عبدالله على جناح السرعة. وانطلق عبد العزيز نحو فرسه وفك رباطها وامتطاها بدون سرج على أقصى سرعتها الى مدينة الكويت التي تبعد ٣٦ ميلاً عن مكان الحادث .

وجـــد عبد العزيز عبدالله والنساء ، وعـددهم ٢٠ امرأة ، في الصفاط . وكثيرون يتذكرون ذلك اليوم الرهيب عندما وصل الخيـــال المنهك الجريح

حاملا النبأ المؤسف . وركب عبدالله المعروف بهدوئه فرسه وانطلق بها بأقصى سرعة ممكنة . أما النسوة فقد طغى عليهن الحزن فأخذن يولولن ويصرخن ويمزقن شعورهن وثيابهن كالمجنونات . وانتشرت الأنباء في المدينة كالنار فاجتمع الناس حولهن . وراحت الصديقات يحاولن التعزية والتخفيف عنهن بينما راحت الايدي المحسنة تحمل لهن البضائع على ظهور الحمير . وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم غادرن المدينة في موكب حزين وراء قطيع من الحمير ومعهن عبد العزيز .

وقبل غروب الشمس كانت تسعة قبور قد حفرت في المخيم بجانب بعضها ووضع فيها الرجال الثمانية والفتاة ودفنوا . لقد فقد فزع في الحادث عمه مضرب وابن عمه شرانيب . وفقد عبدالله شقيقيه جاسم ومطر وابني شقيقته كريم ومطشر . وفقد عبد العزيز شقيقه داود . كذلك فقد الشاب فيصل ذو العينين الزرقاوين والده حسن .

وهكذا خيم عليهم الليل فاصطف الباقون على قيد الحياة للصلاة شاكرين الله على رحمته مع ان قلوبهم كانت تتفطر أسى وأنهوا صلاتهم بالقول :

ـ الحمد لله .. الله يعطي والله يأخذ .

لقد وجدت صعوبة في انتزاع هذه القصة من فزع وغيره لأن المندال لا يحبون الحديث عن ذلك الحادث . ولست ادري من أطلق الرصاصة الأولى لأن المندال لا يفشون بالسر . ولم يعد أهل المنتفق يقصدون ذلك المكان المشؤوم .

وفي ربيع سنة ١٩٤٣ أيضاً اقمنا مخيمنا بالقرب من هناك . وعندما كانت الشمس تؤذن بالغروب كنا نستطيع ان نرى من الخيمة ظلال المرتفعات الصغيرات ملقاة على القبور . وكنا نشعر اننا قريبون جداً الى اصدقائنا المندال .

وكان فزع وسمير وعبد العزيز يقومون بزيارتنا كلما انتقلوا الى الكويت ، وكنت انا وزوجتي نرد لهم الزيارة في المخيم ونتحدث عن الأيام الماضية . وكانت زوجة سمير فتاة طيبة للغاية وصديقة حميمة لنا بصورة خاصة . وقد انجبت طفلها الأول عبدالله سنة ١٩٣٣ وكان طفلا جميلا معافى . وفي اوائل السنة ذاتها

هندال

طامر مرهز مضرب علي

حسن

شرائيب

مطر جاسم عبدالله ونسا (انثى)

خزعل سلمان سعدون فزع عبيد

علي نايف ذياب

سمير (مسمار)

مطشر كريم

سرحان

عبدالله

عوض نصار نجم عبد الوهاب

شديد داود عبد العزيز مزعل

منشد فيصل

طعمه راضي

اتهم فزع زوراً بسرقة جمل فأودع سجن الكويت . وبعدني انني تمكنت من إطلاق سراحه. وفي ربيع السنة التالية احاطت الشرطة العراقية بسمير (مسمار) قرب الرافعيه وأخذت منه سبعماية دينار . وكانت كلمة مني كافية لإعادتها اليه وخاصة انني ابلغت المسؤولين عن معرفتي الشخصية بالرجل منذ ان كنت في سوق الشيوخ ، وشهدت على حسن سيرته وسيرة عائلته الموالية جداً للبريطانيين .

لقد كانت صداقتنا الطويلة مع عائلة المندال مصدر سعادة لي ولزوجتي اثناء السنوات الطويلة التي قضيناها في الكويت . وادعو الله ان يبقي على هذه الصداقة .

الاتفاقية الجوية في الشارجه

ونظراً لأن الحكومة الايرانية كانت تحظر مرور طائرات الركاب في جهتها من الخليج ، ولأن ابن سعود رفض السماح لتلك الطائرات باتباع خط الجهة العربية بتحريض من الاخوان ، وجدت الحكومتان البريطانية والهندية من الضروري تدبير أمر هبوط الطائرات الامبراطورية في الشارجة على الساحل في طريقها الى الهند والشرق الاقصى . ولذلك كان توقيع اتفاقية بهذا الشأن مع الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارجة ، أمراً بالغ الأهمية .

وقد جرت اتصالات تمهيدية مع الشيخ سلطان بن صقر ولكنه رفض التعاون . وقام السير هيو بيسكو المقيم السياسي بزيارة للشارجة فوجد الحاكم صعب المراس ويضع العراقيل ، فعاد خالي الوفاض .

وفي ١٤ تموز سنة ١٩٣٢ تلقيت برقية من السير هيو يبلغني فيها أن احضر الى البصره ومن هناك أركب زوارق كرانشي السريعة لأوافيه الى مقره في بوشير . وقال انه يريد ان يجرب حظه مرة ثانية فيما يتعلق بالامتياز الجوي في الشارجة الذي كان يطمح ان يحصل عليه . وبما انني كنت اتحدث العربية بطلاقة ، فقد ظن انه بمساعدتي يستطيع ان يصادف نجاحاً هذه المرة . وكانت

خطته ان نتوجـــه الى جزيرة تامب في وسط الخليج حيث ننتقل الى السفينة البريطانية « بايدفورد » ونتوجه عليها الى الشارجه في صباح اليوم التالي .

لقـــد كنت اعرف ان السير هيو يعـاني من ضيق في التنفس ولم يكن من المناسب ان يدخل في اية عملية صعبة في حرارة صيف الخليج الفارسي . وعندما كان في اجازتـــه في المملكة المتحدة أبلغ ان لا يعود الى الخليج ولكنه فضل الواجب على المشاعر الشخصية وعاد قبل عدة أشهر من الوقت الذي اكتب عنه .

وفي الليلة السابقة لذهابي الى البصره حلمت حلمـــاً مزعجاً فأيقظت زوجتي وابلغتها ان لدي شعوراً بأن كارثة ستقع في هذه الرحلة . لم اكن استطيع ان اقول ماذا سيحدث ولكن شعوري وحدسي بذلك كان قويـاً بحيث كنت قلقاً طوال الطريق الى البصره وفي الزورق السريع الذي غـادر البصره في السادس عشر من تموز .

ووصلت الى بوشير الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي ، وجـاء السير هيو الى السفينة وهو في احلى حالات المرح . وتلك الليلة تناولنا عشاء شهياً على مائدة القبطان الخاصة فزالت وساوسي . ولم يكن مع السير هيو سوى سكرتيره الخاص الكابتن تشونسي من الدائرة السياسية الهنديـة وهـــو شخصية قديرة جذابة .

كانت تلك الليلة هادئة شديدة الحرارة . وصلنا الى منارة جزيرة تامب عند منتصف الليل فوجدنا السفينة البريطانية « بايدفورد » في انتظارنا . ولم يستغرق انتقالنا الى السفينة بزورق تابع للبحرية سوى بضعة دقائق . وبعـد ان رحب بنا الكابتن دنيسون بحرارة وشربنا كأساً معه انتقلنا الى الداخـــل . ونمت انا والسير هيو على سريرين على ظهر السفينة وبجانبي زجاجة ماء مثلجة .

وسارت بنا السفينة ببطء لكي نصل الى الشارجة في النهار . وفي الساعـــة الثانية والنصف صباحاً احسست بقبضة يد على كتفي فاستيقظت لأجد السير هيو بجانبي وقد مزق الألم وجهه . فقال لي لاهثاً :

— استدع الطبيب فوراً ... اظن انني سأموت .

وسقط على سريري . بينما أحضرت جراح السفينة خلال ثلاث دقائـــق . وأسند الطبيب السير هيو على كتفي وعمل ما باستطاعته لانقاذه وحقنـــه ابرة مسكنة ، ولكن عبثاً . فبعد ان تقيأ عدة مرات فقد وعيه ومات بين ذراعي خلال نصف ساعة . وأذكر ان ثياب نومه كانت تقطر ماء . الى هذا الحد كانت الحرارة والألم الذي عاناه السير هيو .

وفي المؤتمر القصير الذي تلا ذلك قرر الكابتن دنيسون ان نتوجه الى جزيرة هنجام عند مدخل الخليج حيث ترسو سفينة كبـــير ضباط البحريـة وسفينة حربية أخرى . وبعد سلسلة من الاتصالات اللاسلكية بحكومة الهند وبالسيدة بيسكو في بوشير تقرر دفن المقيم السياسي الراحل في البحر . وتم ذلـــك في الساعة التاسعة صباحاً عند شاطىء جزيرة هنجام وسط تحية بحرية كاملة . لقد كان الاحتفال بالدفن مؤثراً .

ان وفاة السير هيو وهو في الثانية والخمسين من العمر ، كانت كارثة كبيرة اذ كان يـــدل على انه سيصبح أعظم المقيمين السياسيين الذين شهدهم الخليج اذا استثنينا ذلك الساحر السير بيرسي كوكس .

وبعد الجنازة اقترحت على كبير ضباط البحرية وعلى الكابتن دنيسون ان نتابع رحلتنا الى الشارجة لكي أعالج قضية الاتفاقية الجوية بنفسي لأنني أعرف ان السير هيو كان يرغب في ذلك . وأيدني في ذلك الكابتن تشونسي والكابتن دنيسون ، فأبرقت الى سيملا وزير خارجية حكومة الهند بهذا الخصوص وبعثت بنسخة من البرقية الى لندن .

وصلنا الشارجه في صباح اليوم التالي فـــنزلت الى الشاطىء فوراً وأبلغت الشيخ سلطان بن صقر بوفاة السير هيو ، وبأنني سأدخل في المفاوضات مكانــه . وقد فعلت ذلـــك بمساعدة الكابتن تشونسي القيمة . وبقينا نعمل في نصوص الاتفاقية ثلاثة أيام وثلاث ليال نحذف من هنا ونضيف هناك متبعين في الاساس مسودة السير هيو ، الى أن اتفقنا في اليوم الرابع على كل شيء بما يرضيني ويرضي الشيخ. ولم يبق شيء إلا ان احضر الشيخ الى ظهر السفينة ليوقع الوثيقة بحضور

الكابتن دنيسون كشاهد .

ووعد الشيخ سلطان ان يأتي في الساعة الرابعة بعد الظهر ليحل ضيفاً على الكابتن دنيسون في حفلة شاي رسمية وانهاء القضية . وعدت الى السفينة منهوك القوى من الجهود التي بذلتها ومن شدة الحر الذي لا يطاق .

وفي الساعة الرابعة تماماً جاء الشيخ سلطان في زورقه العتيق فاستقبلته انا والكابتن دنيسون على ظهر السفينة واقتدناه الى غرفة القيادة حيث اعدت له مائدة من المأكولات والحلويات الشهية المغرية .

واصطحب الشيخ سلطان معه وزيره الذي لم اعد أذكر اسمه . وظل يخبرني انه زار باريس مرة ليبيع اللآلىء فعرفت ان تلك هي مهنته في حياته العادية . وبالطبع كان يعرف فيكتور روزنتال أحد كبار التجار في عالم اللؤلؤ ، وزائر دائم لمنطقة الخليج . وفيكتور روزنتال يهودي فرنسي من أصل روسي ، وهو شخصية جذابة وصديق قديم لي ولزوجتي . وكان العرب في كل مكان يحبونه ويطلقون عليه اسم « أبو صناعة اللؤلؤ الحديثة في الخليج الفارسي » .

واستمتعنا بالشاي ولكن الشيخ سلطان بدأ يتصرف بصورة مزعجة . فقد شاهد في الغرفة صورة للملك جورج الخامس موقعة بخط يده ومحفوظة ضمن اطار فضي ، فقال انه يريدها . فقال الكابتن دنيسون انه لا يستطيع التنازل عنها لأنها هدية شخصية من الملك . ووقع نظر الشيخ على صورة كبيرة للسيدة دنيسون محفوظة أيضاً ضمن اطار فضي . فأصر ان يأخذها ولكن صاحبها رفض شارحاً للشيخ بكل أدب وتهذيب أنها صورة زوجته ولا يستطيع ان يتخلى عنها . ولم يرتدع الشيخ سلطان بل أمسك بعلبة فضية للسجاير أهدتها الملكة ماري للكابتن دنيسون عندما كان ضابطاً على اليخت الملكي . وقال الكابتن – واعتقد انه لم يكن حكيماً في ذلك – ان الشيخ سلطان بامكانه ان يأخذ أي شيء من الغرفة ما عدا تلك الاشياء الثلاثة .

وما كاد الكابتن يقول ذلك حتى كان الشيخ سلطان قد وضع في جيبه ولاعتين فضيتين ، وصورة للسفينة « بايدفورد » ، وعلبة سجاير فضية أخرى ، ونصف

دزينة ملاعق شاي ، وأمر عبده الاسود ان يحمل معه علبة بسكويت وكمكة لم تقطع بعد .

وكنت انا طيلة الوقت افكر في الاتفاقية وفي توقيع الشيخ الذي يجب ان أحصل عليه لذلك كنت دائماً اهمس في اذن الكابتن دنيسون قائلا :

ـ دعه يأخذ تلك الاشياء .. لا تعكر مزاجه ... هذا اهم شيء .

ولم يكن الكابتن دنيسون يوافقني في قضية ملاعق الشاي فوعدته ان اعطيه مثلها . لقد كان ذلك درساً مفيداً ولكن مزعجاً .

وأخيراً جاء دور العمل . فأخرجت الاتفاقية الجوية ووضعتها على الطاولة وأحضرت القلم والحبر والاوراق وقلت موجهاً حديثي للشيخ :

ـ يا صاحب السعادة لقد حان الوقت انتهي المسألة القريبة من قلبينا والتي وافقت عليها سعادتك . فاذا سمحت ووقعت هنا سأوقع انا تحت اسمك ويضع صديقنا الكابتن دنيسون توقيعه تحت توقيعي . وأخيراً يوقع سكرتير المقيم السياسي الموقر تحت امضاء الكابتن الكريم .

واجابني الشيخ سلطان بقوله :

ـ لا تستعجل يا صديقي .. لا تستعجل . لقد وافقت فعلاً على نصوص الاتفاقية ووعدت بتوقيعها ولكنني قبل ان افعل ذلك يجب ان انتظر غروب الشمس حتى أصلي . فلربما كانت لله ارادة يمليها علي .

ولم يستجب لكل محاولات الاقناع التي بذلناها .

ثم سألني قائلا :

ـ وهل هناك شيء افضل من ان يستلهم المرء توقيعه من صلاة الى الله .

انها حجة لا يمكن الاجابة عليها .

وبعد انتظار طويل ممل جلس الشيخ سلطان خلاله على بساط مده خدامه على ظهر السفينة يشرب القهوة ويتحدث الى وزيره، غابت الشمس وبدأ الصلاة . واستغرقت صلاته ربع ساعة نهض بعدها ليعلن أنه على استعداد لتوقيع الاتفاقية بشرط ان يتعهد الكابتن دنيسون بوداعه بطلقة مدفع تحية له عندما

يغادر السفينة . وتعهدت له ان كل سفينة تأتي الى مينائه ويقوم هو بزيارتها ستطلق مدافعها تحية له . وقال الشيخ انه يشعر بأن الله سيذكره بشيء نسي ان يقوله قبل الصلاة وسهي عن باله .

اما الكابتن دنيسون فقد زمجر عندما علم بطلب الشيخ قائلاً :

– اذا طلب مني ذلك الملك جورج بنفسه فلن استجيب له .. افلا يعلم الشيخ ان اطلاق المدافع بالتحية ممنوع بعد غروب الشمس حسب انظمة الامبرالية ؟

على هذه الصورة كانت جميع مناقشات الضابط المتوتر الأعصاب .

وقلت له :

– بربك لا تخلق لنا صعوبات الآن . اطلق جميع المدافع التي لديك وبالذخيرة الحية اذا اقتضى الأمر ودعنا نحصل على توقيع الشيخ سلطان .

وكانت مناقشتنا سريعة غاضبة ولكنني حملته على الموافقة على اطلاق طلقة واحدة عندما يغادر الشيخ السفينة .

وزمجر الكابتن دنيسون قائلاً :

– سأطلق له طلقة حية من مدفع عيار أربع بوصات .

وبعد ان شعرت بالنصر اعطيت الشيخ كل التأكيدات الضرورية .. ثم وقع الوثيقة .

وكانت قد مضت ساعة كاملة على غروب الشمس وبدأ الليل يرخي سدوله . اما الحرارة فقد كانت اشد مما خبرناه في أي وقت من ذي قبل .. وكان كل شيء خانقاً هادئاً هدوء الموت .

وفيما كان الشيخ ينزل الى زورقه العتيق صوب المدفع الى جهة البحر فوق زورق الشيخ ، وانطلق محدثاً دوياً هائلاً يصم الآذان كاد يرمينا من على ظهر السفينة ويغرق زورق الشيخ . واخترقت القنبلة جدار الليل الى الظلمة اللامتناهية . (وبالمناسبة ، عاد الشيخ سلطان فحمل معه قلم حبر من اقلام الكابتن دنيسون) .

أي تجربة ! لقد شكرنا الله وعدنا الى الغرفة ثانية حيث شربنا كأساً ثقيلة من الويسكي جرعة واحدة .

وأخرج الكابتن دنيسون برقية من درجه وسلمها لي . ويعود تاريخ البرقية الى أربعة أيام خلت وهي موجهة الى قائد السفينة « بايدفورد » ليبلغها لي ، وصادرة عن وزير الخارجية سيملا . وتقول البرقية انه علي ان لا افعل شيئاً في قضية الاتفاقية الجوية الى ان يحضر المقيم السياسي الجديد السير ترنشارد فول ويتسلم مهام منصبه في الخليج الفارسي . وينصح وزير الخارجية في ختام برقيته انه من غير اللائق المضي في المفاوضات فور وفاة السير هيو بيسكو وان شيخ الشارجة سيكون أول من يفكر في ذلك .

وقال الكابتن دنيسون عابساً على طريقة نلسون : لقد حجبت البرقية عنك يا ديكسون لأنني قدرت ان وقت العمل قد حان وانه ما لم نتحرك بسرعة فان الاتفاقية الجوية لن توقع لا اليوم ولا في أي وقت آخر .

لقد صعقت .. ولكنني لم أنزعج لأنني كنت واثقاً ان حكومة صاحب الجلالة لن تخذلني بعد الجهود الناجحة التي بذلتها . وشككت في ان يكون الكابتن تشونسي قد اشترك في المؤامرة لحجب البرقية عني حتى انتهاء التوقيع على الاتفاقية . واشتركت مع دنيسون في صياغة نص برقية مهذبة الى سيملا نشرح فيها النجاح في مهمتنا وكيف ان عاصفة عاتية هبت على السفينة واضطرتني الى البقاء على الشاطىء مدة ثلاثة أيام مما جعل الاتصال بالسفينة متعذراً .. لقد كانت كذبة ضرورية .

لقد افزعتني فكرة طلقات التحية في المستقبل . وفيما كنا نتداول في الأمر دخل علينا ضابط الملاحة ليعلن ان عاصفة ستهب علينا ، وقال ان الميزان قد انخفض لى الصفر ولذلك يتوجب علينا ان نبتعد بالسفينة من الشاطىء الى عرض البحر .

وتحركت بنا السفينة بسرعة خارقة في اتجاه البصرة . وهبت العاصفة عنيفة عاتية بعد نصف ساعة واستمرت الى ان وصلنا الى مدخل شط العرب . ولم

أعرف شيئاً عن ذلك لأنني أصبت بدوار البحر ولزمت فراشي الى ان بان علينا ضوء منارة الفاو في السادس والعشرين من تموز . انني اسوأ بحار في العالم وقد اكدت ذلك لي تلك الرحلة .

وبعد ستة أشهر تلقيت رسالة لطيفة من الشيخ سلطان بن صقر يذكرني فيها بالبندقيتين اللتين وعدته في احضارهما له من لندن .. ولكنني لم أعد ذلك الثعلب بشيء من هذا القبيل ، كما ان موضوع البنادق لم يبحث على الاطلاق .

عمشا وفيحا

بعد ان غادرتنا نساء فيصل الدويش الى الرياض ، سمح ابن سعود لبعضهن بالمجيء الى الكويت لزيارتنا . وكانت قد مضت ثلاث سنوات قبل ان نشاهد ابنتي الأخ ، عمشا وفيحا ، اللتين كانتا مصدر سرور لنا اثناء اقامتهما في الكويت . وقد سمعنا انهما تزوجتا .

وفي يوم من الأيام سنة ۱۹۳۳ ، وبينما كانت زوجتي مع ولدينا في انكلترا ، وصلت فيحا الى الكويت بصحبة زوجها عبد العزيز بن عبدالله الماجد الدويش من عشيرة الدوشان في مطير . ولم تكن تحب أن تأتي الى منزلنا لوحدها ، فبعثت لي برسالة تطلب مني فيها ان أزورها في منزلها المكون من غرفتين والذي استأجراه بالقرب من مستشفى الارسالية الاميركية . ووجدت ان فيحا قد أصبحت امرأة طويلة جذابة مع ان ملامح الطفولة لا تزال على وجهها . كانت لوحدها في المنزل وأبلغتني أنها حامل وتريد أن تبقى في المدينة على مقربة من المستشفى في حال تعسر الولادة .

إن بنات البدو لا يجدن مانعاً في أن يخبرنك أي شيء عن مثل تلك القضايا الخصوصية ، إذا كن يعرفنك جيداً ويثقن بك . وقد ساعدتها بمبلغ من المال لشراء بعض الحاجيات الضرورية والعزيزة على قلب النساء العربيات في مثل هذه المناسبة . وفي الوقت المناسب وضعت فيحا طفلة أسمتها خزنه .

وبعد ثلاثة أيام من الولادة أخلت فيحا المنزل وانتقلت مع زوجها الى خيمة

ستأجراها في السفاط على مقربة من المكان الذي تخيم فيه نساء من قبيلتها . وقدم جاء أولئك النسوة الى المدينة لشراء بعض الحاجيات فوجدن ان شيخاً من شيوخ القبيلة قد قدم الى المدينة مع زوجته . وهكذا وجدت فيحا نفسها بين أصدقائها ولكنها طلبت مني ان أحضر لزيارتها مرة ثانية لتريني ابنتها الصغيرة خزنـه . وكانت خزنه ملفوفة بثياب والدتها على عادة البدو ، وعلى عينيها البراقتين كحل أسود . ووضعت في يدها الصغيرة روبية للحفظ فأطبقت يدها عليها فوراً . وقالت لي فيحا انها آسفة من أجل زوجها لأنها لم تنجب له صبياً ، وانها ستعطي خزنه عروساً لابني سعود عندما تكبر .

وبعد أسبوع عاد الأب والأم والابنة الى الصحراء مرة ثانية ولكن بعد أن أعطيت فيحا معطفاً جديداً وعباءة ، وبعد أن أعطيت زوجها كيسين من الأرز وبعض القهوة .

ووصلت عمشا بعد ذلك بوقت قصير ، ولا شك في أن فيحـا أخبرتها عن الهدايا الجميلة التي قدمتها لهـا . وكانت عمشا أقل تحفظاً بالنسبة إلى المجيء الى منزلي فصحبت معها باخته خادمـة فيصل الدويش الزنجية التي كانت تعيش في الكويت . كانت عمشا أقصر وأنحف من فيحا . وتقول باخته انها أجمل من فيحا ولكن البرقع الشديد السواد الذي كان يغطي وجهها لم يتح لي التأكد من ذلك . وبقدر مـا يسمح لي وضعها ذاك بالحكم عليهـا ، فإن أجمل شيء فيها شعرها الطويل . وبطلب مني أخرجت من تحت برقعهـا رأتها شعراً مجدولاً يصل الى ركبتيها في خصلتين تعتز بها وتقول عنها بخبث : إن فيحا لا تملك قروناً مثلي .

ولا شك في أنها أكثر حيوية من شقيقتها ولسانها أكثر طلاقة . فقد أخبرتني عدة حكايات عن بيتها في الصحراء . وقالت انهـا جاءت الى الكويت بدون زوجها وانها تأمل أن أكون كريماً معها كما كنت مع شقيقتها . وقالت أيضاً ان فيحا بخير وتهديني مزيد السلام ، وانها ستأتيان معـاً في المرة القادمة ولكن زوجها سعود رجل شديد الغيرة ولذلك فإنهـا لن تستطيع زيارتي في منزلي . وأبلغتها انني سأقابلها في خيمة زيد السنا خـارج أسوار المدينة لأن زيداً

وزوجته صديقان عزيزان .

وبقيت في الكويت أسبوعاً كاملاً استخلصت منها خلاله آخر أنبـاء الملك ابن سعود وعائلته . وسألتها عن بندر الدويش ابن فيصل . وعن مطلق بن شقير الدويش ، وهزاع بن بدر الدويش وشقيقه محمد ، وعن محمد بن وثبـان الدويش وابن عمه مخرب ، وكلهم من عشيرة الدوشان وشيوخ كبار في مطير .

وأجابتني على سؤالي بقولها :

– كلهم طيبين وكلهم يسلمون .

وقبل ان تغادر الى الصحراء وعدتني انها ستأتي لزيارتي مع فيحا حالما تعود زوجتي من انكلترا .

وسألتها :

– كيف ستعرفين أن زوجتي قد أتت ؟

وكان جوابها :

– سنعرف بأسرع مما تظن . اننا نعرف كل ما يجري في الكويت وعندمـا تعود أم سعود تصلنا الأخبار بالرغم من بعد المسافة .

إن أهل الصحراء لا يفوتهم شيء .

وسمحت لي أن أقبل يدها قبل ان تذهب وبالرغم من أن يدها كانت قذرة إلا انها يد أميرة . إن نساء البدو مؤنسات للغاية إذا كن يعرفنك جيداً .

ولدى عودة زوجتي من انكلترا ، كانت عمشا عند كلامهـا فجاءت لزيارتنا مع شقيقتها فيحا . وقد قدمتا من آبار الحبه في السمن على مسيرة اثني عشر يوماً برفقة واحد من أفراد القبيلة . وقالتا ان زوجيهما سيتبعانها بعد أسبوع . ولمـا سألتها ما إذا كانتا لا تخشيان السفر مدة اثني عشر يوماً لوحدهما وبرفقة رجل ، دهشتا من السؤال ولكنها عندما علمتا ما أقصد قالتا :

– بالنسبة للصحراء ليس هنالك أي خطر على الاطلاق لأن ابن سعود كفيل بكل شيء . ولكن إذا كنت تقصد كيف نجرؤ على السفر لوحدنا برفقة رجل فذلك أمر طبيعي في الصحراء . فالنساء هناك في مأمن لأن البدو عندهم شهامة

ولا يعتدون على امرأة ولو أعطيتهم ذهب الأرض . وفضلاً عن ذلك النساء دويشيات وأميرات في أرضنا ؟ فرافقتنا بعد أن يجد لنا مأوى مريحاً يذهب وينام بعيداً . ألا يفهم الرجال في بلادكم ان لمس المرأة حرام !

وأدهشني هذا الجواب وأعجبت بتحررهما من عقدة الخوف الجنسي مما جعلني أفكر كثيراً في ذلك .

كانت عمشا وفيحا طيبتين ولكنهما أصبحتا نحيلتين بعد تلك الرحلة الصيفية الطويلة الى الحبه . وكانتا أيضاً قذرتين وبحاجة ماسة الى الثياب . مسكينات إن حياتهن هي أصعب حياة يمكن أن يتحملها بشر ؛ حد أدنى من الطعام بدون أي تشكيل ، بدون أية عناية طبية ، وبدون ملابس نظيفة ، وحرارة الشمس الشديدة التي تبلغ ١٣٠ درجة فهرنهايت تنهك القوى ولذلك تصبح لهن رائحة كريهة وتجف بشرتهن فيصبحن كالجمال التي تقتنيها قبائلهن . ولا عجب ، فإن حياة البدوي لا تتجاوز الخمسين عاماً . وتتحسن أحوال البدو ، كجمالهم تماماً ، عندما يهطل المطر في الصحراء أثناء الخريف والشتاء والربيع ، فيكثر حليب الجمال وينمو اللحم على أجساد البدو بصورة مدهشة .

وكان اجتماع مؤنس بعد أربعة أيام عندما انضمت الى الشقيقتين عمشا الأخرى ابنة فيصل الشبلان الذي جاء يطلب نصيحتي قبل أن يستسلم لابن سعود . واستضافت زوجتي الفتيات الثلاث مع سيدات أخريات من مطير في حفلة نسائية خاصة أقامتها لهن في الطابق السفلي من المنزل المخصص لاستقبال الزائرات من نساء البدو . وكانت هناك باخته مع عبدة أخرى تدعى مستوره وابنتها مبروكه ، وهن عبدات للدوشان أطلق قيدهن ويعملن في دار للاستراحة في الكويت هدية لهن من الشيخ مبارك يستضفن فيها سيدات شيوخ مطير اللواتي يأتين الى المدينة .

وكانت المائدة التي أقمناها لهن تضم خروفاً كاملاً وعدداً من الدجاجات المحمرة وكومات من الأرز مع مرق البندورة . وقد انضممت إليهن بعد الغداء بينما كانت القهوة تدار عليهن . واذكر أنني طلبت من فيحا أن تعطيني خاتمها

كذكرى لتلك المناسبة . وكان خاتماً فضياً أنيقاً فيه فص صدفي أخضر بحجم قطعة نقود صغيرة لكنه بيضوي الشكل . وناولتني الخاتم وهي تبتسم فضممته الى التذكارات الثمينة التي أملكها وكنت أريها إياه كلما جاءت لزيارتنا .

وبعد يومين جاء زوجا المرأتين لزيارتنا وجاء أيضاً هزاع بن بدر الدويش ابن أخ فيصل الكبير وزوج عمشا بنت فيصل الشبلان . أما هزاع فكنا نعرفه جيداً ولكن سعود وعبد العزيز الماجد كانا غريبين وتبدو عليهما ملامح الفظاظة . وقد قمنا بتكريم الرجال الثلاثة نظراً لمنزلتهم وقدمنا لهم هدايا معتادة من القهوة والمال . وبعد أن اجتمعنا بالسيدات وأزواجهن مرتين في خيمة زيد السنا غادرت عمشا وفيحا وزوجاهما الكويت وبقيت عمشا بنت فيصل الشبلان وزوجها هزاع .

وتجدر الملاحظة هنا الى ان أهل المكانة من رجال القبائل الذين يزورون الكويت لا يكتفون بزيارة الكولونيل ديكسون وزوجته بل يذهبون ويقدمون احترامات رسمية للحاكم ولشيوخ آل الصباح الذين يعطونهم كسوة وخراجاً قبل أن ينصرفوا . تلك عادة قديمة من شأنها أن توطد العلاقات بين المدينة والصحراء .

لقد قال الرسول عليه السلام ما معناه : أعطوا الهبات فتزرعوا المحبة في قلوب بعضكم البعض .

وانها لمن العادات القبيحة عند زعماء القبائل أن يغادر الضيف منزل مضيفه قبل أن يستأذن . إن حكاماً كابن سعود وشيخ الكويت وغيرهم يستخدمون طاقماً منظماً من البدو للضيافة تحت امرة « مضيفجي » شغلهم أن يعرفوا بقدوم الزائرين المهمين الى العاصمة وذلك لاستقبالهم استقبالاً لائقاً وتقديم الطعام لهم كل حسب مكانته وإفساح المجال لهم بمقابلة الحاكم لا يخرج منهما واحد خالي اليدين .

والزائرون من جهتهم يظهرون كل حشمة وأدب ، ولا يظهرون استعجالهم لزيارة الحاكم أو شغفهم بتقبل الهدايا . فمهمة « المضيفجي » إذن هي البحث عن

الزائرين الجدد والإلحاح عليهم لحضور مجلس الحاكم .

وبعد مدة من الزمان تلقينا رسالة سرية من فيحا وعمشا تقولان فيها ان مصيبة فادحة قد حلت بها . فقد أطلق زوجاها ، عبد العزيز وسعود الماجد الدويش ، النار على سعود الجبعة وهو رجل قوي في قبيلة قحطان تربطه بالدوشان علاقة زواج ، وأردياه قتيلاً ثم هربا الى العراق للخلاص من انتقام ابن سعود . ويبدو أن الجريمة تعود الى ثارات قديمة إذ ان والد سعود الجبعه كان قد قتل جد عبد العزيز وسعود الماجد قبل عدة سنوات . وقد أمر ابن سعود الذي كانت سياسته أن يمنع عائلة الدوشان من الانقسام على نفسها ، بوقف ثارات الدم وإحالة جميع قضايا القتل الى الشريعة للحكم فيها . ومنع آل ماجد من اللجوء الى العنف ووضع حلا معيناً . ولكن مع مرور الزمن شعر سعود وعبد العزيز أنه يتوجب عليها مسح العار بفرض عقوبة الدم وأخذ حقها بأيديها.

واستشاط الملك غيظاً من ذلك الحادث فاعلن مصادرة جميع ممتلكات وجمال الرجلين ومنعهما من العودة الى المملكة العربية السعودية تحت طائلة الموت. وكاجراء احترازي فوري ، منع عائلة الجبعه من اية محاولة للثأر وانتهت المسألة عند هذا الحد . وبقيت الزوجتان الشابتان لوحدهما ذليلتين وبدون جمال،ولذلك لم يكن بامكانهما زيارتنا إلا بعد فترة من الوقت .

بقي سعود وعبد العزيز في المنفى ثلاث سنوات ظلت فيحا وعمشا خلالها متخفيتين . وسمعنا ذات يوم ان ابن سعود أصدر عفواً شاملاً عن الرجلين وانهما قدما الى الرياض لتلقي العفو شخصياً وليطلبا الغفران . ولم أدر ما هي قيمة الغرامة التي دفعاها للتسوية ولكنه تأكد لدينا ان سعود وعبد العزيز عادا لممارسة حياتهما العادية من جديد ، فكنا نأمل أن نشاهد صديقتينا الصغيرتين في وقت قصير .

ولم نخطيء في ظننا . فقد جاءت فيحا وعمشا لزيارتنا بعد وقت قصير وسررنا لمشاهدتها . وقد صحبتا معهما اطفالهما لأن عمشا كانت في ذلك الوقت قد أصبحت أماً لطفلين ذكرين . وكانت تبدو على المرأتين دلائل الأيام العصيبة

التي مرتا بها وظهرت عليها اعراض الشيخوخة قبل الاوان . وقد أرتني عمشا المسكينة ضفائرها التي كانت في وقت من الاوقات طويلة جميلة ، وقد تقلص طولها الى النصف وأصبح الشعر فيها خفيفاً .

وطيبت خاطرها قائلاً:

– لا تقلقي ، اما وقد عاد زوجك وأصبح بامكانك الاكثار من الطعام وحليب الجمال ، فإن شعرك سيستعيد نموه .

وقد عملنا كل ما في استطاعتنا لتجهيزهن بالطعام والملابس الجديدة والمال . وأعطت زوجتي لعمشا طلاء للوجه قوي الرائحة فطلت به وجهها وهي في غاية السرور قائلة انه سيجعلها رائعة في عيني سعود . واتضح لنا من ذلك ان سعود قد ملّ زوجته الصغيرة وربما كان ابتعاده عنها ثلاث سنوات في العراق، وسحر الجمال الشمالي هما السبب في ذلك .

وعاد سعود وعبد العزيز وصحبا زوجتيهما الى الكويت في سنة ١٩٤٣ . وفي تلك المناسبة سرقت بندقيته وهو مخيم في الشاميه وهي بقعة يخيم فيها البدو خارج اسوار المدينة . فاتهم رجلاً من رعاة المنتفق بسرقتها ، وبعد محاكمة استمرت أسبوعاً جلد الرجل وغرم بثمن البندقية . ولكن الرأي العام لم يكن الى جانبه وكانت زوجته تعرف ذلك . وفي تلك الاثناء لم تأت هي أو شقيقتها فيحا لزيارتنا فقمنا نحن بزيارتهن في الخيمة ويبدو ان عمشا كانت خائفة من زوجها وكنا نأمل ان لا يؤدي الأمر الى مأساة .

وقبل ان يغادروا المدينة بعد زيارتهم الأخيرة ، طلب الزوجان ان يأتيا لمشاهدة غرفة استقبالنا الانكليزية وخاصة الجدين المعلقين على الحائط . ولم يحضرا زوجتيهما في تلك الزيارة الخاصة فاستقبلتهما زوجتي وكرمتهما . ان استقبال القتلة أمر يبدو أنه في غير محله في الجزيرة العربية . واني أعجب متى سيأتي دورهما !

غداء في الصحراء

لقد امرت الى الحفلة التي اقمناها للصديقتين ومعها عمشا بنت فيصل

الشبلان . ومع ان هذه الأخيرة لم تكن من منزلة اجتماعية رفيعة كصديقتينا ، لكنها كانت حالة جديرة بالدراسة . فقد كانت لها صديقة لا تفارقها اسمها وسمية وهي زوجة الشيخ محمد بن بدر الدويش شقيق هزاع زوج عمشا . ومع ان هاتين الزوجتين لم تكونا دويشيات، إلا ان عمشا وفيحا كانتا تعطفان عليها ، وكانت الأربع على علاقة صداقة وود .

وكانت عمشا بنت فيصل الشبلان تحب زوجها كثيراً وكانت مرحة وطلقة اللسان كأية فتاة انكليزية . وكنت انا وزوجتي نحبها كثيراً ، وكانت هي تعرف طبعاً كيف انني انقذت والدها من الاعتقال مما أدى الى استعادة مكانته عند الملك وكسب عطفه ورضاه . وكانت تتظاهر وكأنها في خوف دائم من ان يتخذ زوجها لنفسه زوجة أخرى غيرها ولذلك كان من السهل اغاظتها . ومن حيلها الأخرى أنها اوردت عبارة نابية غير انثوية ، ثم تنبهت لما قالته فلطمت بيدها وصرخت قائلة :

– يا ويلي .. يا ويلي .

وذات يوم جاءت الى منزلي مع طفليها وصرخت قائلة :

– يا أبا سعود ، أنني أشعر بألم شديد في صدري يهز جسدي ، اتظن انني اعاني من « البلش » .

و « البلش » مرض اجتماعي لا يجوز ذكره ولا يتحدثون عنه عادة . وطلبت منها وأنا اضحك ان تمد لسانها ففعلت بعد ان رفعت برقعها فظهر من تحت البرقع فم صغير رائع الجمال وذقن مزروعة بالوشم. وطمأنتها وأعطيتها جرعة من الكينا مع ست نقاط من الحامض . ولمحت على الطاولة زجاجة فيها حلوى فظلت وراءها طيلة الوقت .

وعادت إليّ مرة ثانية وتظاهرت أن مصيبة أخرى قد حلت بها وقالت إن والدها مريض وعلى وشك الموت في مكان يبعد خمسة وعشرين ميلاً عن المدينة . وأخذت تتوسل إليّ قائلة :

– يجب أن تأخذني بسيارتك يا ابا سعود أرجوك أرجوك لأنني أعلم أنه

بحاجة إليّ ويريدني الى جانبه .

وصدف أنني كنت ذاهباً وزوجتي الى مخيمنا على بعد ثلاثين ميلاً تقريباً من الكويت ، فأخذنا عمشا معنا . ولدى وصولنا الى المخيم علمنا ان فيصل الشبلان يبعد عنا عدة أميال وانه قد استعاد صحته . ولكن ابنته على كل حال استمتعت بالرحلة في السيارة .

أما صديقتها وسميه فكانت ضعيفة واسعة العينين . وكان زواجها من محمد الدويش عن حب جارف لأنـــه فضلها على ابنة عمهـا التي كانت ، حسب قول وسميه ، دويشية عادية ذات فم قبيح وشفة سفلى متدلية . ولكن وسميه كانت جذابة تميل الى المرح عندما تشجعها عمشا على ذلك . وغير ذلك كان فيها أمران مزعجان : كانت دائماً تتكلم بصوت عال هادر ، ودائماً تفح منهـــا رائحة الأطفال . فكانت تسمح لطفليها أن يبولا على ركبتها دون أن ترى ضرورة في غسل ملابسها . ربما لم يكن لدى المسكينة ثياب أخرى لتبدلها . وعلى كل حال كانت رائحتها أحياناً لا تطاق . وعندما شاهدناها آخر مرة أبلغتنا باعتزاز أن محمد لا يزال يحبها بصورة جنونية . وعلى حد قولها :

– هو يحبني ويموت علي .

واعتقد أن ذلك أمر لا بأس به .

لقد شاهدنا وسميه وعمشا في أحســن حال عندما قمنـا بزيارة محمد بن بدر في الشق حيث كان يخيم مع شقير بن شقير . أما هزاع بن بدر الذي كانت خيمته الى جانب خيمة محمد ، فكـان في الرياض يزور الملك ، ولذلك نزلنا في خيمة محمد . وقبل الغداء وبعد أن شربنا القهوة مع محمد تلقينا رسالة عـاجلة من عمشا بنت فيصل الشبلان تقول فيها إنه يتوجب علينا تشريف خيمة زوجها الغائب في زيارة رسميــة لتناول القهوة . ونزلنـا عند رغبتها فاستقبلتنا عمشا استقبالاً رائعاً واحتفت بنا كما يفعل الرجال وأصرت على أن تصنع القهوة بيدها .

وبعد أن قمنا بواجباتنا عدنا الى خيمة محمد حيث أعد لنا غداء فاخر هو عبارة عن خروف طهي مع الأرز على طريقة البدو البسيطة . وبعد القهوة دعينا

رسمياً الى النصف الثاني من الخيمة حيث تقيم وسميه لتناول فنجان من الشاي على الطريقة العربية . وكانت عمشا هناك طبعاً ، وظهرت المرأتان بأحلى حللها وكانتا رائعتي الجمال .

وقضينا ساعة ممتعة ، فكان محمد يقص علي الحكايات بينما كانت المرأتان تلعبان بمجوهرات زوجتي وملابسها وحلقها وشعرها ، وتسألان اسئلة صعبة طوال الوقت تتعلق بالزواج والجنس والاطفال وغيرها من القضايا المحرجة . ولم توفراني اذ بدأتا مزاحاً عنيفاً على مرأى من زوجتي . واعترف انني اشتركت بحفلة المزاح فأخبرتهما انه عندما يطلقها زوجاهما سأستأذن الملك وأتزوجهما كلاهما ، وانني قد حصلت على موافقة زوجتي بذلك . وانطلقت منهما صرخات الاحتجاج قائلتين ان زوجيهما لن يطلقانها .

وقلت لهما :

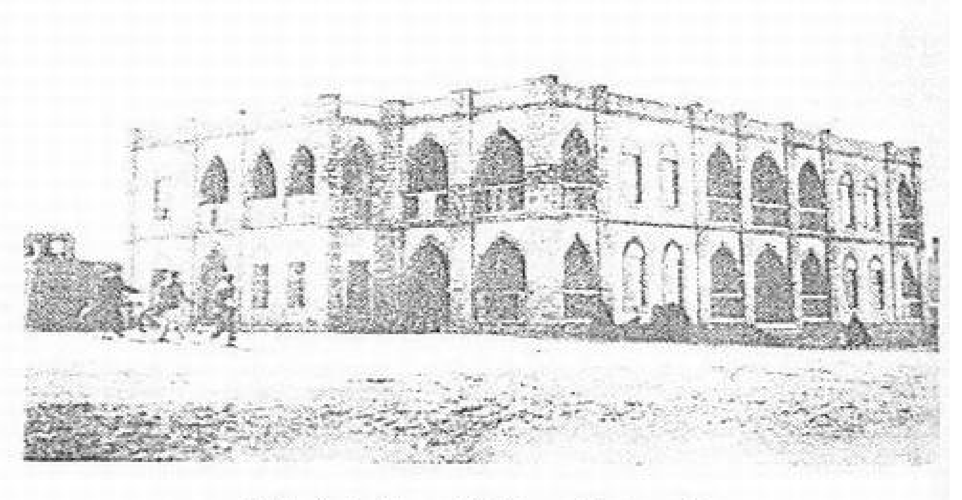
ـ لا تكونان اكيدتين من ذلك . إنني أعرف ان هزاع قد وقع نظره على فتاة جميلة في الرياض . أما بالنسبة لمحمد فكل واحد يعرف انه يريد التغيير .

لقد قضينا بالفعل يوماً طيباً ودهشنا لأننا رأينا أولئك السيدات ذوات الأصل الرفيع وأزواجهن في منازلهم الصحراوية ، على قسط كبير من الانسانية ولا يختلفن في الأساس بشيء عن أهل بلادنا . ولاحظت ان محمد قد اشترك في حفلة المزاح لأنه يعرف انه يتمتع بمكانة عالية في القبيلة بحيث انه لا يخشى الشائعات وألسنة السوء .

هؤلاء هم أصدقائي من اهل الصحراء . لقد ذكرت كل تلك الوقائع التافهة من جملة تجاربي المشابهة لها ، لأظهر مدى بساطة حياة أولئك القوم وكيف ان نساء البدو يتمتعن بجاذبية بريئة عادية اذا استطاع المرء أن يخترق جدار الشك وسوء الائتمان الذي يفصلهن عادة عن الزائر الغربي .

سحر صلبة

سأذكر علي بن شويربة شيخ البرزان أحد فروع مطير ، لأنه قام بزيارتين



مستشفى اولكوت التذكاري للنساء في الكويت

CHARLES STANLEY GARLAND
MYLREA
PIONEER MEDICAL MISSIONARY
DIED IN KUWAIT JAN. 3, 1952
MEMBER OF THE ARABIAN MISSION
OF THE REFORMED CHURCH IN AMERICA

قبر وحيد في المقبرة المسيحية بالكويت يضم رفات صديق عزيز



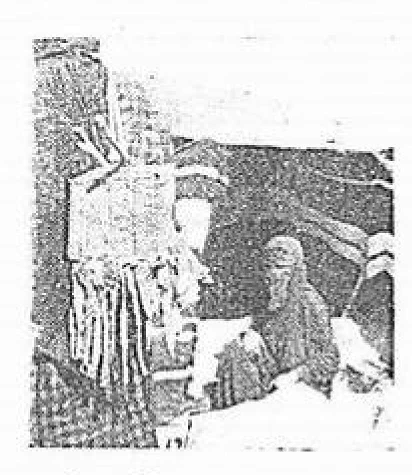
الشيخ شعيا ابو شيبا من جبلان
(مطير) وابنته عجميه



منيف المنيفس من عجمان يحمل
صقر الشيخ ناصر الصباح الناصر
الصباح



خميس بن رمضان من عجمان
الذي يعتبر اعظم مرشد في الجزيرة
العربية اليوم وهو موظف في
ارامكو وصديق عزيز لنا



سعيده وهي من آل مرة
وقد وضع طفلها في المزبح المعلق
على كتف المرأة التي تبدو الى اليسار

سريتين للعراق محاولاً اقناع الملك فيصل بان راية النصر معقودة للاخوان، وذلك لكي يجر العراق الى دخول الحرب الأهلية ضد ابن سعود .

وبعد انهيار الثورة السيئة الحظ لجأ علي لمدة الى العراق ثم عاد الى السعودية بعد ان عفا عنه ابن سعود . وقد نشأت اول معرفة شخصية لي به في صيف سنة ١٩٢٠ وهي آخر سنة كنت فيها وكيلا سياسياً لحكومة صاحب الجلالة في الكويت .

وذات صباح قدم لزيارتي برفقة عمه فالح بن شويربة ، وكان يبدو انه رجل مريض . وتناول فالح الحديث وأخذ يشرح لي ان علياً ابن أخيه جاء ليقابل الدكتور ميلري طبيب الإرسالية الأميركية ، لأنه يعاني من تأثير سحر ألقته عليه زوجته ، ويعتقد انه ربما كان لدى الدكتور ميلري المشهور بمهارته ، سحر معاكس يطغى على السحر الواقع تحت تأثيره .

وقال فالح ان زوجة علي كانت تحبه حباً طاغياً الى أن تناهى اليها انه يفكر في الزواج من فتاة تنتمي الى قبيلة مجاورة ، فذهبت الى امرأة حكيمة من أخوية صلبة اشتهرت بالسحر . واخبرتها قصتها وطلبت منها ان تسلط سحراً قوياً على زوجها لاستعادته ولتحطيم احابيل غريمتها .

وبهدية مغرية من المال على حد قول فالح وضعت المرأة سحرها موضع التنفيذ . ولا يستطيع ان يقول ما اذا كان نوع من السقوى (سم سحري) قد وضع في قهوة علي ، ولكنه يرجح ان يكون قد وضع شيء شرير في وسادته او في المسند الذي يتكيء عليه عند الاستراحة . وربما كان ذلك حرزاً مكتوباً مع سحر معين ، او شعرات من لحية علي ، وقطعاً متنوعة الألوان من الحرير ، وعدداً من الابر وغيرها من أنواع السحر الشرير التي لا تفهمها إلا النساء اللواتي يختلطن بالصلبه . وأياً كان نوع السحر فان نتيجته كانت مؤلمة . فالشيخ المحبوب الذي كان في يوم من الأيام جبلاً شجاعاً لا يعرف الخوف قلبه ، قد تحول الى رجل ضعيف محطم ، ولذلك يتوجب عمل شيء لانقاذه .

كان فالح يتكلم طيلة الوقت وابن أخيه جالس لم ينطق بحرف واحد لكنه

كان يهز رأسه من وقت لآخر اشارة منه الى أن ما يقوله عمه صحيح .
وسألته :
– يا شيخ علي ، ألا زلت تحب زوجتك ؟
فأجابني بقوله :
– نعم. وهي تحبني كما لم تحب امرأة في العالم من قبل. لكنها أصبحت مجنونة وسيطر عليها وهم بأن زواجي من امرأة ثانية يعني نهاية حبي لها . انها مجنونة وغير معقولة الى درجة كبيرة .. ولكن ما الحيلة مع امرأة مجنونة؟ لقد اخبرتها مراراً وتكراراً ان الزواج من امرأة ثانية مسموح للرجل ولكنها لم تقتنع . وانت تعرف ان هذه عادتنا نحن العرب .

وكتبت رسالة للدكتور ميلري طلبت منه فيها ان يفحص الشيخ علي بعناية ويدخله الى المستشفى اذا اقتضى الأمر . وذكرت له ان المريض شيخ مرموق في السعودية واني أود مساعدته في قضية نفقات المستشفى أو الاجور اللازمة . ولم أذكر له شيئاً عن مسألة السحر . وسلمت الرسالة لعلي وأرسلته مع فالح الى مستشفى الارسالية .

وبعد مضي يومين جاءني فالح لوحده . ولما سألته عما وراءه من أنباء بعد تناول القهوة ، سلمني رسالة جوابية من الدكتور ميلري قال فيها أنه فحص المريض بدقة ووجده مريضاً بالسل في درجاته النهائية ، فأدخله الى المستشفى للمعالجة . وأعرب الطبيب عن خوفه من أن وفاة الرجل أصبحت مسألة أسابيع معدودة ما لم ينقل الى مصح حمانا في لبنان وحتى هناك لن تشفيه إلا أعجوبة .
وأخذت أشرح لفالح باهتمام مضمون الرسالة . وكان يصغي إليّ بأدب الى أن انتهيت ففاجأني بقوله : – الطبيب غلطان . نحن العرب نعرف ما هو السل. إن مرض علي ليس من هذا العالم ولكنه نتيجة سحر – سحر شرير . فإذا كان الطبيب يعتقد ذلك ، فإن عليّ أن أقوم بترتيبات أخرى وكل شيء في النهاية بيد الله .

وأحرجني كلامه فأخذت أشرح له أن الدكتور ميلري مشهور بين البدو

لسمة معرفته وانـه يحظى بتقدير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وسمو الشيخ أحمد حاكم الكويت ، وتوسلت إليه أن يعطي الطبيب فرصة قبل أن يقدم على عمل متسرع .

وقبل أن يخرج فالح من مكتبي ، وكان غاضباً مسعوراً ، أشار الى أنـه إذا توفي علي سيذهب الى حفر الباطن على جناح السرعة ليذبح زوجة علي الساحرة المجرمة . وقال :

– انها لن تعيش إذا توفي علي بن شويربة .. أقسم بالله .

ولما وزنت تلك العبارة وتأملت فيهـا أرسلت بعد خمسة أيام رسالة شفهية سرية خاصة الى زوجة علي أحذرها أن تختبيء في مكان أمين . وقبلت الزوجة نصيحتي فغادرت خيمتها سراً ولجأت الى خيمة قـائد سرية الملك الذي كان مخيماً مع عائلته في حفر الباطن ، « فزبنوها » – على حـد قول العرب – أي أعطوها الحماية . واعتقدت أنها أصبحت في مأمن .

ثم تلقيت رسالة مستعجلة من الدكتور ميلري يخبرني فيهـا أن الشيخ علي بن شويربة قد نقل من المستشفي وان الشيخ فالح أتى بسيارة وأخذه . ويبدو أن ميلري انزعج من ذلك التصرف .. وهو أمر طبيعي . وبعد تحريات قمت بهـا علمت أن فالح أخذ ابن أخيه الى امرأة عجوز معروفة في المدينة بأن لهـا قدرة خاصة ، كما يقول الرجال، وتتعاطى فقط قراءة مقاطع خاصة من القرآن الكريم فوق المريض ليلاً نهاراً .

وقالت المرأة العجوز لفالح :

– تدفع لي فقط إذا شفي الشيخ .. أما إذا فشلت فلا تدفع لي شيئاً .

وعاش علي بعدها عشرة أيام فقط وأعطى عمره . فقالت المرأة :

– ما الفائدة . اراد ان يموت .

ولم أعد اسمع شيئاً عن هذه القضية طيلة فصل كامل تقريباً الى ان وصلتـني أنباء مزعجة تقول ان عجيب بن شويربة شقيق فالح قد زحف متسللاً الى خيمة قائد سرية الملك في هدأة الليـل والجميع نيام ، واطلق النار على أرملـة علي

فأرداها قتيلة .

ويقول البدو الذين يحبون فوق كل شيء تنميق الحكايات ، ان عجيب قبل ان يقتل ارملة علي ايقظها من نومها بهدوء وهمس في اذنها ان جرائمها كذا وكذا، وان الوقت قد حان لتكفر عنها . انا لا اصدق هذا الجزء من القصة ولكنه قد يكون صحيحاً . وتمكن الشيخ عجيب ان يهرب سالماً ولم يعثر عليه بالرغم من التفتيش الدقيق في كل مكان . كانت الحدود العراقية قريبة فذهب الى المنفى الاختياري لمدة سنتين ثم أعد خطة للعودة الى السعودية تقضي بان يدخل على شخص كبير في السلطة ويطلب منه التوسط له . ووجد طريقه سراً الى الهفوف حيث انسل الى منزل سعود بن عبدالله بن جلوي آل سعود امير الاحساء ودخل عليه . وابرق سعود بن جلوي بالنبأ الى الملك الذي أرسل له امراً فورياً باعدامه لأنه قتل شخصاً آمناً تحت خيمة قائد سرية حفر الباطن .

وأخذ سعود بن جلوي يماطل بذكاء شارحاً للملك ان عجيب دخل عليه وطلب الحماية في منزله . ولذلك فان قتله سيكون له مضاعفات سياسية في كل مكان وخاصة في مطير . الم يقتل فهد بن جلوي ، شقيق سعود ، ضيدان الحذلان شيخ عجمان بعد أن دعاه الى خيمته وسقاه قهوته ... فجرّ هذا العمل عجمان كلها سنة ١٩٣٠ الى الثورة علناً ؟ ثم ألم يصب الملك عبد العزيز جام غضبه سنة كاملة على عبدالله بن جلوي آل سعود حاكم الاحساء وقتذاك ووالد فهد وسعود؟

بهذه الحجج وغيرها تمكن سعود بن جلوي من اقناع الملك الذي أمر باعفاء عجيب من عقوبة الإعدام ولكنه أصر على سجنه ستة أشهر تحصيلاً للشرف . وبعد انتهاء فترة السجن رتب عجيب الذكي بمساعدة فالح الثعلب الذي اصبح شيخ برزان مكان المرحوم علي ، أمر ترويج عبد المحسن شقيق سعود بن جلوي من سلفا ابنة علي الجميلة . وكان الكل سعداء وعلى استعداد لنسيان الماضي .

وبعد خمس سنوات من تاريخ هذه الاحداث قدم الشيخ عجيب الى الكويت وأقام خيمته قرب المكان الذي كنت مخيماً فيه في ابرق خيطان . ودعانا ذات يوم الى الغداء وهمس في اذني ان سلفا ابنة علي وزوجة الشاب عبد المحسن بن

جلوي موجودة معه في خيمته ولكنها مريضة . واراد ان تذهب زوجتي لزيارتها وان تصحب معها ان امكن الدكتورة روث كراوز طبيبة الارسالية لفحصها . وكان شديد الخوف عليها ظناً منه انها واقعة تحت تأثير السحر .

وسألته :

– الست انت عجيب الذي قتل زوجة علي بن شويربة البرينة بدون أي سبب ؟

– نعم انا قتلتها .

قيل ذلك بحضور خمسة عشر رجلا من البدو كان يشربون القهوة معي .

واضاف قائلا :

– وفيا بعد وجدنا السحر الذي وضعته لشيخنا علي ولذلك فان قتلها له ما يبرره .

وسألته :

– اي نوع من السحر هو ذاك ؟

– انه وثيقة طويلة مليئة بالكتابات الشريرة . لقد وجدناها مدفونة بالقرب من احدى الدعائم الخشبية التي نجر بواسطتها الماء من آبار الحفر . وكانت الاشارة الى المكان عظمة جمل .

وفك هذا الجواب السخيف عقدة لساني والقيت على عجيب والرجال الجالسين معنا محاضرة طويلة عن سخف معتقدات البدو فيما يتعلق بالسقوى والسحر وغيرها من الخرافات . واخبرتهم انه منذ ثلاثمائة سنة كان الانكليز يحملون نفس المعتقدات ولكنهم اليوم يخجلون من مجرد ذكر مثل هذه السخافات. واخبرتهم اشياء اكثر من ذلك ولكنني كنت اشعر انني اخاطب آذاناً صماء . وتحديت عجيباً ان يثبت لي ان دم رجل برزاني يستطيع ان يشفي رجلا أو جملا أو حصاناً أو خروفاً عضه كلب أو ثعلب مسعور ، من الجنون المميت. وذلك ، كما ذكرت آنفا ، اعتقاد سائد في الجزيرة العربية . وأجاب عجيب على كل تهكماتي تلك بقوله ان العرب وحدهم يفهمون تلك الأمور . وقال بالحرف

الواحد :

– نحن نعرف شيء وانتم تعرفون شيء .

وفي اليوم التالي صحبت زوجتي معها من الكويت الدكتورة كراوز التي شخصت مرض سلفا الجميلة بأنه سل ربما انتقل اليها من والدها . وعادت المسكينة بعد عدة اشهر الى الاحساء حيث فارقت الحياة .

ويسرني ان اسجل هنا ان ليس كل البدو كالبرزان الذين عرفوا بغبائهم وتعصبهم وامتلاكهم لتطير خاص بهم .

دغيمه ووكر الثعلب

دغيمه هي الابنة الجميلة لمزيد الظافري احد الخدام الذين رافقونا في جولاتنا عبر الصحراء حول الكويت . وكانت ، مع صديقتيها الاكبر منها ، وضحا وضحيه ، ابنتي ضويحي الحرميت احد اتباعنا من العوازم ، رفيقة هيا ابنة سالم المزين دليلنا في الصحراء ، لا تنفصل عنها قيد انملة .

وفي ذلك الوقت كانت وضحا وهيا تبلغان الخامسة عشرة من العمر بينما لم تكن ضحية تتجاوز الثانية عشرة ودغيمة العاشرة من العمر . كانت دغيمه يتيمة الأم فكان والدها مزيد يعتني بها فيطهي لها الطعام عند غروب الشمس ويعنى بجماله الستة في النهار . ولم تكن دغيمة قوية البنية ونادراً ما كانت تبتسم .

وفي أيام العيد كان الفتيات الأربع يأتين الى خيمتنا مع امهاتهن وعماتهن ، حيث كن عند المساء يقمن باداء رقصات واغنيات بدوية وهن في ثياب العيد الزاهية وشعرهن مسدول على اكتافهن . كانت رقصاتهن خاصة بهن وهي عبارة عن حركات رهز خفيفة بعمل فيها الرأس بشكل دائري مرة الى اليمين ومرة الى اليسار . ولم يتوقفن عن الرقص إلا عندما يطغى عليهن الاعياء والدوران ، ثم يركعن امامنا لتلقي التهاني والمدائح . وكانت دغيمة أكثر رفيقاتها خجلاً .

وفي أواخر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ قمنا باحدى رحلاتنا العادية مع سالم ومزيد وضويحي وعائلاتهم وامتعتهم ومواشيهم ، باتجاه منخفض الشق عند

حدود الكويت الغربية . ووصلنا الى تلة آرحيه وأقمنا خيامنا هناك ومجموعها ست خيام بما فيها خيمتنا السوداء الجديدة التي كانت تبدو بارزة بين الخيام .

وقضيت انا وزوجي نهارنا في الصيد مع سعود بن غران الذي يهتم بصقور الصيد الخاصة بالشيخ أحمد حاكم الكويت، في أم الشذاذين وسلسلة خد السعادة. وعدنا الى المخيم قبل غروب الشمس ومعنا كيس فيه خمس حباري ، فسلمناها الى زوجة سالم حمشا – او عطشى كما يلقبونها – لتطبخها .

وكان المساء بارداً فسرنا أن نجلس حول النار لابسين فروات من جلد الخروف نحتسي القهوة . وبعد غروب الشمس بوقت قصير تحول الطقس تحولاً ملحوظاً وهي ظاهرة عادية في قلب الصحراء في مثل ذلك الوقت . فقد تلبدت غيوم كثيفة سوداء فوق رؤوسنا من الشمال سبقتها ريح باردة كالثلج هبت بقوة العاصفة .

ووضعنا كومة من الحطب فوق النار وثقلنا الستائر الخلفية للخيام بان دفنا اطرافها في الرمل وشددنا حبالها جيداً على الاوتاد . واشتدت حلكة الليل في تلك الاثناء واذكر انني خرجت لأتفقد قرب الماء التي قيل انها تجمدت خلال فترة لا تتعدى الساعتين من وصولنا الى المخيم . وبصعوبة فائقة جمعت الأغنام في الظلمة مع جمال سالم وأوى بعضها داخل الخيام وبعضها الآخر خارجها . ومما زاد الوضع سوءاً ان المطر بدأ ينهمر بغزارة ممزوجاً بالثلج والبرد الامر الذي أضاف الى حلكة الليل حلكة جديدة ودفع الى تحت اللحاف كل من سولت له نفسه الخروج لمواجهة العاصفة .

وفجأة طلع صراخ بان دغيمة لم تأت الى الخيمة وان واحداً من جمال أبيها لم يصل بعد . وعقدنا مجلساً طارئاً ذكر فيه ان دغيمه خرجت لوحدها بعد الظهر لترعى جمال أبيها وهي ترتدي دشداشة قطنية خفيفة وبدون عباءة تقيها البرد والمطر ، وانها شوهدت آخر مرة على بعد أربعة أميال . وكان مزيد والدها قد ذهب الى الكويت لشراء بعض المؤن .

وبدأ المطر عندئذ ينهمر كالسيل . وبالرغم من أن مخيمنا كان قائماً على أرض

مرتفعة ، فانه اصبح صفحة من الماء تدخل اليه من جهة وتخرج من جهة . وكل ما كان باستطاعتنا ان نفعله هو ان نجمع الفرش والبسط على بعضها ونجلس فوقها في الظلام .

ولكن دغيمه المسكينة استأثرت بكل تفكيرنا . وقد حاول سالم واثنان من العوازم أن يقوما بجهد بطولي للوصول إليها أثناء الليل ولكنهم لم يستطيعوا التقدم كثيراً واضطروا الى العودة عند منتصف الليل منهوكي القوى . وقلقنا جميعنا قلقاً بالغاً ظناً منا أن الفتاة قد تجمدت من البرد منذ فترة طويلة .

وفي الساعة الرابعة صباحاً توقف المطر وكانت المنطقة كلها عبارة عن بركة ماء يلفها الضباب . وكانت الرؤية لا تتعدى عشر ياردات ومع ذلك أرسل فريق للانقاذ ـ كنت أنا واحداً من أعضائه ـ بقيادة سالم لنرى ما حل بالفتاة وجمالها . ووجدنا طريقنا ببطء على آثار أقدام الجمال باتجاه الكويت . وكانت الأرض على جانبي الآثار صعبة تتألف من كتل كبيرة من العشب المعروف باسم « تنـدا » تجمعت على قواعده مرتفعات من الرمل يبلغ ارتفاع بعضها أربعة أقدام ، مما جعل تقدمنا صعباً للغاية .

وعند الفجر وصلنا الى المكان الذي يقصده سالم ولكننا لم نجد أثراً لدغيمه أو لجمالها . وتفرقنا كل واحد في جهة على أمل أن نعثر على جثة الفتاة متجمدة . وفجأة سمعنا صراخاً فركضنا باتجاه الشخص الذي كان يصرخ ويلوح ببشته .

ووجدنا دغيمه وقد انطوت على نفسها داخل وكر للثعلب . لقد كانت على قيد الحياة ولكنها بالغة الاعياء وغير قادرة على التحرك من البرد . وحملناها الى الخيم بفرح عظيم . وبعد ان أدفئت بجانب النار وأعطيت شراباً ساخناً وبعض الطعام استطاعت أن تقص علينا قصتها . وبلغة الأطفال حدثتنا كيف أن جمالها ضاعت في الليل عندما بدأت تشتد غزارة المطر . ولكنها ، كفتاة بدوية ذكية ، قررت أن تجد لنفسها مأوى بالرغم من الخوف والمطر والظلام والبرد القارس . ورأت وهي مبللة بالماء وتعاند قوة الريح ، أن تحتمي وراء تلة رملية حولها فأخذت تحوم في المكان بحثاً عن واحدة كبيرة .

وقالت دغيمه :

ـ إني لم أبك ولكنني كنت خائفة . وساعدني الله بأن قادني الى وكـــر للثعلب أخذت أكبره وأعمقه . ولم يكن ذلك صعباً لأن الرمل كان رطباً . ثم زحفت الى الوكر هرباً من الريح التي كانت تهب من فوق الوكر الى جذور الثندا فلم يصل الى الوكر إلا القليل القليل من المطر .

واعتنينا بدغيمه عنايـــة فائقة طيلة اليوم التالي لا لأنهـــا أظهرت شجاعة وروحاً عالية فقط ، بل لأنها عضو عزيز في عائلة مخيمنا . ووصل والدهـــا الى المخيم بعد يومين وكان شبه مجمــــد من تعرضه للبرد ولكنه واصل سيره قلقاً على جماله . وكان تعليقه الوحيد عندما سمع قصة مغامرة ابنته :

ـ شكراً لله .. لقد فعلت حسناً .. ولكن ماذا تتوقعون من ابنتي ؟ انهـا شيطانة صغيرة .

ووجدت جمال مزيد سالمة كلها بالقرب من واحة جهرا ولم يصب واحد منها بأذى ولكن العاصفة قتلت تسعاً من أغنام سالم وجملاً مريضاً .

حلم امرأة من عتيبه

أخبرني هـــذه القصة في المخيم بتاريخ ١٣ شباط سنة ١٩٣٧ شخص مرموق من رعايا الكويت التابعين لقبيلة عنيزه فور وصوله من الرياض ، وليس هنالـك سبب يدعوني للشك في صحتها . والرجل يحمل سمعة عطرة واخباره موثوقـة وهو رئيس احدى قرى القصور ويتمتع بثقة واحترام الشيخ . وسأحجب اسمه لأسباب معروفة .

قال ان امرأة معروفة من عتيبه عاشت خارج الرياض عدة سنوات ويعرفها الجوار بأنها امرأة حكيمة قادرة على تفسير الاحلام ، قد حلمت حلماً اثناء صيام رمضان الأخير .

لقد حلمت انها كانت جالسة تغزل الصوف خارج خيمتها عند المساء ، عندما لمحت رجلاً قادماً نحوها من بعيد . وكان الرجل طويلاً كبيراً رقيق الوجه . وما

وصل اليها حياها وقال لها :

– ايتها المرأة ان امام الملك عبد العزيز آل سعود ثلاث سنوات أخرى فقط يعيشها وقد دخل في السنة الأولى منها التي بدأت ببدء صيام رمضان . وعندما يموت سيكون هناك حزن عميق عليه في طول البلاد وعرضها وستشن كل قبيلة الحرب على الأخرى ويقوم كل واحد من أبناء الملك على أخيه . انهضي ايتها المرأة وحذري أولادك الثلاثة ان يشتروا السلاح والذخيرة استعداداً للاضطرابات العظيمة لأن يد كل رجل ستمتد الى جاره ولن يكون أحد في مأمن . اما انا ايتها المرأة فسأموت بعد خمسة أيام لأن الملك أمر رجال حربه بالبحث عني وقتلي . فهو قد غضب غضباً شديداً لأنني نقلت اليك هذه الأنباء السيئة الطالع .

ولما افاقت المرأة من حلمها قلقت كثيراً فأرسلت الى أولادها الثلاثة تقول لهم :

– يا أولادي ، ان روح الله ظهرت علي وانا نائمة وحلمت ان ملاك الرب حضر علي وكلمني كذا وكذا . انهضوا واذهبوا الى المدينة واشتروا لأنفسكم اسلحة الحرب لأنه كتب على ابن سعود ان يموت خلال ثلاث سنوات وستحدث اضطرابات عظيمة في البلاد تشملكم وتشمل أولادكم . اما بالنسبة لي ، امكم العجوز ، فقد أصبحت على قاب قوسين أو ادنى من الموت لأنه ظهر لي انني سأقتل خلال خمسة أيام من هذا اليوم .

ودهش أولاد المرأة لكلام والدتهم فتشاوروا فيما بينهم وقرروا ان يفعلوا ما أمروا به واقسموا اليمين ان لا يخبروا أحداً بما سمعوه . ومضت أربعة أيام دون ان يحدث شيء ، وفي اليوم الخامس شاهدوا فريقاً من الهجانة المسلحين يقتربون بسرعة نحو خيمتهم . ولدى وصولهم اناخوا جمالهم الى الأرض وتقدموا الى الخيمة . وصرخ قائدهم قائلاً :

– اين راعية البيت .

واجابه أولادها بقولهم :

– انها في الداخل ايها الصديق ماذا تريد منها ؟

وفي تلك اللحظة خرجت والدتهم من جناحها في الخيمة فاطلقت عليها النار فوراً وسقطت قتيلة . وكل ما قاله القائد الحازىء وهو يغادر الخيمة مع رجاله :

– ان اوامر الملك مشددة وان باعه لطويل حيث توجد الساحرات .

ابلغني محدثي ذلك بكل أسف وكأن الويلات والخراب سيحلان على نجد . وقال ان القصة طمستها السلطات السعودية ولكنها انتقلت بالهمس من فم الى فم بين قبائل البدو في الجزيرة العربية . كيف يكون الملك سمع قصة حـلم تلك المرأة ؟!

الفصل الخامس عشر

الرياض

١٩٣٧

في ٢٣ كانون الأول سنة ١٩٣٤ منح الشيخ أحمد، بموافقة الحكومة البريطانية، امتيازاً للتنقيب عن النفط لشركة نفط الكويت وهي شركة انكلو - اميركية مشتركة . وفي صيف سنة ١٩٣٥ قام الشيخ بزيارة خاصة للندن حيث استقبل استقبالاً حافلاً . وفي أول نيسان سنة ١٩٣٧ منح لقب صاحب السمو من قبل الحكومة البريطانية وبعد ذلك بفترة قصيرة منح لقب K. C. S. I .

ولما بلغت سن التقاعد من الخدمة في الجيش سنة ١٩٣٦ وبالتالي من منصب الوكيل السياسي لحكومة صاحب الجلالة ، اصبحت الممثل المحلي الرئيسي لشركة نفط الكويت . وحل مكاني في منصب الوكيل السياسي الكابتن جيرالد دي غوري .

وفي تشرين الأول سنة ١٩٣٧ قمت مع زوجتي بزيارة للرياض حيث حللنا ضيوفاً على ابن سعود وكانت المسافة التي قطعناها بالسيارة خمسماية ميل في كل اتجاه . ولدى عودتنا سجلت زوجتي بعض الانطباعات . أما أحاديثي الخاصة مع صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود أثناء إقامتنا في الرياض والمسجلة

ايضاً في هذا الفصل ، فكانت مشرقة ومليئة بالعاطفة وخاصة عندما بحث قضية فلسطين . وفي الواقع ، كانت كلمات ذلـــك الرجل العظيم والصديق الصادق للحكومة البريطانية ، كالنبوءة وتنطبق على يومنا الحاضر . وبرأ بوعدي سجلت كل ما دار بيني وبينه من أحاديث بعد كل مقابلة من المقابلات الثلاث التي تكرم ومنحني اياهـا ، ولدى عودتي الى الكويت ارسلتها بظروف سري شخصي الى المستر والتون مساعد وكيل وزارة الخارجية – دائرة الهند لمعلوماته ومعلومات حكومة صاحب الجلالة .

رحلة الى الرياض بالسيارة

بقلم فيوليت ديكسون

بين بساتين النخيل وفي منخفض تحيط به الصخور الجافة ، تقع مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية .

لقد دعا الملك عبدالعزيز آل سعود صديقه ديكسون لزيارة الرياض عـــدة مرات . وذلك الصيف وبينما كنت في لندن استحصل زوجي على اذن من وزارة الخارجية ومن حكومة الهند للقيام بهذه الرحلة ولم تر شركة النفط مانعاً في ذلك. وتلقينا رسالة من ابن سعود يقترح فيها ان نأتي الى الرياض إما قبل رمضان الذي يبدأ في ٤ تشرين الثاني وأما بعد العيد مباشرة . وبما ان الرحلة كانت تقتضي مسيرة ليلة او ليلتين في الصحراء فوجدنا من الأنسب ان نذهب قبل رمضان اذ يكون الطقس لطيفاً غير شديد الحرارة ولا شديد البرودة .

ووصلت من انكلترا في ١٢ تشرين الأول فوجدت ان جميع الاستعدادات قد اتخذت لسفرنا في سيارتين فجر الحادي والعشرين ، وأرسلنا برقية بهذا المعنى الى الملك . وجرينا قرب الماء وطلبنا خيمة كالتي يحملها الحجاج معهم الى مكة وغيرهـا من الأشياء الخفيفة الضرورية جداً لئلا تثقل السيارتـــين اللتين كانتا ستقطعان رمال صحراء الدهانه الصعبة .

وفي صباح التـاسع عشر جاء عبدالله النفيسي وكيل ابن سعود التجاري في

الكويت لزيارتنا وليبلغنا انه تلقى برقية من الملك يقول فيها انــه ذهب ليخيم ويطلب منا ارجاء رحلتنا يومين ليتسنى له استقبالنا في الرياض .

وقبل ساعــة من غروب الشمس في ٢٢ تشرين الأول أحضرت السيارتان الى باحة منزلنا الخلفية حيث حملت بالأشياء والامتعة الضروريــة والوقود الاضافي والماء وغيرها .. ما عدا الطعام الذي أعــد في الصباح ، وكان عبارة عن سبعة فراريــج طهيت مع الأرز على الطريقة العربية ، واربعة أرطــال من اللحم ، وأربعين رغيفاً من الخبز العربي وعلبة من الحلوى وكمية من التمر ودزينة من البيض المسلوق .

ووصل الدليلان سالم المزين وسعود بن غران مع سائقي السيارتين الى منزلنا قبل شروق الشمس بساعة ، وبعد افطار سريع كنـا جاهزين للسفر وكنت انا وهارولد نرتدي الملابس العربية وركبنا في المقعد الخلفي باحدى السيارتين وجلس سعود بن غران في المقعد الامامي الى جانب السائق محمد الغذفان . أمـا السيارة الأخرى فكان يقودها عبدالعزيز الفهد وركبت في مقعدها الأمامي حمدي خادمتي العربية ، وركب في المقعد الخلفي سالم المزين وغلوم الطباخ .

لقد بدأنا السير مع طلوع الشمس . وعندمـــا وصلنا الى ابواب جهرا جاء الرجل الكبير خان بهادور ملا صالح وزير الشيخ أحمد ومعه ابنه عبد الله الملا لوداعنا والتمني لنا بأن تكون سفرتنا سعيدة . وبعد مسيرة ٤٠ دقيقة عندمـا اقتربنا من الكبد لحق بنا الوكيل السياسي الكابتن دي غوري الذي كان في رحلة صيد مع عداس صاحب الصقر . وجاء الرجلان معنا الى الحدود قرب مناقش .

وبعد أن اجتزنا الأراضي المتشققة المليئة بشجيرات العرفج حول منـــاقش وصلنا الى خبرة جلهم ومنها الى أرض منبسطة وممتدة على مساحة شاسعة تدعى قرعه ، لا يوجد فيها العرفج ولكنها مغطاة بعشب يابس وبالنــي من الربيــع الفائت . وكان الطريق من هناك سهلا فسرنا فيه بسرعة كبيرة ، وهناك شاهدنا غزالين كانا يقفزان في طريقنا ثم تواريا عن الأنظار الى يميننا .

ولكي يكتب هارولد تقريراً عن الطريق من الكويت الى الرياض ، أخــذ

يدون بعض الملاحظات عن البلاد الممتدة على جانبي الطريق مستخدماً في ذلك لوحة للرسم وبوصلة وعداد السيارة . وقد أخذ معه منظار الميدان وبندقيته .

وأكملنا سيرنا عبر خباري وضحا – المكان الذي كان يخيم فيه ابن سعود سنه ١٩٣٠ وحيث قام هارولد بتسليمه فيصل الدويش والزعيمين الثائرين الآخرين – الى بلاد الحمض التي تبعتها أرض مشققة تدعى هضبة الوريعه، وفجأة لحنا في مكان منخفض الحصن الجديد في جاريه[1] عليا . والى يمين ذلك المكان ظهرت بيوت مصنوعة من الطين يبدو انها تشكل قريه صغيره فيها عدد من اشجار الاثل بين البيوت . وفي منحدر امام القرية بانت علينا حوالي مائة وخمسين خيمة سوداء من خيام البدو .

وسرنا باتجاه الحصن الذي كانت أبوابه مفتوحة وفيه عدد من الرجال يجلسون على مقعد عند المدخل .

– السلام عليكم .

– وعليكم السلام .

وبعد التحية أسرع رجلان من داخل الحصن وأغلقا البوابة الكبرى في وجوهنا !

ونزل هارولد والدليلان من السيارتين ثم جاء الأمير ودعانا لتناول القهوة في الداخل . فذهب الرجال معه الى الحصن وبقيت أنا مع حمدى في السيارة .

وانتظرنا طويلاً . ماذ حدث ولماذا تأخروا ؟ ألم يتلق هؤلاء أنباء زيارتنا من الملك ؟ ألم يتلقوا إذناً بالسماح لنا في إكمال رحلتنا ؟ وحسب ما علمت من الحراس كان الجواب بالنفي ، فكان من المرجح ان نبقى هناك حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر لأن الوقت كان ظهراً .

وأخذ أحد السائقين يستعد لاقامة خيمة نستريح فيها ولكنني منعته ، فتطوع رجال الحصن وبدأوا ينصبون لنا خيمة في الظل عند الجهة الشرقية من الحصن. ولما انتهوا دعونا للنزول والاستراحة في الخيمة فسررنا بذلك لان الجلوس في السيارة والالتفاف بالبرقع والعباءة في ذلك الجو الحار كان مزعجاً للغاية .

وأمر السائقان بعد ذلك بانزال جميع امتعتنا من السيارتين ليجري تفتيشها من قبل الجمارك . فانزل كل شيء واعيد توضيبه بعد تفتيشه .

واخيراً خرج هارولد والدليلان من الحصن بعد ان اقنعا الامير بارسال برقية الى الملك للسماح لنا بالتقدم . وسمعنا بعد ذلك ان خروفاً قد ذبح مع عدد من الفراخ لاقامة وليمة لنا . ولما كنا راغبين في استئناف السفر بعد ان تلقينا اذناً بذلك فوراً ، ارسلنا سعود بسرعة الى الحصن ليرجو الرجـــال هناك ان لا يحضروا غداء لنا لأننا تناولنا غداءنا قبل الوصول الى جاريه .

وعند الساعة الثالثة جاء الامير مبتسماً وابلغنا انه تلقى امراً بالسماح لنـــا باستئناف السفر وتمنى لنا سفراً سعيداً .

وسرنا على الفور .

ولم نكن قد قطعنا ميلاً واحداً عندما لاحظنـــا ان سيارة تتبعنا باقصى سرعتها . فتوقفنا لانتظارها . وشعر محمد الغذقان بالذنب لأنه كان يحمل معه رزمة من التبغ الى الرياض ، لأنه خشي ان يكون الأمير قد علم بذلك . وفيما كانت سيارة الفورد تقترب منا انسل الغذقان الى وراء سيارتنا والقى بالرزمة بين شجيرات على جانب الطريق . ولكن مهمة سائق السيارة كانت تسليمنا برقية مع قلم وايصال . ولم يستطع احد منا قراءة البرقية جيداً ولكنه يبدو انها كانت برقية ترحيب من ابن سعود .

وأصبح طريقنا عندئذ باتجاه الغرب فسرنا مسافة طويلة في ذلك الاتجاه . وكان منظر الصحراء موحشاً للغاية وكانت تصادفنا كثبان الرمل تارة على هذه الجهة من الطريق وتارة على الجهة الاخرى . وبالتدريج أخذ الطريق يتجه نحو الجنوب الشرقي وبدأت تواجهنا أرض صخرية فيها حجارة كبيرة سوداء شبيهة بتلك التي يشاهدها المرء عند لية قرب الكويت . وهكذا وصلنــا الى السمن ديرة قبيلة مطير العظيمة .

وبعد ساعتين فقط من مغادرتنا جاريه نصبنا خيامنا لقضاء ليلتنا على أرض صخرية صلبة بالقرب من مجموعة من اشجار السدر تعرف بأم العصافير وتقع الى

يسار الطريق . وكان محمد الغدفان يريد ان نسير ساعتين ثانيتين لكي نقترب من الدهانه بحيث نستطيع ان نقطعها اثناء برودة الصباح . ولكننا كنا متعبين وملهفين للاستراحة .

واقيمت الخيام في لحظات وبدأ الابريق يغلي على النار . غابت الشمس في الساعة الخامسة والثلث ، وقبل حلول الظلام كان كل شيء جاهزاً بما في ذلك كمية من الحطب كافية لتدفئة السائقين سعود وسالم طوال الليل . وقد استمتعنا بدفء النار ونحن نأكل الدجاج مع الخبز والتمر مع الشاي ثم شربنا قهوة سالم ونحن جالسين في الظلام حول نار أخشاب الحمض نحكي الحكايات لمدة ساعتين ونصف الساعة قبل ان نذهب للنوم .

وقبل ساعة واحدة من بزوغ الفجر حملنا خيامنا من جديد ثم تناولنا الشاي والبيض والخبز واستأنفنا السير مع شروق الشمس . وسرنا عبر السمن بين التلال المنخفضة المسطحة الرأس وبين المنخفضات التي تنمو فيها أشجار السدر الصغيرة التي يحبها المطيريون كثيراً . وصادفتنا واحدة من الحباري طارت عندما اقتربت السيارة منها . وأخذت التلال تتوارى وراءنا واحدة بعد الأخرى الى ان وصلنا سهلاً أرضه صخرية قاسية .

وقال سعود مشيراً الى اليمين :

– دحل الفريح .. اتريدون ان تروه ؟

– نعم .. نعم .. قلنا له .

وفي تلك الاثناء خرجت سيارتنا عن الطريق وسارت حوالي خمسماية يارده وتوقفت عند حافة فجوة دائرية كبيرة في الأرض .

يبلغ قطر تلك الفجوة حوالي ٨٠ قدماً . وبعد ان نزلنا فيها أكثر من ٣٠ قدماً وجدنا فجوة أصغر في الوسط يبلغ قطرها خمسة اقدام فقط .

وقال سالم :

– من هنا يأخذ البدو الماء يا ابا سعود .

والدحل الذي يعرفه الجيولوجيون بالغاطس هو بئر طبيعية مؤلفة من ممرات

وفجوات أرضية تشكلت على مر العصور بفعل المياه التي تندفـــع من القعر في اتجاهات مختلفة . وتنحدر بعض تلك الممرات في جوف الارض الى عمق ثلاثمائة ياردة أو أكثر . وقبل ان يصل المرء الى الماء عليه احياناً ان يزحف على أربعته أو أن يعبر احياناً اخرى كهوفاً كبيرة كاتدرائية الشكل . أما ارض الممرات الصخرية فقد صقلت وتآكلت بفعل القرب الجلدية التي جرت عليها عبر القرون. ولا يجرأ رجل في الدخول الا اذا ربط بحبل لأنه قد يضل طريقه ويمـــوت في الداخل . وبعض تلك الدحول[1] شديد الظلمة من الداخل وبعضها الآخر يتسرب اليه النور من فجوات صغيرة .

وبحثت انا عن احجار صوانية فالتقطت منها قطعة أو اثنتين كان يمكن ان تستعمل كأدوات للحفر في زمن من الأزمان .

وبعد ان التقطت عدة صور فوتوغرافية لدحل الفريح استأنفنا سيرنا تاركين وراءنا على اليمين وعلى اليسار عدداً من الدحول الصغيرة بدون اسماء وربما لم يكن فيها ماء بانتظار هطول الأمطار . وكانت الأرض لا تزال صخرية صعبة .

وفجأة قال سعود مشيراً الى جهة اليمين أمامنا :

— شوف الدهانه يا ابو سعود .

ففي الأفق البعيد ارتفع ما بدا لنا سلسلة صخرية طويلة منخفضة . وأول فكرة خطرة لي : كيف يمكن للسيارة ان تعبر تلك السلسلة اذا كانت رملية ؟ واردت ان اقترح على السائقين ان نخل وتقطعها مشياً على الأقدام . ولكنني لم اقل شيئاً مع ان أفكاري ومخاوفي كانت تقلقني الى درجة كبيرة .

ثم بدأت البلاد تتغير ورأينا العرفج مرة ثانية وكان قليلاً متفرقاً في البداية ثم كثيراً كثيفاً عندما اقتربنا من رمال الدهانه الخفيفة .

وعبر الطريق ظهر لنا ما يشبه غطاء خفيفاً من الرمل الأحمر على عمق عـدة بوصات وفي عدة أماكن على عرض خمس أو عشر ياردات . ولكن السيارات لم تسلك ذلك الطريق وسارت على ما ظننته طريقاً ترابيـــاً . وبدأت السلسلة الرملية الكبيرة على يمينا تقترب فرأينا لونها الأحمر يشع في نور الشمس . وكنا

[1] الدحول

في تلك الاثناء نسير باتجاه الجنوب الشرقي بمحاذاة السلسلة المذكورة تقريباً . وكلما تقدمنا بدا انها تتقلص الى ان اختفت تماماً . وملأني ذلك بالأمل لأنني تحققت ان السلسلة أصبحت منخفضة الى درجة تتمكن فيها السيارات من العبور .

وفي الساعة التاسعة والنصف خرجت سيارتنا عن الخط الى اليمين واقتربت من الرمال المرتفعة أمامنا وتوقفت . ونزل محمد الغذفان ليملأ مبرد السيارة بالماء من القربة . وقال :

ـ من هنا أمر دائماً يا ابا سعود . ان الطريق من هنا أقصر من اتباع الطريق الرئيسية عبر الرمال وقد فعلت ذلك عدة مرات . ويجب ان تتماسكوا جميعكم لأنني سأنحدر بالسيارة ولا استطيع ان اخفف السرعة قبل عبور السلسلة الأولى. هذا هو عرق السرو واحد من أسوأ اثنين من مسالك الدهانه . وبعد ذلك يصبح الطريق سهلا .

وأجبناه بقولنا :

ـ كما تشاء .

وبعد ان خفف السائقان ضغط الهواء من عجلات السيارتين اندفعا بالسيارتين بسرعة متسلقين الى قمة الكثيب الرملي متجنبين شجيرات العرته فدرما يستطيعان . لم تكن هنالك طريق واضحة وانما شاهدنا آثار السيارات على اليمين وعلى اليسار . وكنا نهتز بعنف داخل السيارة وهي تندفع بنا عبر الرمال الى ان وصلنا الى القمة ونزلنا المنحدر الى أرض مستوية تكثر فيها الحصى على مسافة ستة أميال تقريباً . وسارت بنا السيارة بسرعة عبر تلك البقعة الى ان وصلنا ثانية الى كثيب آخر من الرمل وعبرناه .

وتنفس محمد الغذفان الصعداء وقال :

ـ الحمدلله .. أمامنا مسيرة سهلة الآن الى ان نصل الى العرق الثاني عرق الرويشب .

هناك ثمانية من هذه العروق لها اسماء ولكنها غير واضحة المعالم اذ ان كل واحد منها له عدة تلال تحيط به من كل جانب .

وصرخ السائقان :

– لقد قطعنا العرق الثاني الآن . . والعروق الباقية صغيرة لا تخيفنا .

كانت تجربة مثيرة ولكنها لم تكن مخيفة .

وفي الساعة الحادية عشرة توقفنا لتناول الغـــداء على مسافة قصيرة من آبار الرماح ، بعـد ان قضينا ساعة ونصف الساعة في عبور رمال الدهانه الشهيرة . وهناك وضعت الكحل على عيني وثبت برقعي لئـلا صادفنا أحد في الرماح .

وسمعنا صوت سيارة فورد قديمة متجهة نحونا من الشمال الشرقي على الطريق الذي سلكناه نحن من قبل . وكانت السـيارة تحمل عدداً من شيوخ دبي قادمـين من الهفوف عاصمة الاحساء في ثلاث سيارات فقدوا اثنتين منها في الدهـــانه . وكانوا قد قضوا يومين في الطريق من الهفوف فاستبد بهم الجوع والعطش، فكانوا بغاية السرور ان يأكلوا بقايا غذائنـــا من الدجاج واللحم المطهي قبل يومين في الكويت والذي بدأت تفوح رائحته ، ويطفئون عطشهم بقليل من الماء . وساروا امامنا الى الرماح ينتظرون بقية الفريق هناك .

ولم نتأخر طويـــلا في الرماح . وكان هناك عدد كبير من البدو يستعدون للانتقال الى الصحراء . وقطعنا بأمان البحيرة الرملية (مجرى ماء جاف) التي تقع شمال الرماح مباشرة ، ثم تابعنا طريقنا .

ومرة ثانية تغيرت طبيعة الأرض ولكن بسرعة . فبعد ان تركنا وراءنا كل اثر لرمال الدهانه الحمراء وشجيرات العرفج ، اتينا الى ارض صخرية ذات تلال منخفضة ومجاري المياه جافة حواليها عدد من الاشجار هنـــا وهناك وبئر او اثنتان يقف عندها بـدوي وزوجته يمتحان الماء على جملين . والى جانب التلال الصخرية قطع ضخمة من الحجارة السوداء بين حجارة حمراء اللون، تبدو وكأن أحداً قد افرغ كيساً هائلاً من الفحم على القمة وانحـــدر الى الجوانب . وتعرج طريقنا عندئذ بين التـلال الى أن رأينا أمامنا سهلاً كبيراً ينحدر عدة مئات من الأقدام وتظلله صخور كبيرة شاهقة . ولم نجد أمامنا طريقاً واضحة في البدايـة ولكننا على يسارنا شاهدنا مجموعة من الرجال يبـــدو انهم كانوا يعملون في شق

الطريق . فاقتربنا منهم وبادرونا بالقول بأعلى صوتهم :

– الطريق ليس من هنا .. من هناك .

واشاروا الى اليسار حيث كانت جماعة اخرى من رفاقهم يعملون .

وسألهم سائقنا :

– من أين ؟

فما كان من احدهم إلا ان قفز الى عتبة السيارة ليدلنا على الطريق .

وبدأنا ننحدر من الصخور الشاهقة المعروفة باسم بويب والتي يبلغ ارتفاعها سمائة قدم تقريباً . وكان الطريق قد شق بصعوبة في الصخور القاسية . وعند اقدام الصخور الشاهقة أشار علينا رجل ان نتجه الى اليسار فتركنا الطريق وسرنا عبر الصخور والحجارة حول منعطف من الصخر في شعيب حجري . وطلعت علينا شجرة وارفه الظلال جلس تحتها مجموعة من الرجال بجانب سيارة. وسرنا الى هناك لنجد بعثة الملك في استقبالنا برئاسة فخري أفندي شيخ الأرض* وهو شاب سوري من عائلة معروفة يعمل في خدمة البلاط السعودي . وسلمنا رسالة من الملك ومن الأمير سعود يتمنيان لنا فيها رحلة طيبة .

كانت السجاجيد قد فرشت على الأرض في الظلال ، والشاي والقهوة جاهزان ، واللحم الطازج المقطوع من فخذ خروف معلق على غصن بعيد في الشجرة يشوى على نار الفحم . وكنا نشعر بالعطش والجوع – او على الأقل كانت رائحة شرائح اللحم تجعلنا نشعر بذلك – . وبعد القهوة التي هي في نجد أخف منها في الكويت ثم الشاي فالمزيد من القهوة والمزيد من الشاي ، قدم لنا اللحم على طبق ملون ، وكان لذيذاً فاخراً .

وقال لي سعود بن ثران بعد ذلك :

– لم استطع ان آكل ذلك اللحم .. لقد كان رهيباً والدم لا يزال يقطر منه .

وأجبته :

---

* كان شقيقه الدكتور مدحت شيخ الارض طبيب الملك الخاص، وشيخ الارض عائلة معروفة في دمشق .

ـ نحن الانكليز نحبه كذلك .

لقد استمتعت باكل اللحم فعلاً . وبعد نصف ساعة من الاستراحة وشرب الشاي والقهوة نقلت جميع الامتعة والحاجيات بما فيها ما تبقى من اللحم الى السيارات . وبعد أداء الصلاة ركبنا سياراتنا لنقطع الجزء الأخير من الرحلة . وقالوا لنا :

ـ الرياض تبعد ساعة فقط من هنا .

وعندما انعطفنا لنخرج من الشعيب الى الطريق كانت الصخور العظيمة تظللنا . وبعيداً امامنا لاحت لنا ونحن نتجه نحو الشمال الغربي صخور على شكل وجه زنجي يبدو وكأنه يحرس مداخل نجد . وكلما اقتربنا منه تغيرت ملامحه البشرية الى ان وصلنا اليه فوجدناه جزءاً من الصخور العظيمة الملتفة في السراب الى مسافة بعيدة عن يميننا .

لقد كان من الصعب أن نتحقق من اننا كنا لا نزال على مثل ذلك الارتفاع مع اننا انحدرنا نزولاً من تلك الصخور . ويقول فيلبي ان الرياض ترتفع ٢٢٥٠ قدماً عن سطح البحر . ومما يؤكد هذه الحقيقة الهواء البارد العليل والليالي اللطيفة التي تتمتع بها الرياض .

ومن هناك وما بعد كانت الطريق واضحة المعالم وعلى جانبيها في اماكن عديدة آثار سيارات غرقت في الوحل في فصل المطر . وكانت في بعض اجزائها سيئة المسالك مليئة بالتراب والغبار ، وفي اجزاء اخرى مغطاة باعشاب خضراء كثيفة لا اذكر اسمها بالضبط . وكنا دائماً نتطلع للبحث عن ازهار او نباتات غريبة ونتوقف لنلتقط نماذج منها اذا وفقنا في ايجادها .

وبعيداً عبر السهل الصخري كانت تبدو امامنا الى اليسار تلال منخفضة ، وبعيداً عند الافق كانت تبدو تلال جبل طويق الذي بدت ملامحه واضحة في وجه الشمس .

وقال السائق :

ـ عندما نصل الى تلك التلال المنخفضة تشاهدون الرياض .

ولكن سيارة فخري افندي كانت تسير في المقدمة تاركة وراءهـا عموداً من الغبار تعلق في الهواء كالسحاب نظراً لانعدام النسيم وحجب الرؤية عن ناظرينا. وبعد عدة منعطفات دخلنا بين التلال المنخفضة ثم انحدرنا قليلاً نحو سهل داخلي صغير . وفي البعيد رأيت ما ظننته يجب ان يكون مدينة الرياض : قلعة كبيرة ذات ابراج ترتفع فوق الاسوار وأعالي الابنية تظهر فوق الاسوار والابراج. والى يسار ذلك كان هنالك عمودان للاسلكي . ولم أر أثراً لنخيل الرياض .

وأشار محمد الغدفان الى تلة واطئة اصبحت وراءنا الى اليسار ، وقال :

ــ الخروق .. يمكن للسيارة ان تسير نحوه مباشرة وتدخل في نفق فيه ثم تخرج من الجهة الثانية .

وكانت في رأس الخروق فتحة كبيرة وكان من الواضح للناظر ان يرى عدداً من السيارات تخترقه .

ولم نكد نصل الى القلعة حتى أطلت علينا فجأة بساتين النخيل في الرياض من جهة اليسار . وما شاهدناه الآن لم يكن مدينة كما كنت اتصور ، بل قصر الملك الجديد الذي لا يزال قيد البناء وهو قصر الشمسية .

ووقفت السيارة المرافقة لنا هناك وأبلغنا ان الملك يرغب ان نذهب مباشرة الى واحد من قصوره الصيفية التي تبعد عن بعضها مسافة عدة مئات من الباردات في بديعه على بعد خمسة أميال الى الغرب من العاصمة . أما هو شخصياً فكان يقيم في قصره الشتوي داخل اسوار المدينة .

تركنا اشجار النخيل على يسارنا ودخلنا في واحة على جانبي الطريق الصخرية الوعرة الى مسافة سبعة أميال ، ثم انحدرنا نزولاً على طريق صخريـــة منحدرة ومتعرجة تتجه نحو مـا يعرف بالباطن وهو أرض مجرى كبير لوادي حنيفة . وأمامنا هناك كان قصرا الملك ووراءهـــا مزيد من بساتين النخيل الممتدة عبر جوانب الوادي الصخرية المنحدرة ، على عرض نصف ميـــل تقريباً . ويشغل القصران وحدائقها ثلثي المساحة تقريباً أمـا الباقي فقد ترك للسيل المندفع الذي يأتي عندما تهطل الامطار . وقد اقام الملك تحت سور الحديقة عند مقدمة القصر

الذي نزلنا فيه مكاناً صغيراً للجلوس ، فيه مكان لصنع القهوة بحيث يتسنى له ان يجلس في فصل الامطار ليشرب قهوته بجانب السيل المندفع بسرعة .

يقول المثل العربي :

– ثلاثة اشياء تفرح قلب الانسان : الخضرة ، والماء والوجه الحسن .

وذلك صحيح بكل تأكيد .

وفي الجانب الآخر من وادي حنيفة ، وبعد ان عبرت سيارتنا أرض النهر الجافة وانعطفت على منعطف حاد الى اليمين وحملتنا الى طريق ضيقة جداً على جانبيها أسوار عالية ، انعطفنا أيضاً في منعطف حاد ولكن الى اليسار هذه المرة وتوقفنا أمام باب كبير مفتوح . وتسلقنا بمساعدة أيدي الحراس الممتدة الينا ، وكنت اذا أتبع زوجي على العتبات الصخرية وعلى طول الممر المصنوع من الحصى الى اليسار أولاً ثم الى اليمين ثم الى الدرج العريض المؤدي الى القصر . كنت أفعل ذلك على الطريقة العربية .

كان القصر حديث البناء لأنه عندما قام صاحب السمو الشيخ أحمد حاكم الكويت بزيارة الرياض سنة ١٩٣٤ لم يكن موجوداً . ويتألف من باحتين تمتد غرف على جانبيها في الطابقين السفلي والعلوي ، وباحة اخرى أصغر للخدام . ان الجناح الأعلى من البناء الأول مخصص للسيدات وفي غيابهن لكبار الضيوف . أما المنزل الثاني فيقيم فيه الملك وهناك يصرف اعماله ويستقبل الشيوخ والبدو أثناء أشهر الصيف .

وفي الطابق العلوي توجد شرفة عرضها اثنا عشر قدماً وتمتد على مدار الباحة . وتدعم تلك الشرفة اعمدة حجرية مغلفة بالجص الابيض ، وبين كل اثنين من تلك الاعمدة تقف ثلاث ركائز خشبية صفراء باهتة رسمت عليها بالأحمر والاسود خطوط ونقط وأشكال . ويقفل الشرفة جدار مصنوع من الجص والطين ويبلغ ارتفاعه حوالي ستة أقدام يبدو أعلاه على شكل رؤوس واكتاف صف طويل من الرجال يقف كل منها فوق فتحة مثلثة الشكل بين الأعمدة المستديرة العالية المصنوعة من الحجر والجص ، والتي بدورها تدعم سقف الشرفة . ومن كل جهة

توجـــد فتحة كبيرة تسمح للخدام ان يمدوا رؤوسهم منها لدعوة سقاة القهوة في الطابق السفلي .

والركائز جميعها مصنوعة من الخشب اقيمت كل ثلاث منهـــا بين عمودين لتدعم فروعاً اصغر من سقف الشرفة المغلف باوراق البردي والطين . وفي اغلب الاحيان تكون تلك الركائز مغطاة بقماش ابيض مدلى من السقف . وتلك الركائز المدعمة بالاعمدة مزينة حسب الزي النجدي الحقيقي برسوم من الخطوط والنقط بالاحمر والاسود على قاعدة صفراء اللون باهتة ، كما ذكرت سابقاً .

واينما وجدت تلك الركائز تكون مزينة : في النوافذ والابواب الصغيرة . . وحتى في غرفة الغسيل . وداخل الغرف الكبيرة يوجد عمودان مستديران في الوسط يدعمان السقف . اما الجدران فهي مطلية بالجص الابيض وعليها حلقات او دوائر مختلفة الشكل .

وتصنع تلك النماذج على الطريقة الآتية : تغلف الجدران اولاً بطبقة خفيفة من طين احمر قاس ، يوضع فوقهـــا جص ابيض على سماكة ثلث بوصة . ثم يقوم المعماري برسم تلك الاشكال ، والطلاء لا يزال رطباً ، ويعمق في حفر الخطوط حتى الطبقة الطينية . وفي كثير من الاحيان تترك مسافـة بين سلسلة من الرسوم والسلسلة الاخرى . فالرسوم الاولى ترتفع ثلاثـــة اقدام عن الارض . وتتغير النماذج حول النوافذ والرفوف الضيقة المحفورة في الحائط . وفوق سلسلة الرسوم الافقية وضعت دوائر كبيرة منفردة مقطعة باشكال هندسية مختلفة اذ لا يتشابه فيها اثنان . انه في الواقع منظر رائع ذو وقع حسن .

وتغطي النوافذ ستائر حريرية جلب قماشها من اسواق الكويت . وعلى مدار الجدران وضعت مقـــاعد خشبية ثقيلة و « صوفات » من صنع بغداد . وتغطي الارض سجاجيد عجمية من كل حجم ولون ، وقماش السقف في غرفـة الاستقبال الرئيسية مزين بكتل ملونة من الحرير على شكل اقمار ونجوم ودوائر صغيرة وكبيرة .

ان القسم الاسفل من هذا القصر مخصص للخدام وفي زاوية من زوايا باحتـه

المكشوفة يوجد وُجار مستطيل لصنع القهوة . وتغطي ارض الدار طبقة نظيفة من الرمل الابيض ، واما ابواب الغرف تحت الشرفة فمطلية بأصباغ زاهيـة على اشكال مختلفة بالاحمر والاسود والازرق والاصفر والاخضر ، بما يشبه الموزاييك اذ ان لون كل مربع صغير او مثلث يختلف عـن ألوان تلك التي تحيط بـه . والاقسام العليا والسفلى والوسطى من الابواب لها اطارات خشبية بارزة ملونـة على شكل مربعات كبيرة . اما الابواب الصغيرة فهي عـادة مستوية السطح حفرت فيها الرسوم حفراً عميقاً قبل طلائهـا بالالوان . ان احسن تلك الابواب من صنع قسيم اما تلك المصنوعة محلياً فرسومها تشبه تلك التي على الركائز الخشبية وفيها كتل قرمزية وسوداء . ولكل باب قفل وله مفتـاح خشبي على شكل فرشاة الاسنان ويدخل في القفل على حافته ، وعند فتحه يتوجب دفعه الى اعلى عدداً مماثلا من الاسنان . اما النوافذ فكلها تفتح الى الداخل ، ومن الخـارج تجدها مزينة ومطلية كالأبواب ولكنها من الداخل لا تحمل سوى رسوم بسيطة قليلة العدد .

وعندما يصعد المرء الى الطابق العلوي من المنزل الأول تاركاً باحة الخدام الى اليسار ويتجه الى اليمين يجد نفسه أمام شرفة مؤثثة تغطي أرضهـا سجاجيد عجمية وتتدلى من السقف مروحة كبيرة ، وعلى احد الجدران وضعت ساعـة « برمباي » كبيرة مقابل مقعد الملك الخـاص . ويستدير المرء الى اليسار ليجد ان الشرفة مؤثثة تأثيثاً مشابهاً . وفي الداخل هنالك غرفة طويلة ملاصقة للشرفة يذهب اليها الملك للصلاة والراحـة وهي مفروشة على الطراز العربي بأرائك ومساند على مدار الغرفة ، وفي احدى الجهات هنالك ما يشبه العرش وحوله من كل جهة مسندان مربعان تغطي كلا منها ثلاثة مساند أصفر موصولة ببعضها ومغطاة بالحرير . وقماش السقف في تلك الغرفة اكثر دقة وطموحاً منه في جناح السيدات اذ ان عليه صوراً لأباريق القهوة والشاي مزينة بالحرير الملون وبأعداد اكبر من الاقمار والنجوم والدوائر . وينزل بك درج سهل طويل الى مدخـل خاص يستخدمه الرجال فقط ويجعل البناء المجاور بمعزل عن ذلك الذي تستخدمـه

النساء .

ومع ان الملك كان قد غادر القصر الى المدينة منذ عشرين يوماً ، إلا ان الساعات الكبيرة في مجلسه كانت تعمل بدقة متناهية . وحتى القهوة كانت جاهزة . وبينما نحن نتجول في الغرف جلسنا لمدة دقائق في الشرفة نستمتع بالهواء البارد ، احضرت لنا القهوة . وهناك انضم الينا عبدالله المسفر احد كبار المسؤولين في بلاط الملك فيصل في العراق واخبرنا انه زار نيويورك قبل عدة سنوات مع المستر كراين .

وصعدنا بعد ذلك الى السطح حيث يتناول الملك طعام الغداء في الصيف ضمن مقصف مغلق بدعمه عمودان طويلان يرتفعان عن الأرض ثلاثة اقدام وقد زال لونها لكثرة ما يمسح بها رجال القبائل الضيوف على الملك ايديهم المليئة بالسمن بعد الطعام .[*]

ويوجد عمود او اثنان عليها خشبتان متقاطعتان تعلق عليهما المصابيح ، وهنالك أيضاً عمود خاص عليه حبال لتعليق قرب الماء في الهواء الطلق لتبريدها .

والقصر الآخر أقدم عهداً لكنه بني بنفس الهندسة تقريباً . وهناك أيضاً يستقبل الملك الشيوخ والاعيان .

وللزائر العادي الى الرياض ، تبدو منازل الطبقة العالية من السكان مظلمة غامضة من الخارج وهي ذات جدران عالية من الطين وتقوم على جانبي الشوارع الضيقة المتعرجة ، ولها أبواب خشبية بسيطة . ولا تطل منها على الشوارع أية نوافذ باستثناء بعضها الذي وضعت في الطابق العلوي منه فقط نافذة واحدة ذات قضبان حديدية . ولكنها من الداخل ، ومعظمها مؤلف من طابقين حول باحة مركزية ، تبدو رائعة ومزينة بصورة فنية على شكل غرف القصر الملكي في بديعه حيث اقمنا .

(*) هذه العادة ناشئة عن النقص في الماء . وتفتخر قبيلة عجمان خاصة بتلك العلامات على خيامها لأنها دلالة على مقدار الضيافة وتكريم الضيوف .

الملك يبحث قضية فلسطين

قطعنا حوالي خمسماية ميل من الكويت الى الرياض في سبع عشرة ساعة ونصف الساعة من السير المتواصل . وكانت الاحوال الجوية ملائمة تماماً ولكننا وجدنا ان الليالي شديدة البرد في قلب نجد . ومناظر الصحراء في الطريق كانت موحشة في معظمها ، وآثار الحياة الوحيدة التي صادفناها بعد مركز جاريه كانت ستة غزلان وحبارى واحدة .

وكما ذكرت زوجتي سابقاً ، لقد دونت ملاحظات عن المناطق التي مررنا بها واكتشفت من خلالها عدة اخطاء في خارطة الجزيرة العربية ذات المقياس ٠٠٠،٠٠٠،١:١ وتمكنت من ان اجمع اسماء بعض الاماكن، كما تمكنت من تحديد معالم طريق جيدة للسيارات بين العاصمتين . وكانت معي ايضاً خارطة فيلبي ذات المقياس ٥٠٠،٠٠٠ : ١ التي طبعتها وزارة الحربية سنة ١٩٣٣ . وتظهر تلك الخارطة الطريق من الكويت الى الرياض ؛ ولكنها اذ تتوقف شمال حزام النعانه الرملي العظيم – أي ثلث المسافة من الكويت – فانني اعتقد ان الخارطة التي اكملتها فيما بعد هي أكثر فائدة مع انها تنقصها دقة خارطة فيلبي . وقد اعادت طبعها قيادة الجيش في حكومة الهند .

لقد قضينا أربعة أيام ممتعة في الرياض ووضع لنا برنامج كامل من الاجتماعات والولائم والنزهات بالاضافة الى اننا شاهدنا العرضه الكبرى أو رقصة الحرب التي قيل انها قدمت على شرفنا ولكنها في الواقع قدمت احتفالاً بمناسبة انتهاء أحد ابناء الملك الصغار من قراءة القرآن قراءة كاملة صحيحة . والولد الذي يكمل هذه المهمة لأول مرة يسمونه هناك خاتم .

وفي الصباح التالي لوصولنا قابلت الملك لمدة ساعتين كاملتين . فبعد ان حضرت الى مكتب وزير الخارجية السير فؤاد حمزه في القصر الكبير ، قادني سعادته الى مجلس الملك. وهناك وجدت صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود جالساً في الزاوية الرئيسية من الغرفة المشرفة على الباحة الرئيسية امام القصر . وعلى يمينه ويساره كان يجلس كبار الأمراء وموظفو الدولة وهم كما يلي :

حاكم حايل الأمير عبد العزيز بن مساعد الجلوي آل سعود . ثلاثة من اعضاء البيت الحاكم في آل رشيد وهم : الأمير محمد بن طلال الرشيد ، الأمير فيصل بن طلال الجبار الرشيد ، الأمير عبدالله بن متعب الرشيد .

ابن شقيق الملك : فيصل بن سعد آل سعود .

اثنان من أولاد الملك : محمد ومنصور آل سعود .

حفيد الملك : عبدالله بن تركي آل سعود .

اثنان من اعضاء مجلس الملك : السيد حمزه غوث والسيد شريف شرف .

محرر نشرة أخبار الاذاعة : محمود جسور .

وفي احدى الزوايا كان يجلس ثلاثـــة من أولاد الملك الصغار وهم : طلال ومشعل ونواف آل سعود .

وبعـد التحيات الاعتياديـة قدمني الملك للحاضرين ثم طلب مني ان اجلس الى جانبه . وجلس السير فؤاد حمزه الى جانب السير حمزه غوث . وتلا ذلـك استفسارات مجاملة عن صحتي وصحة زوجتي بطريقة الملك المهذبة المعتادة . ثم أمر ان يخرج من الغرفة أولاده الصغار الثلاثة طلال ومشعل ونواف فجاءوا اليه وقبلوه مودعين قبل ان يخرجوا مع خدامهم . ولكنـه أجلس نواف الصغير ، وكان عمره ثلاث سنوات ، على ركبته لدقيقة أو دقيقتين وأخذ يلاطفه . وسأله ماذا يريد ان يقدم له هدية ، فقال نواف انه يريد صقراً لكي يذهب الى الصيد .

– وهو كذلك .

قال الملك وهـــو يقبل ابنه . ولكن الطفل لم يخرج قبل ان يمسك بذقن والده قائلا :

– اتعدني بذلك يا أبي ؟

ووعده الملك بهدوء انه سينال صقراً واصدر اوامره بذلك. واخرج الاطفال الثلاثة من الغرفة ثم استدار الملك نحوي وقال بأدم جم :

– يا ديكسـون .. لست صديقنـا وصديق العرب فحسب ، انني ارى انك تلبس كواحد منا ولذلك ارحب بك مرات ومرات .

ودخل جلالته في الموضوع العزيز على قلبه وهو موضوع فلسطين ، فانصرف الى التحدث في ذلك الموضوع ساعة ونصف الساعة . وكنت قد اوضحت ان زيارتي خاصة وشخصية بحتة مع انني حصلت للقيام بها على موافقة حكومة الهند ووزارة الخارجية .

وألمح الملك من طرف خفي انه يأمل ان انقل ما سمعته الى المراجع المختصة مع ان ذلك يعتبر شاذاً في المعاملات الرسمية .

كان أغلب الوقت يتحدث بصوت منخفض صادق كأن كلماته غير موجهة لمستشاريه الجالسين حوله ، وكان باستمرار يؤكد ما يقوله بأن يضع يده على ذراعي . وبعد انتهاء المقابلة مباشرة دونت ما قاله وانقله هنا أقرب ما يكون للكلمات التي قالها مستخدماً كلمة « نحن » عندما كان يشير الى نفسه قال :

— « نحن نعلم يا ديكسون انك لم تعد مسؤولاً في الحكومة ، ولكنه نظراً لأنك شغلت مناصب رفيعة في حكومة صاحب الجلالة لعدة سنوات ، نعرف تماماً انك تحظى بثقة حكومتك ، ولذلك لسنا نرحب بك زيادة فحسب ، ولكننا نفتح قلبنا لك ويسرنا انك تمكنت من زيارتنا في عاصمتنا .

« ونحن نتوق كثيراً الى ان ترسل لنا الحكومة البريطانية كل ثمانية أشهر موظفاً ذا خبرة تأمنه وتثق به او موظفاً سابقاً كحضرتك يمكنه ان يصغي شخصياً لما يجول في خاطرنا ولمشاكل التي تقلق نفوسنا لا لأننا نعيش في زمن عصيب مليء بالمخاطر . ونشعر أن اتصالاً شخصياً من هذا النوع أبعد أثراً من سيل من الرسائل والبرقيات التي ، بالرغم من انها كافية بحد ذاتها ، تفشل احياناً في اداء المعنى والأفكار والمخاوف وقد تولد سوء التفاهم وسوء القصد بدلاً من ان تزيلها .

« ولكن شخصاً من هذا النوع ، اذا ومتى ارسل ، يجب ان يكون عليماً بدقائق لغتنا ، فاهماً للمعاني الواسعة التي تنطوي عليها ، لأنها مليئة بالحكم والأمثال المعبرة . ولا فائدة من ان ترسل رجلاً يصغي الى ما نقوله عن طريق وسيط او مترجم . انه يجب ان يعرف ويفهم نفسيتنا العربية ويتجاوب اذا

امكنه ذلك مع عاداتنا العربية وتقاليدنا ، وفوق هذا وذاك ، يجب ان يكون ملماً باعتزازنا العربي وبآمالنا ، وان يكون قد قرأ شيئاً من كلام الله المقدس كما انزل علينا في القرآن الكريم .

« يا ديكسون ، متى تعرف حكومتك في لندن وتتحقق اننا نحن العرب بطبيعتنا ، يمكن شراؤنا جداً وروحاً بعمل خير ، واننا ننقلب أعداء ألداء مدى الدهر لأولئك الذين يعاملوننا بقسوة ويسيئون الينا ؟

« واليوم نحن ورعايانا قلقون جداً بسبب مسألة فلسطين . وسبب قلقنا هو الموقف الغريب الذي تتخذه حكومتك البريطانية . ويزيد في قلقنا ذلك التأثير المغناطيسي الذي يسلطه اليهود ، وهم قوم لعنهم الله كما جاء في كتابه المقدس وكتب لهم الدمار واللعنة الأبدية في الدنيا والآخرة ، على الحكومة البريطانية والشعب الانكليزي بصورة عامة .

« ان القرآن يحمل كلام الله واوامره المقدسة ، واننا نقترح ان تقرأ حكومة صاحب الجلالة وتتابع بدقة تلك المقاطع منه المتعلقة باليهود وخاصة ما يتعلق بمصيرهم في النهاية . فان كلام الله لا يتغير ولا يجوز ان يتغير .

« نحن العرب نؤمن بديهياً بالكلام الذي انزله الله ونعرف ان الله أمين — يحب المؤمنين . ولا يهمنا اي شيء في هذا العالم سوى ايماننا بالله الواحد ورسوله وبشرفنا . وكل شيء سوى ذلك بما فيه الموت لا يساوي بنظرنا شيئاً . ولسنا نخشى المصاعب والجوع وعدم توفر المتاع الدنيوي . . اننا نقنع باكل التمر ولحم الجمال الى آخر ايامنا بشرط ان نتمسك ونحافظ على مبادئنا الثلاثة .

« ان كرهنا لليهود يعود الى يوم اصدر الله حكمه عليهم بسبب اضطهادهم ونبذهم لعيسى (يسوع المسيح) ، ولرفضهم فيما بعد لنبيه المختار محمد . اننا لا نستطيع ان نفهم كيف ان حكومتكم التي هي أول قوة مسيحية في العالم اليوم ، تستطيع ان تتمنى مساعدة ومكافأة اولئك اليهود انفسهم الذين اساءوا معاملة مسيحكم .

« نحن العرب اصدقاء تقليديون لبريطانيا العظمى منذ عدة سنوات ، ونحن،

آل سعود ، بصورة خاصة ، كنا اصدقاء مخلصين لحكومتكم طيلة حياتنا . اي جنون ، اذن ، يدفع بحكومتكم للقضاء على هـــذه الصداقة التي دامت قروناً ، ومن أجل شعب ملعون كان منذ بداية العالم يضطهد وينبذ الانبيـــاء ، ويعض دائماً كل يد تمتد اليه لمساعدته ؟

« انه من الأفضل ، من كل الوجوه ، لو ان بريطانيا العظمى تجعل فلسطين ملكاً لها وتحكمها طيلة السنوات المئة القادمة ، بـــدلاً من تقسيمها على الشكل الذي تقترحونه .

« ان مثل هذا التقسيم لا يمكن ان يحل المشكلة بل يزيدها تعقيداً ومن شأنه ان يقود الى الحرب والبؤس . ويبـــدو ان بعض الناس يظنون ان عيننا ، نحن آل سعود ، على فلسطين، وان حالة من الفوضى والاضطراب هناك هي لصالحنا اذ نتقدم للسيطرة عليها . ذلك حل بكل تأكيد ولكن لا سمح الله ان يحـــدث ذلك لان لدينا الكثير من الأراضي ويفيض عنا .

« واليوم نحن الامام القائد الروحي والحاكم الزمني للجزء الأكبر من الجزيرة العربية ، وليس نفوذنا قليلاً والحمدلله في كل البلدان الاسلامية في العالم . ولقـــد وضعنا اصدقاؤنا البريطانيون في أصعب المواقف واكثرها حرجاً . فمن جهـــة ، نتلقى ملايين الرسائل والبرقيات في الليل والنهار من جميع انحاء العالم الاسلامي تتوسل الينا ان نتدخل وننقذ فلسطين للعرب . كذلك يحثنا شعبنا في نجـــد والمسلمون المؤمنون في العالم الخارجي ان نقطع علاقاتنـــا مع الانكليز وننقذ فلسطين لأهلها بالحرب. ومن جهة ثانية نجد انه من غير المجدي ان نقطع العلاقات مع اصدقائنا الانكليز ، لاننا بذلك نحدث خوفاً وقلقاً لا نظير لها في العالم فضلاً عن اننا نكون بذلك نخدم اليهود اعداء العرب وأعداء الأنكليز .

« اننا قطعاً لا ننوي شن حرب عليكم وقد ابلغنا شعبنا بذلك، لاننا الشخص الوحيد بينهم الذي يستطيع ان ينظر الى الأمام ، ونعرف اننا بذلك سنفقـــد حليفاً ممكناً . او ليست ايطاليا والمانيا وخاصة تركيا كالذئاب الكاسرة اليـــوم يبحثون عن ضحية يلتهمونها ؟ وكلهم يتملقوننا في هذه الأيام ولكننا نعرف انهم

سيبتلعوننا فيما بعد . ونحن نعتقد ان انكلترا ، اذا كانت صديقة ، تستطيع دائماً ان تمنعهم من الوصول الى أغراضهم . ولكوننا مسلمين ، فانه ليس لنا حب خاص لاية دولة مسيحية اوروبية ، ولكن المصلحة السياسية تتطلب منا ان نبقى الى جانب افضل تلك الدول وهي انكلترا .

« ان الصعوبة هي في رعايانا العرب وفي قبائل الاخوان بنجد . فبالنسبة لقضية فلسطين ، فان حواسهم هي في عيونهم فقط ولا يستطيعون النظر أبعد من ذلك قيد شعرة . وهم اليوم يلومونني لعدم وضوح موقفي ولاطاعتي اوامر الانكليز ، ومع ذلك تتوقع حكومتك مني ضبطهم . ان حكومتك يجب ان تتذكر انني زعيم العرب الديني وبالتالي مفسر النصوص المقدسة ... وكلمة الله لا يمكن ان تحرف .

« ان كلام الله ، في الحقيقة ، يعلمنا — ونحن نؤمن بذلك يا ديكسون — ان المسلم ، اذا قتل يهودياً او قتل على يد يهودي ، يدخل الى الجنة فوراً والى بهاء وجود الله الكلي القدرة . فماذا يطلب المسلم اكثر من ذلك من هذا العالم القاسي؟ بذلك يذكرني شعبي باستمرار . ان حكومتك بكل تأكيد تضعني في نفس المأزق الذي وضعتني فيه سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ الذي انتهى بثورة الاخوان ضدي .

« واليهود اعداؤكم كما هم اعداؤنا ومع ذلك فهم يستخدمونكم الآن . وفي ما بعد سترى حكومتكم الحقيقة وتأكل اصابعها ندماً . واليهود في الوقت الحاضر يفضلون انتظار الوقت المناسب . وربما كانت حكومتكم لا تعرف ان اطماع اليهود لا تقف عند حدود فلسطين ، فهم يطمعون ايضاً بالاستيلاء على كل البلاد الواقعة جنوبيها حتى المدينة ، ويأملون في التوسع شرقاً في يوم من الايام حتى الخليج الفارسي . انهم يخدعون ذوي العقلية الاستعمارية من الانكليز بايهامهم ان دولة يهودية قوية من البحر المتوسط الى الخليج الفارسي تستطيع ضمان المواصلات الانكليزية مع الشرق عن طريق قناة السويس والعراق ، وان العرب اعداء للانكليز وسيبقون كذلك .

« وفي الوقت ذاته يلعبون بعقول الجماهير العاطفية في بريطانيا بزعمهم ان انبياء العهد القديم وعدوهم – اي لليهود – بالعودة الى ارض الميعـاد ، وبقولهم ان بني اسرائيل المضطهدين المشردين يجب ان لا يحرموا رقعة صغيرة من الارض يلقون عليها رؤوسهم القلقة . كيف يا ديكسون يشعر الـسكوتلنديون فيما لو اعطى الانكليز اسكتلندا لليهود ؟ ولكني لا . . . انه لأسهل واقل خطراً عليك ان تعطي بلاد غيرك .

« وأما ان يكون يهود فلسطين يوترون كل الاعصاب لايجاد انقسام دائم بين الشعب الانـكليزي والعرب ، فأمر يمكن اثباتـه بما لا يقبل الجدل ، والدليل في ذلك حوادث قتل الموظفين الاخيرة في فلسطين .

انه لمن الواضح وضوح النهار ان اولئك القناصة العرب المجرمين الذين ارتكبوا تلك الأعمال القبيحة استؤجروا في الخارج بأموال يهودية . انـنا نعلن ذلك كحقيقة مطلقة لأن المفتي الأكبر في القدس اقسم لنا بالكعبة المكرمـة في بيت الله الحرام بمكة انه لا يلجأ الى مثل تلك الاعمال غير الدستورية في مقاومة الدسائس الصهيونية في فلسطين . ونحن آل سعود نصدق كلامه الى الآن .

« ان أهم ما نخشاه وما يجب على بريطانيا العظمى ان لا تسمح به ، هو تحول عرب الجزيرة والبلدان العربية المجاورة الى اعداء لانـكلترا . فاذا حـدث ذلك تكون قد ارتكبت جريمة لا تغتفر ، لأن العرب كما قلنا لا ينسون الاساءة ويظلون يترقبون الفرص للثأر مئة سنة اذا اقتضى الأمر . واعداء انـكلترا لن يتأخروا ابداً في استغلال ذلك ، لأنه اذا وقعت انـكلترا في مصاعب أو شغلت بحرب ، فتلك هي الاشارة للعرب ان يتحركوا .

« ان مجرد التفكير بحدوث ذلك كريه لدي ، انا عبد العزيز ، ولكن تأكد ان تقسيم فلسطين سيسبب ذلك لا محالة بالرغم من كل جهودكم الخاطئة التوجيه . وانا لا استطيع ان اساعدكم الى الأبد لانني لن اعيش اكثر من عـدة سنوات اخرى .

واكرر القول ان الحل الوحيد الذي نراه هو ان تتحرك بريطانيا العظمى

لتحكم فلسطين بنفسها . فالصهيونيون طبعاً لن يعجبهم ذلك ولكن يجب ان لا يؤخذ رأيهم . والعرب سيوافقون على هذا الحل والذين لا يوافقون يجب ان يحملوا على الموافقة من قبل أشخاص مثلنا . فالأمر الاساسي هو منع اليهود بأي ثمن من إقامة دولة مستقلة لهم مقتطعة من الأراضي العربيــــة ، حيث لا ضابط لسياستهم ولتصرفاتهم في المستقبل . ومن هناك سينشأ صراع دائم بينهم وبين العرب الذين يعيشون حولهم . أولاً ، لأن اليهود بعزمهم على التوسع سيبدأون التآمر منذ البداية ولن يهدأ لهم بال إلا بخلق الاضطراب والعداء بين بريطانيــا العظمى وبيننا نحن العرب على أمل ان يستفيدوا من الوضع . وثانياً ، بمـا لديهم من مال يستطيعون انشاء جيش فعال بآلياته وقواته الجوية ، قــد يكون صغيراً لكنهم سيستخدمونه بدون شك للاغراض العدوانية ضد العرب نظراً لأن هدفهم هو الاستيلاء على كل فلسطين وشرقي الأردن والمدينة معقلهم القديم التي لجأوا اليها عندما طردوا من فلسطين يوم دمر الرومان القدس وشتتوهم .

« وفوق كل ذلك يجب على حكومتكم ان تحـــد فوراً من هجرة اليهود الى فلسطين تاركة الذين هناك مكانهم بشرط ان تمنع غيرهم من المجيء » .

وهنا استغليت توقف الملك الاضطراري عن الكلام وحاولت ان اشرح له وجهة نظر حكومة صاحب الجلالة . وقبل ان اتقدم بعيــداً استوقفني بصورة حماسية وقال بانفعال :

– والله ليس لحكومتكم اية وجهة نظر باستثناء ارتكاب عمل غير عادل عن قصد . ان كل رجل يخاف الله ، مسلماً كان أم مسيحيــاً ، يعرف انه ليس من الصحيح ارتكاب الخطأ مهما كان ارتكاب ذلك الخطأ ذكياً حاذقاً . فاذا كنت انا ، بدوي عربي جاهل في الجزيرة ، استطيع ان أرى بوضوح كما أرى شروق الشمس ، ان الاقدام على تقسيم فلسطين عمل شرير خاطىء في نظر الله ، افــلا يرى ذلك السياسيون الغربيون الاكثر ذكاء بكل تأكيد ، اذا كانوا يخافون الله ولو قليلاً ؟ شكراً لله لاننا نؤمن به وبوحدانيته ، ولاننا نعرف ان ايماننا هذا بالذات هو الذي يجعلنا نرى الاشياء بوضوح كما نراها . اننا لمقتنعون اننا على

حق وان الله فتح اعيننا على الحق ، وانه سيعاقبنا ، نحن آل سعود ، لو كذبنا عليه .

ولذلك فانه ليس هناك جانب آخر لهذه القضية اللهم إلا بالمساومة مع الشيطان .

وهنا بدأ الملك فجأة يتعب وكأن الجهد الذي بذله في التحدث طويلا ، كان كثيراً عليه . وبعد ان دعا محمود جسور ليقرأ آخر الانباء بالراديو من جميع انحاء العالم للمجتمعين في مجلسه ، صرفني بلطف ولكن بثبات .

وبعد ان خرجت من حضرة الملك استوقفني في الممر رسول قال ان الامير سعود يحب ان ازوره في مجلسه . ووجدت ولي العهد عاقداً مجلساً مع جماعة من شيوخ البدو وغيرهم . فاستقبلني باحترام وطلب مني ان اتناول طعام الغداء معه يوم الاربعاء في السابع والعشرين . ولم تسأل اية اسئلة محرجة وتجنبنا الخوض في موضوع فلسطين .

وحدثني سعود كثيراً عن زيارته الاخيرة لانكلترا وعن العطف الذي احيط به هناك من كل جانب . ووجد من المناسب ان يخبرني ان شيئين قد تركا اكبر الاثر في نفسي وهما : العاطفة العجيبة التي يكنها الشعب الانكليزي لملكه وعائلته المالكة ، والاحساس البديهي بالقانون والنظام الذي لمسه في كل مكان . واعطى مثلاً على ذلك العادة الانكليزية المدهشة في الاصطفاف بانتظام خارج المسارح ومحطات القطار ، وقال انه يعتقد ان ذلك مسلٍ .

وجاء السير فؤاد حمزه ذلك المساء ليتناول معنا طعام العشاء في قصر بديعه . وبعد القهوة سألني ما اذا كنت اعرف شيئاً عن المشاكل بين البحرين وقطر التي قال بكل أسف انها لم تكن لتحدث في عهد السير بيرسي كوكس . وقلت انني لا اعرف شيئاً عن تلك المشاكل . ثم عاد وفتح موضوع فلسطين على اساس ابداء رأيه (وكان ذلك تكراراً لحديث الملك) بأن الواجب الفوري امام الانكليز في فلسطين هو اسقاط مسألة التقسيم ، وادارة البلاد بأنفسهم ، اذ ان ذلك يجدد الثقة ويعطي مجالاً للتنفس . وقال ان فوق كل ذلك يجب على بريطانيا

ان تحدّ من هجرة اليهود الى ان تتيسر طريقة تبقى فيهـا نسبة السكان العرب واليهود على ما هي عليه .

ولكي استدرج فؤاد حمزه اكثر اقترحت ما اعتقد انه حل انسب ولكنني اوضحت منذ البداية ان تلك فكرة شخصية تماماً تكونت لدي نتيجة لكوني قد عشت في القدس وأنا فتى، ورأيت كيف كان الاتراك يواجهون المشكلة . فمنذ سنة ١٨٩٢ كان الاتراك يخشون عودة اليهود فيطغون عليهم وعلى السكان العرب، فأصدروا قانوناً يمنع اليهود الاوروبيين والاميركيين من البقـاء في البلاد اكثر من شهرين في المرة الواحدة . وعلى اساس هذه المقـارنة شرحت لفؤاد حمزة ان كل اليهود المقيمين في فلسطين حالياً يجب ان يسمح لهم بالبقاء نهائياً ومنع إقامة يهود جدد في البلاد منعاً باتاً . وفي الوقت ذاته يجب ابقاء فلسطين مفتوحة في وجه كل يهودي يرغب في زيارتها للحج بشرط ان يغادر البلاد بعد شهرين . وبكلام آخر يجب على السلطات القنصلية البريطانية ان لا تعطي يهود الخارج تأشيرة دخول الى اكثر من شهرين . وقلت ان مثل هذا النظام يعمل تماماً كما هي الحال بالنسبة للمسلمين الاجانب الذين يحجون الى مكة . فهم بامكانهم المجيء اي وقت يشاءون ولكنهم لا يستطيعون الاقامة الا في الظروف غير العادية .

وقال فؤاد حمزه ان اقتراحي وجيه وجدير بالبحث ، ولكنه غير الموضوع فجأة وكأنه شعر انه لا ينبغي ان يبحث مثل هذا الموضوع الخطير مع شخص ليست له صفة رسمية .

زيارة للنساء الملكيات

بقلم فيوليت ديكسون

« النساء الملكيات على استعداد ان يستقبلنك في الساعة الثالثـة من صباح الثلاثاء » .

تلك كانت الرسالة التي وصلتني مساء الأثنين .

الساعة الثالثة تعني بتوقيتنا الساعة التاسعة، فغادرت قصر بديعه مع خادمتي

حمدة في الثامنة والنصف . وكان يجلس في المقدمة مع السائق عبد من عبيد قصر الرياض الذي نتجه اليه وسالم المزين. وزحفت بنا السيارة ببطء على الطريق الصخري الذي يلف المدينة تاركين الى يسارنا قصر الشمسية الجديد وقصر نورا شقيقة الملك ، ثم اتجهنا الى اليمين ناحية المدينة .

وبعد ان قطعنا شارعاً ضيقاً مستقيماً وجدنا انفسنا فجأة أمام قصر الملك في السوق الكبير . وكانت الساحة المكشوفة مزدحمة بالبدو والجمال وعلى مقعد طويل كان يجلس اولئك الذين ينتظرون دورهم لمقابلة جلالته . ولم استطع ان المح هذا المشهد سوى لحظة واحدة لأن السيارة انطلقت بنا عبر الساحة الى جانب القصر حيث يقوم باب كبير تحت جسر عريض . وهناك ترجلنا فاقتادونا الى الداخل عبر عدة باحات كان بعضها يضم خيولاً يستخدمها افراد العائلة المالكة . وصعدنا درجاً هيناً ثم مشينا المرات والشرفات الى أن أدخلنا الى غرفة كبيرة فارغة .

ولم يظهر أحد قبل خمس دقائق فأعطاني ذلك فرصة لإلقاء نظرة من حولي.. عمودان يقفان وسط الغرفة يدعمان السقف مع عوارض خشبية ذات رسوم كتلك التي وصفناها في قصر بديعه .. والارض مغطاة بسجاد عجمي معظمه من نوع كرمان يبدو انه بنفس العرض كالمسافة بين الجدران والاعمدة . وعلى مدار الغرفة كانت هنالك مساند مربعة الشكل ذات اغطية قطنية زرقاء مطرزة الاطراف . وفي احدى الزوايا كان يقف وجار القهوة وفيه بعض الجمر عليه ابريقان واحد للقهوة والآخر للشاي. وعلى الحائط فوق الوجار كان هنالك عدد من الرفوف وضع على أحدها جنباً الى جنب صفان من اباريق القهوة النحاسية كلها من نفس الحجم تقريباً مصقولة وذات لمعان . وتحت ذلك كان هنالك رفان آخران عليهما أباريق بلورية ذات الوان أزهى . وعلى الارض كانت فناجين القهوة وكاسات الشاي جاهزة للاستعمال . وفي احدى الزوايا كان هناك فراش ملفوف وكأن احداً كان ينام فيه او يستريح عليه . ولتلك الغرفة بابان.. واحد في إحدى الزوايا والاخر في الوسط مقابله ، ولها أيضاً ثلاث نوافذ لها

مغالق خشبية على الطريقة الحجازية كما اخبروني فيما بعد .

وجلست انا وحمدة على الارض قرب النار في الزاوية اتساءل في نفسي عما اذا كان سيطول انتظارنا . وفي تلك اللحظة دخلت سيدة سافرة الوجه وقد علقت اكمام ثوبها الاسود فوق رأسها الملتف بقماش أسود فاخر . وكانت ترتدي تحت الثوب الاسود ثوباً آخر قرمزي اللون ذا أكمام ملتصقة بيديها تماماً .

ونهضت وقبلتها وحييتها التحية العربيــة المعهودة . ولم أكد أجلس حتى ظهرت سيدة أخرى من الباب الآخر فنهضت واعدت الكرة في التحيـة .. ثم دخلت سيدة ثالثة وأخذن يمطرنني بالاسئلة .

– كيف حالك .. كيف حال اطفالك.. ان شاء الله لم تتعبي في رحلتك.. متى وصلتم .. من اين اتيتم .. الى اين انتم ذاهبون .. من هذه الذي معك ..

– انها خادمتي .

وعلمت ان السيدة الاولى هي منيرة اكثر زوجات الملك حظوة وتعرف بأم منصور .وكانت الثانية رائعة الجمال ذات وجه مستدير ولا تتعدى الخمسة والعشرين ربيعاً ، وكانت ترتدي ثوباً ارجوانياً رائعاً تحته فستان بلون الزبدة.. فسألتها :

– ما اسمك ؟

واجابت الامرأتان الاخريان :

– هذه ام طلال .. وام نواف ايضاً .

– هو ابنك اذن الذي امسك الملك من لحيته أمس في المجلس .

ولم تكن تعرف .. لأنها لم تسمع عن الحادث اثناء مقابلة زوجي للملك.

والسيدة الثالثة كان اسمها بازه . وجاءت رابعة ولكنهـا تختلف عن الأخريات .. وهي ذات وجه جميل وشعر أشقر تقريباً ملتفة بثوب اسود يخفي تحته فستاناً ارجوانياً مذهباً .

وسألت ام منصور :

– من هذه .

– هي ماضي[1] وشهرها في رمضان .

ـ اطلب من الله ان يرزقها ولداً .

وأخذت حمدة تتمتم بتمنيات مماثلة لبضع دقائق .

وفي تلك الاثناء دخلت احدى العبدات وراحت تصنع لنا القهوة والشاي بهدوء . وبعد قليل دارت علينا القهوة فشربنا جميعنا . وكان المكان هادئاً لا توجد فيه نساء فضوليات يتلصصن من ثقوب الابواب والنوافذ . وبدأ طفل يصرخ من بعيد فهمست ام منصور بأذن بازه ان تذهب لإسكاته فأطاعت في الحال وانقطع الصوت . وجاءوا بعد ذلك بنوع من البخور فأمسكت به العبدة تحت اكام ثوبي العربي وملفحي .

وقالت السيدات :

ـ يجب ان تقفي فوقه .. الرجال يحبونه وزوجك سيحبه ايضاً .

وسروا كثيراً عندما امتثلت .

ووجدت ان الوقت اصبح مناسباً لكي اغادر ولكنني ترددت اذ كانت الساعة لا تزال العاشرة والربع وقد ابلغت انني اذا بقيت مع السيدات حتى الحادية عشرة فقد يسعدني الحظ بمقابلة الملك الذي يأتي في مثل تلك الساعة الى حريمه .. وكانت تلك فرصتي الوحيدة .

وارتحت عندما ابلغت ام منصور العبدة انها اخطأت في جلب البخور بمثل هذه السرعة .. فجلست مصممة على ان ارى صاحب الجلالة .

وكانت ام منصور تبدو قلقة وتتمتم في نفسها قائلة :

ـ آه .. اين منصور ؟ لا اعرف .. لم اره منذ صباح البارحة .

وجاءها الجواب :

ـ انه مريض بالحمى في منزله .

ـ انني لا استطيع الانتظار .. يجب ان اذهب اليه .

ونهضت بصمت وخرجت . وسألت الاخريات اللواتي اخبرنها ان منصور مريض منذ يومين :

ـ هل تتذكرن الدكتور تومس الذي كان هنا السنة الماضية .. انه اليوم في

الكويت .

واجابتني أم طلال :

– نعم .. انه رجل طيب . لقد سمعنا ان الدكتور دايم قد توفي .. أصحيح ذلك !

– لا أعتقد ذلك لأنه مرّ في الكويت منذ عدة أيام فقط .. هـــل تعرفين السيدة دايم ؟

– نعم أعرفها جيداً وآخر مرة أحضرت معها طفلها الصغير روب روي .

وقلت :

– انني أعرفها منذ عدة سنوات .. إنها امرأة طيبة .

وحدثتني عن رحلتهن السنوية الى مكة ، كيف يغادرن الرياض في الوقت الفلاني وكيف يخيمن واين بعـــد كذا ساعة ... الخ بكل تفصيل وإسهاب ، وكيف ان سائقي السيارات يسرن على مهل تحت طائلة العقاب بالجلد .. الى ان يصلوا الى الارض الرملية حيث يسمح لهم بالاسراع كما يشاءون .

وقالت أم طلال :

– قد لا نقول لهم شيئاً إلا ان ننبههم .. فانا دائمـة القلق على اولادي الذين لا يحبون الجلوس بل يفضلون الوقوف على المقعد قرب السائق .

– هل جاءت سيدة انكليزية لزيارتكن في السنة الماضية ؟ وكنت اقصد بهذا السؤال الكونتيس آثلون .

– عندما كنا مخيمين في خفس جاءت الينا واحدة لا تعرف العربية .. وكان يبدو عليها الأسف لأنها لم تكن تعرف التحدث الينا فأخذت تؤشر على لسانهـا وكأنها تقول انها تود قطع لسانها لأنه لا يعرف لغتنا .

وتحدثنا بعد ذلك عن اميركا ثم سألنني عن البلاد حيث النهار ليل . فوصفت لهن القطب الشمالي ولكنني تساءلت فيما بعد عما اذا كن يقصدن استراليـا حيث يكون ليل عندما يكون هنا ليل .

كان الراديو لهن مصدر تسلية وبهجة فكن يسمعن ساعـــة المجلس الكبير :

تدق مع ساعة لندن كاشارة لضبط الوقت . واكثر شيء كن يستمتعن به هو الموسيقى من لندن في الساعة العاشرة ليلاً .. وكن ايضاً يستلطفن إذاعة القاهرة .

– ولكنهم عندما يقرأون القرآن من هناك لا نفهم لغتهم العربية جيداً .

وهنا جاءوا لنا بصينية كبيرة عليها صحون من الدراق المعلب والأناناس والبسكوت مرتبة ترتيباً أنيقاً . وجلسنا حول الصينية نأكل مما فيها بالملاعق ، وكانت العبدة تحمل إبريقاً من الماء لتصب لنا الماء منه على ايدينا لنغسلها قبل وبعد الطعام .

واقتربت الساعة من الحادية عشرة . وكانت السيدات يدخلن ويخرجن واحياناً يتركن معي واحدة فقط لتسليني . وجاءت ام طلال لتسألني :

– اتحبين مقابلة الملك ؟

– طبعاً أحب ذلك ... وهل ذلك ممكن ؟

وجاءت اللحظة العظيمة .. كما كنت اعتقد . وتركتني ام طلال واخبرتني الباقيات عما يجب ان افعله عندما يدخل الملك :

– سيأتي الى هنا ولست بحاجة الى ان تغطي وجهك ولكن انهضي واذهبي اليه وقبلي يده . فيسألك عندئذ عن حالك وكيف قضيت الرحلة ويعرب لك عن أمله بأن تكوني على أحسن حال وعما إذا كان كل ما تريدونه مؤمناً لكم في قصر بديعه . وانت يجب ان تسأليه عن صحته وعن عائلته .. ثم ينصرف .

وجعلتهن يكررن الدرس علي خشية ان اخطىء . والشيء الذي عرفته بعد ذلك اختفاء وجوه السيدات وراء البراقع فجأة لأن أفندياً سورياً ابيض اللون قد دخل الغرفة ... وعلمت فيما بعد أن الأفندي السوري هو الدكتور مدحت شيخ الارض شقيق فخري أفندي شيخ الأرض الذي جاء لملاقاتنا عندما اقتربنا من الرياض . والدكتور مدحت هو طبيب الملك الخاص . وبلهجة سورية سريعة تلا علي رسالة من الملك فلم افهمها جيداً ولكنني استنتجت ان الملك لم يكن يعرف انني سأقوم بزيارة للسيدات ذلك الصباح فبعث يعتذر انه لن يستطيع

مقابلتي . وقال الدكتور مدحت انني إذا كنت ارغب في مقابلة نورا شقيقة الملك فانها تستقبلني عند الظهر .

وتولت السيدات شرح ما قاله الدكتور مدحت من جديد بلغـــة مبسطة . وبعد ذلك خرج الطبيب وعاد من حيث اتى ليسأل نورا عن الوقت المناسب .

وقال لي بعد عودته :

ـ الشيخة نورا ستستقبلك في قصرها بعد صلاة العصر . ان سيارتك تنتظر .

وقلت : يجب أن أذهب !

وصرخن كلهن قائلات :

ـ القهوة .. القهوة .. يجب ان تشربي مزيداً من القهوة .

وبعد ان شربت ثلاث فناجين قبلتهن مودعة.. ونزل معنا الدكتور مدحت الى الدرج حيث رافقنا رجل آخر الى السيارة. وعدنا الى قصر بديعه وقد خاب املي بأن فرصتي الوحيدة لمقابلة الملك قد ضاعت .

وعند دنا وقت العصر توجهت الى قصر نورا بالسيارة وبصحبتي حمدة وسالم المزين ايضاً . ووصلنا القصر بعد نصف ساعة وكان منظره مشوشاً نظراً لوجود كميات من الطوب حوله معدة لبناء الجناح الجديد الكبير . وجـــاء عبد صغير ليرشد سائقنا الى المدخل حيث ترجلت من السيارة تتبعني حمدة . ولدى عبورنا المدخل اتجهنا قليلاً الى اليسار فوجدنا أنفسنا تحت شرفة ذات اعمـــدة تحيط بباحة صغيرة .

كانت عدة نساء في استقبالنا فتبادلنا التحيات العربية المعهودة وجلسنا على السجاد واتكأنا على مساند كبيرة على طول الحائط . وتساءلت في نفسي : أين نورا تلك السيدة العجيبة التي سمعت عنها كثيراً والتي يقال انها طول شقيقهـــا الملك عبد العزيز . انها ستنضم الينا بعد قليل.. او ربما كان كل ذلك كالاسطورة والسيدة الموقرة تجلس بجانبي تتحدث كزوجة أحد شيوخ الصحراء بعربية البدو الرائعة .. أهذه هي نورا الشهيرة ؟ واطلقت طلقتي في الظلام وقلت :

ـ يا نورا ، انني سعيدة برؤيتك ، لقد سمعت عنك كثيراً .

فابتسمت وتمتمت كلاماً جميلاً بصوت خافت .. كان كل شيء على ما يرام . فقد عرفت اين اقف الآن . وبدأت بصوت أعلى تمطر حمدة بالاسئلة :

– من انت ؟ من اين انت ؟ ما اسمك ؟ ما اسم امك؟ ما اسم والدك ؟الخ..

واجابت حمدة انها مربية اولادي وانه لا فائدة من سؤالها عن والديها وعن المكان الذي اتت منه وقالت :

– انك لن تعرفينهم .

وقالت نورا بصوت آمر :

– اخبريني اخبريني .

وبعد ان اخبرتها كل شيء تريد ان تعرفه وارتاحت طوية حمدة سألت :

– كيف حال فلانة وفلانة في الكويت .. هلا تزال فلانة وفلانة على قيد الحياة ؟

وبعد ان سألت عدة اسألة تتعلق بكبار عائلات الكويت قلت لها :

– لقد مضى زمن طويل منذ كنت هناك يا نورا .. فعندما غزا شقيقك الرياض هل تركك في الكويت ؟

– نعم وبعدئذ بعث في طلبي .

وبعد ذلك قدمتني لفتاة جميلة طويلة القامة تجلس قبالتنا .

– هذه ابنتي الجوهرة .. انها زوجة فيصل بن عبد العزيز * .

فتبادلنا الابتسامات .

وابديت دهشتي قائلة :

– ما شاء الله يا نورا، انك ما زلت صبية ولديك مثل هذه الأبنة .. كانكما شقيقتان .

وقالت نورا :

---

* فيصل هو الأبن الثاني للملك عبد العزيز وقد اصبح ولياً للعهد سنة ١٩٥٣ . وهو حالياً رئيس وزراء المملكة السعودية ونائب الملك فيها . (ملك المملكة العربية السعودية منذ تشرين الأول ١٩٦٤) . الناشر .

– كنت مريضة .. لقد مضى علي اربعـــة أشهر وأنا على فراش المرض .. ولكن الحمدلله فقد تحسنت حالتي .

– الحمدلله .

وسألتها عن السيدتين الباقيتين فقالت انهن زوجات ابنهـا محمد الذي قالت انه خرج للصيد لعدة أيام مع زوجها سعود العرفة المعروف تحبباً بسعود الكبير .

وقالت لي :

– يجب ان تذهبي معنا الى مكة .

– وهل أستطيع ؟ انني كافرة ..

– يجب ان تصبحي مسلمة مثلنا فتصلين كي تصلي وعندما تفارقين الحيـاة تذهبين رأساً الى جوار ربك الكلي القدرة .. انني لا أستطيع ان أفكر كيف ستذهبين الى النار الابدية .. قولي انك ستصبحين مسلمة .. قولي ان شاء الله .

ولم اقل شيئاً فاحتفظت بهدوئي لأنني لم اكن اعرف مـاذا افعل . وهزتني من كتفي وقالت :

– قولي ان شاء الله .

فتمتمت قائلة :

– ان شاء الله .

والتفتت نحو حمدة وطلبت منها ان تراقب ما إذا كنت قد اصبحت مسلمة مؤمنة حقاً .

وهنا قلت لها :

– يا نورا .. فليصبح زوجي أولاً بالرغم من انني اخشى عندئـــذ ان يأخذ لنفسه زوجتين او أكثر من نساء البدو الجميلات .

– لا بأس في ذلك .. لا تقلقي .. كلهم يفعلون ذلك ولا نبالي .. انه شيء رائع ان يكون حولك كثير من النساء .. هل ابنتك متزوجة ؟

– لا ،انها في المدرسة تتعلم الكتابة .

– ولماذا يجب ان تتعلم ؟

وهنا دخلت الجوهرة في الحديث وقالت :

– انا اعرف ان نساءكم ليسوا مثلنا .. فاذا لم يتزوجن يشتغلن لتحصيل معيشتهن .

واجبتها بقولي :

– هذا صحيح .. اننا ننتظر ان يأتي الينا أحد ليتزوجنا وكثيرات من الفتيات لا يطلبهن أحد فيبقين دون زواج .

واقترحت علي نورا بقولها :

– فلتتزوج ابنتك واحداً منا .

وعندئذ اخبرتها ان شيخاً من شيوخ البدو جاء الي يوماً وطلب يدها وقال انه على استعداد ان يعطيني اي عدد من الجمال اطلبه . وبعد تفكير قلت له « اعطني كل الشروف » ، لأنني كنت أعرف ان الملك قد أخذها كلها من قبيلته مطير .. فذهب حزيناً ولكنه لا يزال يفكر فيها ويسأل عنها .

ورن جرس التلفون فجاءت عبدة وفتحت صندوقاً صغيراً كان معلقاً على الحائط فوق رأسي .. وأخذت تتكلم وتضحك في الجهاز ونقلت رسالة الى سيدتها ثم نقلت جوابها .

وقلت لنورا :

– ان اجهزة التلفون « تنرفزني »

وردت نورا علي قائلة :

– لا .. انها رائعة .. لست أدري اذا كنا نستطيع البقاء بدونها .

وكنا طوال هذه المحادثة نتناول الشاي والقهوة .

وقالت نورا :

– الشيوخ يأتون الى هنا دائماً بعد الظهر ولذلك اتوقع ان يصلوا قريباً .. فلنذهب الى هناك لنأكل بعض الفاكهة قبل مجيئهم .

واقتادتني عبر الباحة النظيفة الى زاوية الشرفة المقابلة حيث وجدنا صحوناً ملأى بالخوخ والاناناس والاجاص والبسكوت وفاكهة من دمشق ، فغسلنا ايدينا

وبدأنا نأكل .. وكانت الفاكهة لذيذة .

وسألتني :

– لماذا لم تأت عندما كانت لدينا فاكهة طازجة .. لقد انتهت منذ شهر فقط .

وأخبرتهن انه لم يمض على قدومي من لندن وقت طويل ولذلك لم يكن بمقدوري ان ازورهن قبل هذا الوقت .

ولم اكد انتهي من غسل يدي حتى سمعت أصواتاً مفادها ان الشيوخ قد اتوا .

وقالت نورا :

– تعالي تعالي .

وهرعت عبر الغرفة لتحية شقيقها .

وكان الملك عندئذ جالساً على كرسي كبير في نفس المكان الذي كنا نجلس فيه منذ برهة . وكان ابنه الأكبر الأمير سعود واقفاً عند المدخل . ونهض عبد العزيز وحياني بابتسامة رقيقة وردد على مسامعي بالعربية السؤال المعتاد :

– كيف حالك ؟

وبعد ان سلمت عليه بالعربية سألت الأمير سعود عن صحته بالانكليزية .. وطلب مني الملك ان اجلس . وجلست على يمينه وجلست نورا على يساره وبدأت تخبره كل ما دار بيننا من حديث وكيف وعدتها بأنني ساعتنق دين محمد واذهب الى مكة .

وقلت له :

– يا عبد العزيز انك بدون شك ستقطع رقبتي اذا ذهبت انا الكافرة الى مكة .

فضحك وضحك طويلاً لدى سماعه هذه العبارة .

وسألته نورا :

– من هو زوجها ؟

– ديكسون .. صديقي منذ سنوات طويلة .

وهنا قالت نورا :

– يبدو انها تعرف كل شيء اذ طلبت مني ان اسمح لها بمشاهدة البوابة الكبرى لقصر عجلان التي لا تزال رأس الرمح فوقها .

– طبعاً يجب ان تشاهدها ولكن من أين حصلت على معلوماتها هذه ؟

وهنا تطلع الملك نحوي وضحك .

وكان جوابي :

– انك ادرى الناس يا جلالة الملك .

ففهم قصدي .

– هل زرت قصري الجديد ؟ يجب ان تشاهديه !

– اطال الله عمرك .

انه شخصية عظيمة .. اما ابنه سعود الذي كان يقف بعيداً عنا عدة ياردات ، فلم يكن شيئاً إذا قورن به .

وقالت نورا :

– لقد اخبرتني انني لا زلت ابدو صبية وكأنني شقيقة ابنتي .

فقلت لها :

– وهذا صحيح يا نورا .. فاذا طلقني زوجي فانني سآتي واعيش معك هنا دائماً .. انني اريد ان ابقى شابة مثلك .. ان كثرة العمل والضوضاء في الغرب تجعلنا نشيخ قبل الأوان .

وضحك الملك منقلبه ثانية واستأذنبالخروج وعندما غادر المكان جاء الامير سعود الي فوضعت فوراً ذراعها حول عنقه وسألتني باعتزاز :

– كيف ترين سعود ؟ مثل والده ؟

– نعم .. ما اطوله !

وهنا قال لي سعود بالانكليزية ما معناه :

– كيف حالك ؟

— بخير شكراً .. حسناً ، ها قد تعلمت بعض الانكليزية في لندن .

ولم يفهم شيئاً من ذلك ولكنه ضحك ولوح بيده وخرج مسرعاً لينضم الى الملك .

وجلسنا مرة ثانية لنشرب الشاي والقهوة ثم جاءت امرأة بدويـــة فنهض الجميع لتحيتها وقالوا :

— هذه زوجة الملك .

واحتجت عليهم وهي تغطي وجهاً خجلا وقالت :

— لا .. لا ..

ولكن نورا قالت :

— هذا صحيح .. انها شقيقة الشيخ فواز* من قبيلة الرولى .

وكان وجهها الصغير المستدير مليء بالوشم وكذلك يداها وقدماها ، وكانت تبدو غريبـــة بين السيدات الأخريات البيضاوات الوجوه . وكانت يداهـــا متورمتين . فأخذت كل واحدة تعطيها نصيحة بشأنها .

وسألت نورا :

— أتسمحين لي بالذهاب .

— اذهبي إذا شئت . سأبعث عبدتي معك لتدلك على القصر الجديد . اسرعي لأنه عند غروب الشمس تقفل جميع الابواب .

وافترقنا .. وسرت الى عبر قصر الشمسية .

مقابلة ثانية مع الملك

وخلال إقامتنـــا في الرياض قمت انا وزوجتي بجولة في جميع انحاء المدينـــة وضواحيها دون ان يعترضنا أحد . كما قمنا بزيارات الى مدينة ضارعية القديمـــة عاصمة نجـد السابقة ، والى محطتي الاذاعة ، والمرآب الملكي ، ومحطـــة توليد

---

* — فوازالشعلان رئيس فرع الروله في قبيلة عنيزه .

الكهرباء ، وقصر الشمسية الفخم ، ومكان السباق ، وقلعة عجلان الرشيدية التي استولى عليها ابن سعود عندما احتل الرياض في هجومه المدهش في بداية عهده ، والاسواق .

ولما سمع الملك بجولاتي الاخيرة هذه ارسل في طلبي صباح السابع والعشرين. ووجدته جالساً في نفس القاعة التي قابلته فيها سابقاً . وبعد التحيات المعتادة والاستفسارات عن صحة زوجتي سألني إذا كنت قد زرت ضارعيه. ولما أجبته بالايجاب قال لي بكل أدب وتهذيب انه بامكاني ان أذهب اينما شئت في عاصمته. وسمح لي بالتقاط الصور الفوتوغرافية :

– انت واحد منا يا ديكسون وانت حر في ان تفعل ما تشاء في بلادنا .. اذهب اينما تريد ومتى تريد .

ولما شكرته على عطفه هذا استأنف كلامه قائلاً :

– ولأنه مما لا شك فيه انك تود زيارة الهفوف والقطيف لمشاهدة آبار النفط هناك ، فقد ابرقت الى ابن جلوي ان يقوم بالترتيبات اللازمة .

ووجدت صعوبة في التفسير له ان وقتي محدود لا يسمح لي بالقيام بمثل هذه الزيارة . واستأذنت بالخروج من مجلسه بعد ان قرئت نشرة الاخبار بالعربية .

وحان موعد رحيلنا الى الكويت يوم الخميس بعد الغداء في الثامن والعشرين. وفي الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم شاهدنا عرضاً كبيراً او ما يشبه رقصة الحرب استغرقت اربع ساعات في الساحة الكبرى امام القصر . فكانت زوجتي تشاهد العرض من جناح السيدات مع نورا والاميرات ، وكنت انا اشاهده من الطابق الأرضي عند مدخل القصر حيث كان فؤاد حمزه بهتم بي . وفي الصفحات التالية تصف زوجتي هذا العرض .

رقصة الحرب

• **بقلم فيوليت ديكسون**

تقرر ان يقام عرض في اليوم الرابع من زيارتنا فدعاني الأمير سعود لمشاهدة

العرض من النوافذ العليا في القصر . وبعد ساعة من شروق الشمس توجهت مع خادمي حمدة الى المكان بسيارة خاصة . ودخلنا من نفس البوابة التي دخلناها من قبل ، فوجدنا الباحة مكتظة بالخيول وكلها مسرجة بسروج فخمة وأحزمة من الصوف الملوّن .

ومررنا بين الخيول متلمسين طريقنا الى الدرج ثم الى الشرفـات بين الغرف كبيرها وصغيرها الى ان وصلنا الى غرفة صغيرة ازدحمت نوافذها بالسيدات عرفت منهن اللواتي استضفنني صباح الثلاثاء ، فدلوني الى مكان مناسب .

وتطلعت من النافذة الصغيرة فوجدت الباحة كلها مكشوفـة تحت نظري يتراقص فيها رجال مسلحون يرتدون ملابس بيضاء وينشدون الاغاني .

وكان مسمراً فوق تلك النوافـذ شريط من القماش الابيض كانت النسوة يقفن وراءه محجبات الوجوه . وفجأة أحسـت انهن يتدافعنني وسمعت احداهن تقول :

تعالي .. تعالي ..

وبدون ان أعرف سبب هذا الانتقال أو اتجاهه تبعتهن عبر القاعة الى غرفة كبيرة . وهنا أيضاً كانت كل نافذة كتلة من النساء . وقد جمعت جميع المساند من الغرفة لكي يتمكن من الركوع عليها ومشاهدة الرقص دون تعب . وكانت لكل نافذة قضبان حديدية ومغالق خشبية عليها نقوش من قسم كالابواب تماماً. وكان السقف مغطى بقماش أبيض علق شريط من نوعه على طول الحائط فوق النوافذ .. ولكن قبل ان نغادر كان كل شيء ممزقاً ومرمياً على الارض .

الساعة الآن حوالي الثامنة صباحاً. وفي الساحة كانت تقرع الطبول والرجال يرقصون رافعين السيوف بايديهم ومنهم من كانت اذرعهم متشابكة يروحون ويجيئون على النغم وهم ينشدون اغنيات الحرب المليئة باخبار الحب والفروسية. وظهر الامير سعود تحتنا مباشرة وكان يلبس ثوباً من الحرير الابيض وعلى وسطه خنجر ذهبي وعلى رأسه عقال مذهب فوق كوفية (غطرة) من الحرير الابيض. وكان معه حوالي ٢٧ شاباً من اولاد الملك وأولاد مسعد الجـلوي حاكم حايل

وغيرهم من فتيان البيت السعودي .

وانتظم الجميع في صفوف مستقيمة بعد ان نزل سعود الى الحلبة يدفع هـذا الى الوراء وذاك الى الامام الى أن أصبح الرجال السبعماية أو الثمانماية يرقصون بشكل منتظم . واشترك سعود في الرقص – يحيط به رجـال يضربون طبولاً صغيرة . وقد استرعى انتباهي واحد منهم يلبس طربوشا احمر ذا شرابة سوداء مثبت تحت ذقنه بشريط .

وخرج الملك من القصر عندئذ وجلس على مقعد حجري مرتفع عند الجهـة الشرقيـة من الساحة يحيط به المشايخ – رجال الدين الوهـابيين – وصار الراقصون يتحركون ببطء باتجاه الملك الذي انضم اليهم وسيفه في يده ورقص ما يقرب من العشرين دقيقة . وكان من الصعب ان اشاهده من المكان الذي كنت واقفة فيـه ، اذ كان الى يساري مباشرة تحجبه عن نظري القضبان الحديدية . والسبيل الوحيد الى رؤيته هو اشاحة الملفع عن وجهي واغمـاض عيني اليسرى تماماً !

وبعد وقت قصير ظننته دهراً لأن ركبتي اخذتا تؤلماني من الركوع ، شاهدت الملك واولاده يسيرون بين الراقصين نحو مدخل القصر . وهناك أصبح بامكاننا رؤيتهم بوضوح لأنهم كانوا تحت النافذة مباشرة . ووقفت هناك اتطلع عليهم الى ان اختفى الملك داخل القصر . ولما نزلت عن النافذة كانت الغرفـة خالية الا من حمدة وعبدة أخرى .

وهمت العبدة بالخروج إلا ان حمدة وقد بدا عليها الخوف استوقفتها وتوسلت اليها ان تدلنا على الطريق لانه لا يمكن ان نجد طريقنا بأنفسنا .

وتبعناها عبر الممرات الكثيرة الى ان وصلنا الى الجسر حيث كان رجـل واقفاً يبدو انه يتأكد من ادخال النساء كل الى جناحها . وقال لنا :

– أأنتما الاخيرات .. هيا اسرعا .

ومررنا عبر عيادة الدكتور مدحت الصغيرة فوق البوابة والرجل يدلنـا بقوله : من هنا .. من هنا ..

واخيراً وجدنا أنفسنا وحيدات في غرفة استقبال أم منصور حيث جلسنا بعض الوقت بينما كانت إحدى العبدات تروح وتجيء الى أن جـــاءت أم طلال والسيدة المسماة بازه وبعد حين تبعتها نورا . وكانوا جميعهن لطيفات معي وتمنين ان أكون قد استمتعت « بالعرضه » وان أكون قد شاهدتها جيداً . وأخبرنني ان « العرضه » أقيمت بمناسبة انتهاء أحد الاولاد الصغار من قراءة القرآن . والذي ينهي هذه المهمة يسمونه « خاتم » . وقالت نورا انها بحثت عني فلم تجدني وكانت تشاهد الرقص من غرفة في طرف القصر أبعد من الغرفة التي كنا فيها .

والتفتت نورا الى النساء الأخريات لتستفهم عن الغريب الذي قبل يد أخيها في الساحة ظناً منها انه زوجي .

وقيل لها :

– لا .. انه ابن شيخ دبي .

وادهشني كيف عرفن وهي لم تعرف .

وسألتها :

– الم تري ديكسون ؟

– طبعاً اعرفه .. بلغيه سلاماتي .

– وهو ايضاً يسلم عليك يا نورا .

ثم ابدت إعجابها بالحلق المعلق في اذني فخلعتها لتراها عن كثب . وسألتني :

– من اين اتيت بهذا الحلق .

– حصلت عليه في القدس منذ زمن طويل .. انه من صنع بخارى التي تقع وراء بلاد العجم .

– كم ثمنه ؟

– اعتقد ثلاثة جنيهات .

– ليس كثيراً .

وعادت تتفحص خيوط الذهب في ثوبي الاسود واعجبت بالطريقـــة التي حيكت بها الاوراق في الثوب . واخبرتها ان هذاالقماش جاء الى اسواق الكويت

مؤخراً ووعدتها ان ارسل لها قطعة منه عندما أعود . وتحدثنا عن مواضيع اخرى الى ان ظهر الدكتور مدحت في الباب وقال ان الملك سيستقبلني وطلب مني ان اتبعه ، فمشيت معه عبر الممر ثم الى اليمين حيث تركني عند مدخل احدى الشرفات .

وعند نهاية الشرف كان يجلس رجل ادار وجهه الى الجهة الاخرى ويلبس قميصاً قطنياً وعلى رأسه كوفية بدون عقال. وللوهلة الاولى لم اعرف انه الملك.. إلا بعد ان نهض ليستقبلني وطلب مني ان اجلس على كرسي بجانبه. وبعد الأسئلة المعتادة عن الصحة والحال .. الخ طلب كأساً من الماء فتقدمت احدى العبدات وبيدها كأس جرعها كلها . ويبدو انه تعب وشعر بالارهاق من جراء الرقص واشتداد الحرارة لأن الوقت كان يقارب الظهر ، ومع ذلك عمل جهده ليراني قبل ان اغادر عاصمته .

وحدثني بعض الوقت عن عائلته وكيف انه يرغب في تعليم اولاده ركوب الخيل واطلاق النار منذ الصغر وقال :

ــ يجب ان يصبحوا جنوداً ... كلهم .

وطلبت منه ان يأذن لنا بزيارة السمن في الربيع لمشاهدة الأزهار ، فابتسم وقال : « ان شاء الله » . ولم أكن اعرف ما إذا كان هو سيطلب مني الانصراف او استأذنه انا بالانصراف .. وعندئذ لمحت الدكتور مدحت يؤشر لي من طرف الممر ، فشكرت الملك مرة اخرى على لطفه وكرمه وانصرفت عائدة مع الطبيب الى الغرفة التي تركت النسوة فيها .

واخذ الدكتور مدحت يحدثني بالفرنسية واشتركت معنا بالحديث في الفرنسية طبيبة سورية دخلت علينا . وهنا انصرفت النساء الملكيات فأخبرني الدكتور مدحت انه التقط صوراً جيدة للرقص وطلب مني ان آخذ الفيلم معي الى الكويت لأحمضه واعيده اليه . وقال انه نظراً لأن زوجي لم يلتقط اية صور ، فبأمكاني ان احتفظ بنسخ من الصور بقدر ما اريد . فوافقت شاكرة . ولما كان الفيلم لا يزال يتسع لصورتين فقد اخذ صورة لي مع حمدة ونحن جالستان في

الغرفة وأخرى لي في الشمس أمام احد الابواب الجميلة .

وقال الدكتور مدحت :

– يؤسفني انني لا استطيع أن اصور الملكات .

وعندئذ دخلت ماضي التي شهرها في رمضان فودعتها .. ثم أمرت احدى العبدات ان تبحث عن النساء الاخريات لكي يأتين لوداعي . وبعد برهة عادت العبدة لتقول انهن لن يتمكن من المجيء ، فنزلت مع حمدة على الدرج الى حيث تنتظرنا السيارة . (انهن حديث زوجهن ديكسون)

وداع الرياض

كنت قد قابلت ابن سعود قبل مقابلة زوجي الاخيرة له . فعندما كانت العرضه على وشك الانتهاء توجهت مع فؤاد حمزه الى مكتبه في القصر . وبينا كنا جالسين نشرب القهوة أطل الملك لوحده لاهثاً يبدو عليه التعب من الرقص . وبعد ان استراح مدة اخبرني انه سمع اننا سنغادر الرياض بعد الظهر فجاء خصيصاً لوداعي .

وأخبرني وهو يضحك انه قابل زوجي في قصر شقيقته نورا وكيف ان نورا حاولت ان تحمل زوجي على اعتناق الاسلام . وقال :

– ولكن زوجتك ترددت في قبول ذلك خوفاً من أن تحذو حذونا يا ديكسون فتتزوج ثلاث نساء أخريات .

واخبرني ايضاً وهو يضحك ملء فمه ان زوجته أكدت انها في حال طلاقها مني ستأتي الى الرياض لتعيش مع نورا في قصر الشمسية .

وبعد هذا الحديث الضاحك عاد يتحدث عن قضية فلسطين طيلة نصف ساعة مستعيداً كل الحجج التي عرضها سابقاً ولكن هذه المرة بصورة اكثر جدية . ويبدو انه بالفعل كان يخشى خطر الانقسام بين العرب والانكليز بسبب القضية الفلسطينية .

– ان حكومتك تحفر هوة سحيقة بينها وبين العرب . فاذا لم تتوقف عن

الحفر فسيقعان كلاهمـــا في الهوة . لا يزال هنالك جسر عبر هذه الهوة ولكن استمرار الحفر سيدمره وتكون نهايـــة الصداقة العربية ـ الانكليزية . اليس هنالك شيء يستطيع اقناع حكومتك بالتوقف ؟ .

واستطرد يروي لي كيف كان الاتراك في زمن من الأزمان شعباً عظيماً يعرفون كيف يعاملون امراء الجزيرة العربيـــة بالتقدير والاحترام ويطلبون نصيحتهم وفوق كل ذلك يغدقون عليهم الالقاب والمكافآت . كان ذلك في الايام التي كان يتسلم مقادير الامور في تركيا رجال عظماء . ولكن في الأزمنـة المتأخرة لم تعد تركيا تنجب مثل أولئك الرجال فكانت النتيجة انها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بالجزيرة العربيـة او حتى باحترام العرب لها . ففي كل مكان كنت تجد مسؤولين وموظفين اشرار انحرفوا عن الطريق السوي فأصاب اداهم سمعة ونفوذ الحكومة المركزية . فماذا كانت النتيجة ؟ انهارت تركيا ونخرها الضعف من الداخل . كل ذلك بسبب اخطاء المسؤولين في المنـــاطق الذين كان كل همهم في الحصول على ترقيات رخيصة وفي جني ثروات ضخمة عن طريق الرشوة بصرف النظر عن اي اعتبار آخر .

وقال الملك ايضاً :

ـ ان حكومتكم اليوم تسير تقريباً على نفس الطريق التي سار عليها الاتراك قديمـا . فالمسؤولون في المواقع المهمة يقتفون خطى المسؤولين الاتراك في أواخر عهدهم ولا يقومون بواجباتهم تجاه الحكومة المركزية .

واعطى الملك مثلاً على ذلك قضية عزل الشيخ عيسى بن علي آل خليفه حاكم البحرين سنة ١٩٢٣ ، التي قال انها اضرت بمصالـــح انكلترا في الجزيرة العربية اكثر من أية قضية أخرى منذ مئة سنة .

وقال الملك :

ـ ان الشيخ عيسى ليس فقط ابا الخليج الفارسي بل ابا الجزيرة كلها . فنحن العرب ، وخاصة نحن وبيتنا ، ننظر اليه بعطف بالغ . وكنا على استعداد ان نموت من اجله لو انه رفع اصبعه طالباً المساعدة . فماذا حدث ؟ طرد من مملكته

الصغيرة وهو ابن التسعين احنت ظهره الأيام فمات في الغربة كسير القلب مجرداً من الشرف . كل ذلك من أجل ماذا ؟ لمجرد ارضاء طموح ضابط سياسي معين . ان مثل هذه الأشياء يجب ان لا يسمح بحدوثها ، ويجب على حكومتك انتنتقي موظفيها بصورة أفضل .

وقال ان هذا هو السبب الذي من أجله طلب ان ترسل حكومة صاحب الجلالة موظفين تختارهم من بين الاكفاء من وقت لآخر لكي يجري الحديث معهم من الرأس الى الرأس . وبعد ان شن حملة على بعض المسؤولين البريطانيين في الخليج لا حاجة لذكر اسمائهم، اغتنمت الفرصة لأشكر جلالته على كرمه ولطفه تجاهي وتجاه زوجتي واستأذنت بالانصراف . وكان آخر شيء فعله انه أمر بان تقرأ برقيات « رويتر » بحضوري وقال :

– انني في هذه الأيام اعيش على البرقيات لان الأوضاع العالمية تتأزم في كل مكان ويجب ان أبقى على علم بكل شيء .

وبعد ذلك غادرته بكل احترام .

كانت السيارات تنتظرنا في قصر بديعه محملة بكل ما يلزمنا في طريق عودتنا . وبعد تناول الغداء انقدت كل الخدام بعض المال (عددهم ٢٩ خادماً) وودعنا الجميع . واختنقت أصوات نواعير الماء في الحديقة وراء القصر وسط هدير سياراتنا ... فشعرنا بحزن وانقباض .

طريق العودة

بقلم فيوليت ديكسون

ولما كنا قد غادرنا الرياض في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، فقد نصبنا خيامنا لقضاء الليل عند آبار رماح على بعد ٩٢ ميلاً من الرياض . كان مساء لطيفاً وكانت الأرض تبدو ملأى بجحور الجربوع مع انني لم أر واحداً منها . وبعد حلول الظلام تجولت حاملة شعلة بيدي ولكنني لم أعثر الا على عصفور صغير داخل ثقب حفره لنفسه .

وقد تسلينا كثيراً على العشاء ذلك المساء لأن السائق محمد كسر احد أسنانه الأمامية باللحم القاسي وابتلعه !

وفي صباح اليوم التالي زرنا آبار رماح والتقطنا بعض الصور . كانت هنالك خمس آبار كل واحدة على رأس تلة صغيرة . والآبار الحقيقية مبنية من الداخل بحجارة منحوتة ويبلغ قطر فوهة البئر منها حوالي ٢٠ قدماً . اما الماء فيقع على عمق ٣٥ باعاً اي ما يوازي ٢١٠ أقدام تقريباً .

ولاحظنا حول احدى الآبار خمس نواعير مثبتة على أعمدة خشبية ، وخمس نساء راكبات على خمسة جمال يسحبن الماء من البئر بالنزول عبر منحدر التلة . وبهذه الطريقة كانت تسقى مئات الجمال وكان المكان يردد صدى مناداة كل جمل باسمه ليخف الى شرب الماء .

ورحت اتفرج على المحمل – او « الطيارة » كما يسميه البدو – الذي تستخدمه النساء . وكان مزيناً بالاصداف وبالقماش الملون تتدلى من احد جانبيه خاتم الانف الذهبي لصاحبة المحمل ، وفي قعره تطريزات جميلة في وسطها صدفة كبيرة وتتدلى منه سلاسل طويلة جميلة . وارادتني صاحبته ان اشتريه ولكنني لم اكن احمل مالاً . وكان كل الذين صادفناهم هناك من قبيلة سبيع .

وقطعنا الدهانة مرة ثانية بسهولة لأننا اتبعنا الطريق الرئيسية طوال الرحلة ، فكان ذلك أسهل بكثير من الطريق القصيرة التي سلكها سائقنا في الرحلة الى الرياض . وتوقفنا عند دحل الشامي حيث يتجه طريق الجمال الى الاحساء ، ونزلنا هناك . وكان مدخل الدحل صغيراً جداً اذ لا يتجاوز قطره الاربعة أقدام ، اما جوانبه فكانت وكأنها مرمر مصقول اخترقتها الحبال الى عمق عشر بوصات . يبدو ان هذا الدحل قديم العهد جداً واتصور انه كبير جداً من الداخل .

وتوقفنا بعد ذلك عند دحل قديم غير مستعمل يعرف بدحل النخل لأن شجرتي نخيل ترتفعان بجانبه . ونظراً لوجود بعض الظل هناك فقد قررنا ان نتناول طعام الغداء في الظل . وهناك جمعت عدداً من ريش البوم والبط مما يدل

على انه في الشتاء يمتليء الدحل بالماء فتأتي الطيور لتقيم حواليه .

وقضينا الليلة التالية في مكان جميل الى الشمال من جاريه عليا على مرأى من مخيم للبدو حيث تكثر شجيرات الجلا والحمض . واستأنفنا السير في السادسة صباحاً فوصلنا الى الكويت في الحادية عشرة .

وخرج عبدالله الملا لاستقبالنا ما بعد بوابة جهرا فتوقفنا عدة دقائق في سوق جهرا لنرى الملا صالح فتجمهر حولي عدد من الفضوليين الذين تجمعوا لمشاهدتي بالملابس العربية .

وتبين من عداد السيارة ان طول الرحلة ذهاباً وإياباً بلغ ١٥٢٠ كيلومتراً اي ما يزيد عن ٩٤٤ ميلا . (انتهى حديث زوجة ديكسون)

انطباعات

يمكن اختصار انطباعاتي الشخصية عما رأيته وسمعته في الرياض بما يلي :

ان الشعب في المملكة العربية السعودية ولا سيما رجال الدين منهم ، في حالة تأثر شديد حول قضية فلسطين. ولكن الملك هو في مركز القوة قطعاً ويستطيع كبح جماع شعبه والسيطرة عليهم . وبالرغم من انه مشمئز وآسف للاتجاه السياسي في فلسطين ، وخاصة مشروع التقسيم ، فهو مصمم على ان لا يجازف بالعلاقات الودية القائمة بينه وبين الحكومة البريطانية . ولذلك فانه لن يقوم على الاطلاق بأية حركة معادية لبريطانيا في الجزيرة العربية ، باستثناء إعطاء النصح وتقديم المقترحات .

ان سياسته في البقاء على الحياد ستضر بنفوذه في الجزيرة وهو يعرف ذلك . وشعرت لو ان الحكومة البريطانية تمنحه شيئاً مقابل ذلك في الأزمة الراهنة ، شيئاً يعود بنفع مباشر على العرب والجزيرة العربية خاصة تقدره شعوب الجزيرة ، فتكون بذلك عملت عملاً حكيماً . اما هو فسيجد طريقة في شرح فوائد تلك المنحة لرعاياه مما يؤدي كما اعتقد الى خلق جو بين العرب أقل عداء . ويجب ان يكون « الشيء المقابل » كريماً جداً لأن التباخل في مثل هذه الحال يفسد

كل شيء .

اما زوجتي التي استقبلت ثلاث مرات من قبل النساء الملكيات ، فقد اعجبت بصورة خاصة بالسيدة نورا التي وصفتها بأنها من أكثر النساء اللواتي قابلتهن جاذبية ومرحا . فهي من أهم الشخصيات في الجزيرة العربية وتشارك شقيقها الملك في كل مجالسه . لقد اعجبت نورا بالضاحية الجديدة التي ابتنتها شركة نفط الكويت في مقوى ولكنها ، حسب ما قالت لزوجتي ، تعتقد ان تلك الضاحية ليست إلا حصناً عسكرياً للدفاع عن حدود الكويت الجنوبية . ووجدت زوجتي صعوبة فائقة في اقناعها بأنه لا يوجد أي حصن من أي نوع في ذلك المكان . ومما لا شك فيه ان نورا كانت تتصور في ذهنها المركز العراقي في بسوه بالصحراء الجنوبية والذي أحدث كثيراً من المتاعب .

لقد عاشت نورا بنت عبد الرحمن الفيصل آل سعود حتى سنة ١٩٥٠ عندما توفيت بسلام في الرياض . ولا يزال كل فرد من عجمان يحتفظ لها بذكرى طيبة ليس من أجل شقيقها الملك بل من أجل زوجها سعود العرافة . انها لا شك من أجمل وأعظم وأشهر البنات في كل عصر ، ولا ينافس اسمها إلا اسم شقيقها الملك ابن سعود . وابنها ايضاً ليس رجلاً عادياً واسمه محمد ، لكن عجمان تناديه باسم شقران وهم يعبدونه .

الفصل السادس عشر

الكويت

١٩٣٩

عرس في الكويت

بقلم فيوليت ديكسون

العروس هي موزا بنت فاطمه ، ابنة شقيقة حمدة خادمتي . والدها اسمه خلف وهو رجل فقير أعرج وربما بسبب ضربة في احدى سواقيه منذ عدة سنوات. وكان يحصل على معيشته من زراعة قطعة أرض اعطاها اياه الشيوخ .. فكان يزرع فيها الخس والسبانخ والفجل والقرنابيط والملفوف ودوار الشمس وبعض الأزهار من بذور كنت اعطيها له . ولم تكن زوجته وضحا لتهتم بامور الزراعة بل كانت تفضل زيارة اصدقائها وحضور اي احتفال في الجوار .

وقبل عدة سنوات استأجر خلف شاباً يعاونه في الحديقة. وبعد مدة قصيرة توفي والدا الفتى وتركاه يتيماً. ولما بلغ سن الرشد زوج من ابنة خلف كتعويض له عن عمله خلال السنوات القليلة الماضية .

الزواج والطلاق امران في غاية السهولة في الجزيرة العربية . وحفلة الزواج بسيطة جداً اذ يأتي الملا ويسأل الرجل أمام الشهود ما اذا كان يريد فلانة

زوجة له . وبعد ذلك يسأل من ينوب عن الفتاة (عادة والدها أو شقيقها) ، فاذا كان الجواب « نعم » انتهت الحفلة . واحياناً تجلس العروس خلف ستار في الخيمة اثناء هذه المراسم وتسمع كل شيء . ولكن ذلك نادراً ما يحدث . ولكي يطلق الرجل زوجته ما عليه إلا ان يقول أمام الشهود انه لا يريدها ويردد ذلك ثلاث مرات .

(١)

وتسبق الزواج فترة قصيرة تدعى « ملتشه » أو الخطبة تستمر احتفالاتها عدة ليال . وقد دعينا الى هذه الاحتفالات في يومها الثالث .

كانت الساعة السابعة مساء في احد أيام كانون الثاني سنة ١٩٣٩ عندما توجهنا الى منزل حمدة الذي كانت باحته مزدحمة بالنساء بعضهن محجبات والبعض الآخر سافرات . وكان المنزل مضاء بسراج معلق في وتد دق في الحائط . وادخلنا الى غرفة حمدة حيث قدمت لنا القهوة ثم جلسنا كلانا عند عتبة الباب تقريباً بينما أخذ فريق من « العبدوس » معظمهن عبدات كبيرات السن يضربن على الطبول وينشدن اغنيات تليق بالمناسبة مع الاشارة الى اسماء ولدينا سعود وزهرة .

ومن وقت لآخر كانت احدى الفتيات العربيات الموجودات ، وخاصة اذا كانت ملابسها أزهى من الاخريات ، تفك ضفائرها بخجل وتتقدم الى الحلبة أمام الباب وتؤدي رقصة من الرقصات . فاذا كانت من البوازم ترقص رقصة خاصة بالبدويات من البوازم . اما اذا كانت من أهل المدينة لابسة فستاناً قصيراً وجوارب قطنية فترقص كنساء المدن رقصة اثارة مع كثير من الهز والرهز وسط تهليل الحاضرين وتصفيقهم. هذا ما كانت تؤديه راقصات الدرجة الأولى. وكان بعض الفتيات يرقصن جيداً والبعض الآخر يتظاهرن بالخجل ويدعين بأنهن لا يعرفن الرقص .

ولوحظ غياب العروس التي قيل انها لجأت الى منزل الجيران . اما والدة العروس فكانت تصدر الاوامر فتجلس هذا وتدفع ذاك الى الخارج لأنه غير مدعو . ولم تهدأ طوال الوقت لحظة واحدة. ومن فترة لأخرى كانت ترش فوق

رؤوس الراقصات بـــذور البطيخ المجففة فيتدافع الاطفال الحاضرين لالتقاطها عن الأرض ويدوسون على كل من يأتي في طريقهم .

وبعد ساعة ونصف الساعة شاهدنا خلالها رقصات متعددة وكانت تأتي الينا حمدة تخبرنا من تكون هذه السيدة أو تلك أو ماذا تعني هذه الاغنية أو تلك ، قررنا الانصراف .

وبعد ثمانية ايام بالضبط جاءت ليلة الزفاف ودعينا ثانية لحضور الاحتفالات في منزل حمدة . وقد وعدت حمدة ان تعـــير سريرها الخاص الى ابنة شقيقتها وعريسها لمدة اسبوع . ولم تأت الى العمل ذلك اليوم لأنها انهمكت منذ الصباح الباكر بتنظيف الغرفة ونقل الامتعة والملابس منها واعدادها لتكون غرفـــة الزوجية . واستعيرت من عند الجيران حوالي ٢٠ مزهرية حمراء وزرقاء ووضعت في صفوف حول جدران الغرفة ، ووضعت بينها في فناجين قهوة شموع للاضاءة لأنه كما تقول حمدة ليس من اللائق اضاءة الغرفة بمصابيح النفط . وفرشت أرض الغرفة بمسانـــد واغطية من الحرير الازرق . وفوق سرير حمدة الكبير علقت ستائر بلون الزهر ربطت بشريط أزرق . وعلى السرير وضع فراش جديد فوقه لحاف جديد من القطن أحمر اللون قدمــه العريس حسب العادات العربيـة ، ووسائد محشوة جيداً ذات اغطية حريرية زرقاء على الجانبين ويغطيها في الوسط حزام قطني .

منذ الصباح الباكر كانت حمدة واحدى جاراتها مشغولتين باعـــداد موزا بنت فاطمة للعرس ، فغسلتـــا جسدها بالماء وشعرها باوراق السدر ووضعتا الحنة على يديها وقدميها ونثرتا « دهـن العروض » على شعرها وأخـــيراً عطرتا ملابسـها بأن وضعتا الملابس فوق موقد يحترق فيه البخور .

وقد أحضر والد العروس من حديقته سلة صغيرة مصنوعة من أوراق النخيل ملأى « بالمشمع » وهو نبات طيب الرائحة . وكان هذا النبات قد رش عليـه الماء ليحتفظ بحيويته وقبل بدء الاحتفال رش عليه ماء الورد ونثر تحت وفوق لحاف سرير الزوجية .

توجهنا الى المنزل في حوالي الساعة السادسة مساء فوجدنا الردهة مشعشعة بالضوء كما في السابق ومزدحمة بالنساء الى درجة الاختناق . واستقبلتنا والدة العروس وادخلتنا الى غرفة الزوجية لنراقب النسوة يرقصن خارج الباب . وظل الغناء والرقص مستمرين الى ان اعلن ان العريس قادم ، بعد ان توضأ وصلى في المسجد ، على رأس مجموعة من خمسين او ستين من اصدقائه وجيرانه واقاربه تسبقهم قافلة من المصابيح المشعشعة المرفوعة عالياً وخمسة أو ستة من قارعي الطبول فيما كان الباقون يرقصون على اصوات الطبول طيلة الطريق .

كان الواجب يقضي ان يزور العريس وصحبه اولاً « الاسطا » الاثري الذي قدم له هدية من المال ، لذلك مرّ الموكب عبر منزل حمدة وتوقف خارج منزل الاسطا أحمد الذي يبعد قليلاً .. وهناك قرعت الطبول ورقص الرجال مدة من الزمن لا تتجاوز العشر دقائق . تلك عادة قديمة وفي الاعراس الكبيرة يستغرق سير الموكب الى حيث يقصد عدة ساعات .

واخيراً وصل موكب العريس الى أمام باب منزل حمدة . وحدث في الداخل هرج لأن النسوة انهمكن في لبس عباءاتهن وتغطية وجوههن استعداداً للانسحاب الى غرفة اخرى ولكن بعضهن ممن كنّ شديدات التحجب بقين واقفات بجانب الحائط الخلفي في الباحة .

اضيئت الشموع في الغرفة فاسرعت بالخروج منها الى غرفة اخرى اراقب من نافذتها ما يجري وبقي زوجي لوحده داخل الغرفة لا يعرف كيف يتصرف . ثم دخل العريس وجلس على الأرض بجانبه . وهذا هو الوقت المتعارف عليه حين يختلي بالعريس اثنان أو ثلاثة من اصدقائه لاعطائه النصائح الاخيرة والارشادات فيما يتعلق بواجب العريس ليلة الزفاف ولكن نظراً لوجود هارولد هناك فان شيئاً من ذلك لم يحدث وترك الشاب الخجول لوحده مع زوجي .

في الخارج كان الرقص على اشده لا بل كان الرجال يرقصون على اصوات الطبول بحماس كبير فيما كان ماء الورد ينثر بسخاء فوق رؤوسهم . وفي داخل الغرفة التي كنت فيها كانت العروس مضطجعة على فراش وملتفة بعباءة قديمة ،

وكانت تبكي وتشهق طوال الوقت . ويجلس حولها عدد من صديقاتهـــا يحاولن ادخال السرور الى قلبها بالقاء النكات والتعليقات الوقحة مما كان يزيد في تعاستها . فبين وقت وآخر كن يخلعن عنها العباءة ويضعن ايديهن على قلبهـــا ويعلن انه يخفق بشدة .

كانت العروس تلبس فستاناً من الحرير تحت ثوب أسود مطرز بالذهب عنـد عنقه اما شعرها فكان مسرحاً تسريحة جيدة ومطلياً بالدهن والعطور ، وكانت راحات كفيها وقدميها مطلية بالحنة البرتقالية اللون .

عند الساعة التاسعة تفرق الراقصون واصدقاؤهم وذهب كل الى منزله ، واسرعت حمدة الى العريس لتهمس في اذنه الارشادات الاخيرة تمهيـداً لدخوله على عروسه . وعندما ادخلت العروس الى الغرفـــة طلب اقارب العريس من زوجي ان يخرج الى الردهة .

وغطيت موزا بعباءة واحاط بها اربع نساء كانت والدتها واحدة منهن ، وادخلنها الى الغرفة حيث نزعت عنها العبـاءة ووضعت على الأرض . وجاء العريس إلى حيث وضعت العباءة مواجهاً القبلة استعداداً لأداء الصلاة . وعندما انتهى من الصلاة بعد عدة دقائق خرج النساء من الغرفة بعد ان طبعت كل واحدة منهن قبلة على وجنة العروس ، وأغلقن البـــاب خلفهن وانفجرت شقيقة موزا الصغرى باكية وهرعت الى الباب وكأنها تريد ان تنقذها . ولكن والدتها التي كانت تبكي هي الاخرى ابعدتهـا عن الباب .

قبل ان يجامع العريس عروسه عليه ان يصلي على عباءتها. هذه هي القاعدة. ويجلس المدعوون في الباحة الخارجية او في الغرف الاخرى ينتظرون نجـــاح العريس في الدخول على زوجته .

ولم نرغب ان نبقى حتى منتصف الليل فانسحبنا مع أن الضيوف يرون ان هذه الفترة هي اهم مراحل الاحتفال .

وفي اليوم التالي قصت علينا حمدة كل ما حدث بعد مغادرتنا . فقالت انه عند منتصف الليل صدر عن العروس صراخ أدى بطبيعة الحال الى ابتهـــاج

الضيوف في الخارج . وبعد وقت قصير فتح البـــاب قليلا والقيت منه رقعـة مبللة بالدم .. ثم اغلق الباب ثانيـة . وهرعت والدة العروس فالتقطت الرقعة ودارت بها على الضيوف . وهذه عادة قديمة اذ يراد بها ان يثبت للمجتمعين في المنزل ان العروس كانت لا تزال عذراء .

وافترق الجيران والضيوف .

وقالت حمدة انه عند الفجر خرج العريس وغسل نفسه ثم ادى الصـــلاة وخرج من المنزل . وجاءت والدة العروس وصديقاتها اليها فغسلنها وألبسنها ثياباً جديدة واعددنها مرة ثانية لزوجها الذي سيأتي اليها في ساعة متأخرة من الصباح .

هنالك اوقات معينة في ذلك اليوم واليوم الثاني يدخـــل فيها العريس على زوجته . وفي مساء اليوم الثالث فقط تضع العروس كل حليها الذهبية وتأتي صديقاتها لتهنئتها . ولهذا الغرض ذهبنا الى منزل حمدة قبل ساعة من غروب الشمس في اليوم الثالث . ودعينا الى غرفة تمتلىء بالمهنئات حيث قدمت لنـا القهوة ورش علينا ماء الورد ثم احرق العوض وأدير على الجميع .

ودخلت العروس وركعت أمام كل واحدة من الحاضرات لتقبـــل التهاني بمناسبة زفافها . وكانت تبدو جميلة جداً وتختلف تماماً عما كانت عليه وهي تجلس باكية في زاوية الغرفة ليلة زفافها .

كانت ترتدي فستاناً حريرياً برتقالي اللون وفوقه ثوب أسود مطرز بخيوط ذهبية ، وعلى رأسها وشاح ذهبي اللون ذو شراريب ذهبية على الأطراف تـدلى من بعضها الصدف . وكان في أذنيها قرط ذهبي وفي أنفها خـــاتم من اللؤلؤ والصدف . وتدلى على صدرها فوق الثـوب عقد من السلاسل الذهبية . وتدلت على أسفل ظهرها قطع طويلة من القماش الاسود زينت باشكال تشبه الأحـواض المقلوبة مصنوعة من خيـوط ذهبية بارزة . اما معصماها فقد زينـــا بعدة أساور ذهبية ، وزين قدماها بخلخالين ذهبيين ثقيلين .

ومن سوء حظها ان كل تلك المجوهرات مستعارة من سيدات الشيوخ اللواتي يعطين مجوهراتهن لمدة ثلاثة أو أربعـة أيام لأية عائلة تطلبها . وتعاد المجوهرات

في الوقت المحدد ملفوفة بمنديل او قطعة قماش .

وبعد ذلك تعود العروس فتصبح امرأة عادية مرة أخرى . وبعــــد انقضاء سبعة أيام على الزفاف تقضيها في منزل والدتها (في حالة موزا في بيت خالتها) تعود العروس مع زوجها الى منزله .

ولم تطل حياة موزا الزوجية كثيراً اذ في نهاية عام ١٩٤١ مرض زوجها بعد وجبة من السمك وتوفي بعد اسبوع تاركاً لها طفلا صغيراً .

التزامات اجتماعية

سنذكر عبدالله بك الفالح باشا السعدون بانه الرجل الذي قتل عبدالله بن أحمد السنا حاكم بغداد سنة ١٩٣١ . فبعد اجتماعي به في البصره اثر اطلاق سراحه من السجن كنت ارسل لعبدالله بك بطاقتي تهنئة كل سنة . واحـــدة في عيد الفطر والاخرى في عيد الأضحى . وفيما عدا ذلك لم أكن اكتب له أو اتصل به . فكان يعيش في عزلة تامة لا يخرج إلا الى الصحراء الجنوبيــــة جنوب غرب الزبير كل ربيع مع عدد من اصدقائه للتمتع بالمراعي الخضراء والذهاب للصيد .

أما انـــه كان لا يزال يهتم بمصالح أفراد عائلة السعدون ، او انه كان على استعداد لمساعدة اي منهم ، فأمر يمكن استنتاجه من القصة التالية . ان سلوكه هذا في بلد يتغير دائماً كالعراق حيث الولاء والصداقات تتصادم دائماً ، هو الذي يجعل المرء يحبه .

في سنة ١٩٣٩ وصل الى الكويت من الرياض بـــدون معرفتي رجل يدعى بندر السعدون ومعه زوجته وولداه وابنته وطفل صغير . وكان بندر هذا شاباً عنيداً خدم مع الكولونيل ليتشمان في الصحراء خلال الحرب العالميـــة الاولى ورافقه في عدة رحلات قام بها في الصحراء. وبعد وفاة ليتشمان منحت السلطات البريطانية بندر تقاعداً بسيطاً . ولكن بعد تسلم الحكومة العربية زمام السلطة في العراق توقفت عن الدفع لجميع الذين خدموا وقـاتلوا مع البريطانيين . وكان بندر متصلفاً بحيث انه لم يبحث ان يضع شكواه في موضعها الصحيح فراح يلقي

الشنان ضد الحكومة العراقية وضد كبار المسؤولين البريطانيين في بغداد متهماً الحكومة بحرمانه من تقاعده لأنــــه ينتمي الى عائلة الـسعدون ومتهماً الانكليز بنقض عهودهم والتخلي عن اصدقائهم .

وفي النهاية انتقل بندر مع عائلته من العراق وذهب ليعيش تحت لواء الملك عبدالعزيز آل سعود نصير كل عربي واقع في شدة او مأزق . وعاش بندر هناك سنتين تلقى خلالها معاملة تناسب مركزه في الحيــاة . فالملك لا يخطىء ابداً في مثل هذه الحالات . وبعد ان قضى سنتين في النفي الاختياري ظن بندر ان الوقت قد حان ليعود الى العراق ويعرض شكواه . وفي الكويت قرر ان يترك زوجته وعائلته ويذهب الى العراق لوحده ليرى وضع البلاد عن كثب وما اذا كانت الأحوال ملائمة لتقديم شكواه ضد الحكومتين العربية والبريطانيــة . ولم يحاول ان يتصل بي قبل مغادرته الى العراق كما انني لم أعــــلم ان عائلته كانت لا تزال في المدينة . وأخشى ان يكون قد أصبح معادياً للبريطانيين .

ولكونه عنيداً ومتصلباً كعادته وقع بندر في مشاكل فور وصوله الى العراق ولكنني لم أعرف بذلك إلا بعد وقت . والظاهر انه ذهب الى السماوي ليستوفي بعض الديون ويستعيد سيارته التي صودرت عند ذهابه إلى الرياض فاختلف مع القائمقام واتهم باهانة الحكومــة وبعدم الولاء فدك بالسجن الى أجل غير مسمى بدون أية محاكمة . ولم يسمح له بالكتابة لأحد حتى لعائلته .

أما زوجة بندر في الكويت فلم تكن تتلقى أيـــة أنباء عن زوجها او عن مكان وجوده وبدأت تتعرض لضائقة مالية . وكان بندر قد وعدها بان يعود اليها بعد شهر ويأخذها معه . وبعد مضي شهرين على غيابه بدأت تشعر بالضائقة . واخلاصاً منها لمنزلتها وكبريائها فضلت أن تبيع مجوهراتها لتتخلص من المصاعب التي وقعت فيها . وعاشت على هذا المنوال شهراً ثالثاً رافضة أن تطلب مساعدة أي كان كما أبلغت زوجتي فيما بعد .

ولكن الصدمــــة كانت ستأتي لا مفر منها لا سيما وإن صاحب المنزل الذي استأجره لها بندر أخذ يلح في طلب ما تأخر عليها من ايجار . ولــما يئست بعد

إن حرمت وأولادها الطعام لعدة أيام قررت ان ترسل ولديها علي ومحمد طالبين المساعدة مني ومن زوجتي . وكان الولدان يبلغان العاشرة والثامنة من العمر على التوالي ، تبدو عليهما الأناقة وحسن المظهر . واخبرنا الولدان قصتهما ومطلب والدتهما ولكن بكل تردد وخجل . وقالا ان والدتهما تلقت أنباء سرية تفيد ان والدهما سجين في السماوى . وسألاني اذا كنت استطيع ان اعطيهما ثلاثماية روبية يعيدانها فور عودة والدهما .

وأضاف علي بشجاعة انه سيستخدم مئة روبية من المبلغ المقترح ليتوجه الى بغداد لمقابلة الملك غازي . وقال انه واثق بانه يستطيع حمل الملك على إطلاق سراح والده .

وصعقت أنا وزوجتي لدى سماعنا هذه الاخبار فذهبنا مع الولدين لزيارة والدتهما . وبقيت أنا في احدى الغرف بينما دخلت زوجتي لمقابلة السيدة التي كانت لا تزال في مقتبل العمر وجديرة بتحمل المسؤوليات . واحبتها زوجتي كثيراً وعلمت منها تفاصيل حالتها ووضعها . وكان لديها خادم وخادمة ولم يكن في المنزل أي طعام على الاطلاق .

وتركنا لها مبلغاً من المال يكفيها شهراً آخر كما انني دفعت ما تأخر عليها من ايجار ونقلت الى الشيخ احمد ما عرفته عن وضع هذه العائلة فتأثر كثيراً وأمر فوراً بارسال كيسين من الأرز وكيساً من الطحين وعدة سلال من التمر الى السيدة لسد حاجة عائلتها .

وفي اليوم التالي جاءني محمد ليبلغني ان شقيقه علي سافر الى البصرة ومنها الى بغداد برفقة الخادم مستخدماً بعض المال الذي اعطيته لوالدته . كان ذلك مجهوداً شاقاً على الصبي يستحق النجاح .

وبعد شهر من الزمان تلقينا رسالة من علي يقول فيها أن الخادم تخلى عنه وهرب في الطريق الى بغداد وأن علياً قابل الملك ووعده بالنظر في القضية . وفي طريق عودته عرج علي على السماوى وقابل والده لعدة دقائق . وبقي الفتى ينتظر إطلاق سراح والده عند جده فهد بك السليمان السعدون في أملاكه قرب

الناصريه . ونقلت هـذه الأنباء الى زوجة بندر التي كانت في حالة سيئة من اليأس لأنها لما لم تتلق إنباء من ولدها ظنت أنه سجن مع والده .

وقد عملت جاهداً بعد مقابلتي الأولى للسيدة ان أعرف من هم أقرب أقرباء زوجها . وكتبت لثلاثة من هؤلاء في البصرة وكلهم ذوو مكانة وبحبوحة ، طالباً منهم إما ان يرسلوا لزوجة بندر أموالاً لإعالتها واعالة أطفالها ، واما ان يأخذوها الى البصرة لتعيش معهم . وقلت في الرسالة انـه من غير المعقول أن تترك إحدى سيدات آل السعدون لتموت جوعاً في أرض غريبة .

ولم أتلق جواباً من أحد . فلكونهم انتهازيين يسايرون الظروف ، يبـدو أنهم خافوا مغبة مساعدة زوجـة وأطفال احـد أفراد عائلتهم ممن وضعتهم الحكومة على لائحتها السوداء . ولا شك أنهم وجدوا من الأمن ان يتنكروا لصلات القربى .

ولجأت بعد ذلك الى صديقي الشيخ فرحـان الرحمن من هرزده الذي كان مساعدي في البحرين ، طالباً منه أن يستخدم نفوذه مـع أقارب بندر ويشرح لهم الوضع . وعمـل الرجل جهده واتصل بهم جميعاً ولكن دون جدوى . واعتقد أنه اتهمهم وجهاً لوجه بالجبن والخيانة .

وأخيراً خطر ببـالي اسم عبدالله بك الفالح باشا السعدون في كثيبان . فكتبت له رسالة ضمنتها كلاماً هادئاً رصيناً شرحت فيهـا كل الظروف وحثثته على تقديم المساعدة لامرأة بائسة من عشيرته حفاظاً على شرف آل السعدون .

ولم تكن لعبدالله بـك صلات قربي وثيقة ببندر او بزوجته ومـع ذلك استجاب لندائي على الفور . فقد أرسل عبدالله بك إليّ خادمه الزنجي في سيارة خاصة حاملاً إليّ رسالة وكيساً فيه ثمانمائة روبيـة . وتضمنت الرسالة عبارات رقيقة يشكرني فيها لعنايتي وعناية زوجتي بزوجة بندر وأطفاله . وقال ان زوجة بندر سيدة جليلة عظيمة القدر وان اعترافنا بهذا الامر ملأ قلبه سروراً لان تكريمنا للسيدة هو تكريم له بصفته زعيم آل السعدون .

وجاء في رسالة عبدالله بك قوله :

- لو كان كل الأوروبيين في العراق يفكرون ويتصرفون مثلك ومثل السيدة ديكسون لتجنبنا كل الافكار الخاطئة وسوء التفاهم الذي حدث في الماضي .

وطلب مني ان أبلغه في أي وقت عن حاجتي لمزيد من المال ورجاني ان ألجأ إليه وحده ووحده فقط في طلب المساعدة . وزف إليّ نبأ ساراً يفيد ان بندر سيطلق سراحه قريباً وانه تلقى وعداً من الملك بذلك .

ومر شهر قمنا خلاله بعدة زيارات لزوجة بندر . وبعد ذلك جاء بندر نفسه ومعه ابنه علي وكانت فرحة العائلة بجمع الشمل عظيمة جداً . وترك بندر عائلته في عهدتنا وتوجه الى الرياض ليقدم احتراماته الى الملك عبد العزيز ثم عاد وأخذ زوجته وأطفاله الى الرياض مرة ثانية . واعتقد انه عاد ثانية الى العراق ولكنني لست متأكداً من ذلك .

إن موضوع هذه القصة بالطبع هو كيف ان عبدالله بك خف للنجدة حيث تخلف كل الآخرين . وذلك يظهر أي نوع من الرجـــال هو ، وان الالتزامات الاجتماعية والشجاعة ليست مجرد كلمات فارغة بالنسبة له . وانا من جهتي سأظل حافظاً لجميله واثقاً من ان الآخرين عندما يقرأون ما كتبته عنه سيكونون فكرة أفضل عن هذا الزعيم العظيم في عائلة السعدون .

أسنان عبدالله بن حجي

عمل عبدالله بن حجي خادماً لدى أربعــة من شيوخ الكويت . وفي الوقت الذي كتبت فيه هذه القصة كان مسؤولاً عن دروازة البريصي (اسمها اليـــوم دروازة الشعب) وهي ثاني اهم بوابة للخروج من الكويت . وكان عبدالله وزوجته فاطمة صديقين من أعز أصدقائنا : فعندما كنا نخرج لركوب الخيل ، كنا نرسل جيادنا الى بوابة البريصي ونتوجه الى هنالك بالسيارة فنوقفها أمام منزل عبدالله حتى عودتنا . ولدى عودتنا كنا نترجل عن ظهر الخيل داخل البــوابة ونجلس على الأرض نتحدث مع عبدالله وفاطمة زهاء نصف ساعة في ظل منزلهما الصغير .

كان عبدالله رجــلاً شهماً مضيافاً وكانت قهوته افضل قهوة في الكويت بعد

قهوة سمو الشيخ أحمد . ان له طريقة عجيبة في المرح ، فإذا كان المرء متعباً قلقاً من شؤون هذا العالم فما عليه إلا ان يقضي ربع ساعة مع عبدالله فيزول الغم عن نفسه وتتبدل نظرته الى الحياة كلياً ويخرج سعيداً طارداً كل الهموم .

لقد كان عبدالله يحمل في رأسه مخزوناً هائلاً من النكات ويتكلم بلغة عربية نجدية جميلة .

فقد أبلغني ذلك العالم العظيم الدكتور فان ايس في البصره ان لغة عبدالله بن حجي العربية هي لذة للسامعين وهي أفضل ما سمعه في حياته . وكانت فاطمة تضاهيه مرحاً وجاذبية واخلاصاً له . وكان لفاطمة طفلان بالتبني هما : جاسم ابن أخيها ومنيره ابنة اختها ، اذ لم ترزق هي أطفالاً .

كانت فاطمة تجلس دائماً قرب زوجتي في الوقت الذي كان يتحفنا فيه عبدالله بقصة من القصص بعد تناول القهوة . وعندما يرغب في اغاظة فاطمة يكون موضوع حديثه الفتاة التي سيتخذها زوجة ثانية له. فكانت فاطمة تنهض لتدافع عن نفسها وتقول ان اللوم في عدم انجاب الأطفال يقع على عبدالله .

– ألم تكن له زوجة قبلي منذ ست سنوات ؟ فلماذا لم تنجب له الاطفال ؟ والجميع يعرفون انها لما طلقها تزوجت غيره وانجبت خمسة أطفال في خمس سنوات فاذا لم يكن ذلك برهاناً على صدق كلامي فماذا يكون إذن ؟

في سنة ١٩٣٩ ذهبت فاطمة مع شقيقها والأولاد الى الحج في مكة حيث مكثت اربعة أشهر انتاب عبدالله خلالها مرض شديد . ولولا مساعدة الدكتور ميلري من الارسالية الأميركية وزوجته اللذين كانا يزورانه يومياً ويرغمانه على تناول الطعام ويشرفان عليه بغياب فاطمة، لا أعتقد انه كان سينجو من وطأة المرض . وقال الدكتور ميلري انه يعاني من حمى في الامعاء . ولكن لما انتقل الدكتور ميلري وحل الدكتور تومس محله تبين لهذا الأخير ان مرض عبدالله ناجم عن أسنانه التي أمره بخلعها جميعها .

واجريت هذه العملية فجأة وكم كانت دهشتنا عندما رأينا صديقنا لأول مرة يخرج من منزله الصغير لملاقاتنا بدون اسنان ويبدو عجوزاً متهدلاً . وبادرنا

بقوله عندما رأى علامات الدهشة ترتسم على وجوهنا :

– لا بأس .. لقد اوصيت على طاقم اسنان جديد عند عباس الفارسي سأصبح بعده ولداً من جديد . وعندما تعود فاطمة من الحج سيزداد اعجابها بي .

وفي الوقت المحدد وضع عباس لعبدالله اسنانه الاصطناعية لقاء ٣٥ روبية ولم يكن عبدالله يضع اسنانه في فمه إلا عندما لم يكن يأكل .

وقال لي مرة :

– لماذا يا صاحب السعادة لا تظن انني يجب أن ألبسها عندما آكل ؟ لقد صنعتها لأبدو شاباً لذلك أخلعها عندما أتناول الطعام .

وعبثاً حاولت ان اشرح له انه بامكان المرء أن يأكل على أسنانه الاصطناعية تماماً كما يأكل على أسنانه الطبيعية . وكان جواب عبدالله دائماً :

– لقد فعل عباس حسناً . انه في الواقع طبيب أسنان ماهر فهو لم يتقاض سوى ٣٥ روبية لقاء طاقم اسنان كامل . ماذا أريد أكثر من ذلك ؟ فعندما رآني الشيخ ذلك اليوم اوقف سيارته وصرخ قائلاً : مرحباً يا عبدالله .. ها قد عدت شاباً .. ماذا فعلت بنفسك ؟ انني أسأل سعادتك الا يساوي كل شيء في الحياة ان يسمع المرء مثل هذا الكلام ؟..

وعادت فاطمة من الحج وكان استقبالها عظيماً فذرفت دموع الفرح . وقد زين عبدالله المنزل بهذه المناسبة ودعا الى المأدبة تلو المأدبة على شرفها .. اوليست هي « نور عينيه » .. او لم يعد ولداه بالتبني لتسليته ؟

ولكن عندما استقرت فاطمة وارتاحت من عناء السفر والاستقبال أخبرت كيف ان زوجها مرض في غيابها واقتلعت جميع أسنانه . كانت صدمتها عنيفة عندما رأت الاسنان الاصطناعية .. فقالت :

– أي مجانين هم الرجال ! ولا شك في أن زوجي عبدالله أكثرهم جنوناً على الاطلاق !

فكان هو يضحك لهذا الكلام ويقول مازحاً :

ـ اسمع ماذا تقول . انها تخشى ان اتخذ لي زوجة أخرى .

وعندما عدت مع زوجتي من زيارة لسورية عام ١٩٤٢ توجهت لتحية عبدالله عند البوابة وقلت له مازحاً ان امامه فرصة بعد لأنني قابلت رجلاً في شتورا يبلغ من العمر اكثر من مائة وثلاثين عاماً وله احفاد احفاد الاحفاد ومع ذلك فقد نبتت له اسنان حليب من جديد ولكنه ككل الرجال المتقدمين في السن له عقل طفل .

وهمس عبدالله في أذني غامزاً بعينه :

ـ بربك لا تخبر فاطمة بذلك لأنني لن اسمع نهاية ما تقول إذا فعلت .

ولسوء الحظ كانت فاطمة تصغي الى ما اقول من وراء الستار . وعندما عدنا من ركوب الخيل ودخلنا منزلها لتحيتها ولنشرب القهوة بادرتنا بقولها :

ـ ألم أسمع ما قلته يا أبا سعود ان الرجال عندما يكبرون في السن تصبح عقولهم كعقول الاطفال ويحتاجون الى شرب حليب الأم كالاطفال الذين يولدون حديثاً ؟ ألم أسمع من فمك ان الرجل إذا فقد اسنانه فما عليه إلا ان يتعلق بحبال الصبر لأنها ستنمو من جديد ؟ متى تظن يا أبا سعود ان اسنان عبدالله الجديدة ستنبت ؟ لا شك انه أوشك ان يصبح خرفاً .

واصابت هذه الكلمات من عبدالله مقتلاً فقال وهو يشعر بحرج :

ـ لا تصغي إلى كلام إمرأة مجنونة . في الحقيقة ان هذيان المرأة هو الذي يجعل الرجل قبل كل شيء يشيخ قبل اوانه . ربما لم تسمع بقصة التاجرين اللذين تنازعا مرة فنقلا نزاعهما لحله عند ثلاثة اخوة من العلماء يعيشون في منزل واحد؟ فإليك القصة .

« تنازع تاجران شابان حول مسائل تجارية ولكن بدل ان يتشاجرا قررا عرض النزاع على عائلة من ثلاثة سادة كبار يعرفون بقوانين الشريعة . وذهبا لزيارة العلماء في منزلهم . واستأذنا بالدخول فاقتادهما الخادم الى اصغر العلماء الثلاثة سناً وهو رجل متقدم في السن ذو لحية بيضاء . فسألهما عن غرضهما ولما ابلغاه قال لهما بأدب يقطر حياء :

– أنا أصغر الثلاثة سناً وليس من اللائق ان احاول حل قضيتكم . أرى من الأفضل ان تذهبوا الى اخي الثاني .

« وعمل التاجران بنصيحته فوجدا العالم الثاني اكبر سناً من الاول واكثر منه تهدلاً . واجابهم هو الآخر بانه نظراً لوجود شقيق ثالث اكبر فمن اللائق ان يستشيراه في نزاعهما . وقال لهما ان حله سيرضيهما .

« ودب فيهما الفضول لمعرفة اي نوع من الرجال هو كبير الثلاثة فتوجها نحو غرفته وقرعا الباب . وفتحت لهما خادمة صبية جميلة ذات إغراء وإصبعها على شفتيها إشارة منها لهما ان لا يحدثا صوتاً لأن سيدها يغط في النوم .

« وعند ذلك زادت دهشتهم فدخلا غرفة العالم النائم حيث جلسا على اريكة . ثم التفتا فوجدا ان الصبية الحسناء قد عادت الى حيث كانت فوق رأس سيدها ورفعت رأسه الى ركبتها بلطف وبدأت تحرك له الهواء . وقد ادهشهم أكثر من أي شيء آخر وجه الرجل النائم . فبدل ان يريا رجلاً طاعناً في السن مقعداً وجدا رجلاً بهي الطلعة في مقتبل العمر وله لحية سوداء .

« وتحرك العالم قليلاً ثم نهض من نومه وفتح عينيه وجلس في فراشه فابتسم لهما وقال :

– ماذا تطلبان أيها الصديقان .

« واجابه التاجران المشدوهان انهما قدما لحل نزاع بسيط عند واحد من الاشقاء الثلاثة ، وانهما اقتيدا الى الأخ الأصغر وهو رجل مسن مقعد ثم احيلا على الشقيق الآخر وهو رجل ذو لحية بيضاء وعلى حافة قبره ، وأخيراً ارسلا اليه ظناً منهما انه تعدى المئة عام من العمر . ولكنهما وجداه شاباً وسيماً فصيح اللسان تقوم على خدمته صبية حسناء . وقالا انهما نسيا نزاعهما تماماً وكل ما يطلبانه منه هو تفسير ما وقع عليه نظرهما . واجابهما العالم مرحباً :

– يا صديقيّ اتخذا مثلاً حياً من رجل فنوع اكتشف ان الطريق للابقاء على الشباب في هذه الحياة هي ان يتخذ المرء لنفسه زوجة صبية حسناء تكون قبل كل شيء حساسة ذات ذوق سليم ومتفانية ومحدثة لبقة يسر كلامها السامعين .

فقد كان لي مرة زوجة ثرثارة تهذي في الليل والنهار فطردتها بسرعة . اما شقيقاي الاصغر مني سناً فقد عجزا كما رأيتما وخرفا لا لشيء إلا لأن زوجتيهما ثرثارتان لا عمل لهما إلا الكلام السخيف في الليل والنهار . ان نفسيهما لم تعودا ملكاً لهما فقد اصبحا عبدين لشريكتيهما الثرثارتين ووصلا الى اسوأ حالة يمكن ان يصل اليها انسان . وهما الآن يخشيان ان يتخلصا من الحجرين الثقيلين المعلقين في رقبتيهما . فنصيحتي لكما ولكل الرجال الراغبين في السعادة والاحتفاظ بالشباب ان يطلقوا المرأة في اللحظة التي تصبح فيها كثيرة الكلام والتدخل في شؤون زوجها . ارمها في الحال وابحث عن الهدوء والسلام مع أخرى تخدمك وتدخل السرور الى قلبك في الليل وفي النهار .

دوكان اعجاب التاجرين بهذا الجواب شديداً بحيث انهما غادرا المنزل بصمت بعد ان نسيا نزاعهما والاسباب التي ادت اليه .

وهنا التفتت فاطمة بضراوة نحو عبدالله واتهمته بأنه رجل شرير يحمل بين ضلوعه قلباً اسود يقصد السوء . وقالت :

– لا تصدقا كلمة مما قاله يا أم سعود ويا أبا سعود . ان عبدالله بدأ مؤخراً يلقي شباكه حول فتاة جميلة من العوازم مخيمة مع عشيرتها قرب نقره ، وهو يبحث عن حجة للتخلص مني .

وطمأنتها بقولي :

– لا تخافي يا فاطمة . ان اية امرأة لا ترضى بعبدالله بدون اسنانه اما اسنانه الاصطناعية فلن تخدع أحداً . واذا طلقك لا سمح الله فاننا لن نشرب قهوته مطلقاً . وانت يا عبدالله انتظر حتى تنبت اسنانك من جديد قبل ان تفكر بالاقدام على الزواج من جديد .

وضحكنا جميعنا ضحكات متواصلة .

المرأة التي عطست

وهذه قصة حقيقية أخرى رواها لي عبدالله بن حجي .

كان يعيش في حي المرقاب بمدينة الكويت بائع تبغ فقير وزوجته يتمتعان بتقدير الجميع واحترامهم . ولكن الزوجة كانت ثرثارة الى حد يدفع زوجها نحو الجنون احياناً . ومع ذلك كانا زوجين سعيدين يتمتعان بسمعة عطرة . وكان الرجل ظريفاً صاحب نكتة ، الأمر الذي كان يزيد في مبيعاته لأن الجميع يحبون الرجل المرح الذي يأخذ ويعطي .

وذات يوم اصيبت زوجته بزكام شديد جعلها تعطس كثيراً مما دفع زوجها الى فقدان صوابه . وتحمل ذلك بعض الوقت ولكنه انفجر عندما فاجأته زوجته بعطسة عنيفة من خلفه دون ان يراها .

فصرخ بها مازجاً الغضب بالمزاح :

– يا حرمه يرحمك رب الكلاب والقحاب .

وهنا صرخت الزوجة متهمة زوجها بالكفر والأهانة وامسكت بعصا في متناول يدها وانهالت بها ضرباً على رأس زوجها . وخرجت من المنزل مسرعة قائلة انها لن تعود لتكون زوجة رجل يقرن اسم الله بالكلاب القذرة والمومسات .

واستخدمت عائلتها كل مهارتها لتشرح لها ان الله هو اله جميع المخلوقات بما في ذلك الكلاب والنساء المهجورات والخنازير والاشياء القذرة . وبعد جهد جهيد اقتنعت المرأة ان تعود لزوجها الذي لم ينس رأسه المشجوج ولكنه اطبق فمه وكبح لسانه .

الباشا التركي يشتري فرساً

في الأيام القديمة عندما كان العراق مقاطعة من الامبراطورية التركية كان يعيش في البصرة باشا تركي (على حد قول عبدالله بن حجي) يدير لواء البصرة . وكان الباشا مولعاً بتربية الخيول يبحث دائماً عن حيوان أصيل يضمه الى اسطبله. ولكن نقطة ضعفه انه يرغب في الحصول على خيوله بشكل هدايا بدون ان يدفع ثمنها . ويعطي هاديه مقابل ذلك الحماية والرضا وهي عادة تركية

قديمة .

وذات يوم توجه شيخ شاب من شيوخ المنتفق على مهر جميل الى البصره ليقدم احتراماته للباشا في مجلسه الصباحي . وترجل الشيخ عن فرسه وربطها أمام السراي في ظل شجرة توت ، فرآه الباشا من النافذة التي كان يجلس بجانبها. وبعد ان دخل الشاب الى المجلس وقدم احتراماته وشرب القهوة ، لمح الباشا الى الفرس وسأله ما اذا كانت أصيلة .

وأجابه الشيخ بقوله :

ــ أطال الله عمرك انها حمدانية أصيلة تنحدر من عائلة نملكها طيلة الأجيال العشرة الماضية .

وهنا قال الباشا :

ــ آه .. انها للبيع اذن .

وصدم الزائر قليلاً .. ولكن قصده بالمجيء الى البصره كان لعرض قضية أمام الباشا تتعلق بالأرض بأمل في ربحها ولذلك اجابه بقوله :

ــ يا سعادة الباشا انها لك مع انني لا ابيعها لغيرك بأقل من ثلاثمائة ليرة تركية واعتقد انني لا ابيعها حتى بمثل هذا الثمن .

والمتعارف عليه بين العرب انه عندما يقدم رجل هدية لشخص مهم كحاكم الولاية مثلاً ، يتلقى مقابل ذلك هدية اثمن منها . ولذلك بعد ان اشار من طرف خفي الى ما يتوقعه من الباشا شعر الشيخ بسعادة تغمره وطلب من الباشا ان يرسل احد خدمه ليقتاد الفرس . ثم نهض لمغادرة المجلس ورد الباشا عليه التحية بقوله :

ــ عفارم عفارم عفارم .

وهذا تعبير تركي يعرفه العرب جيداً ويقصد به الباشا ان زائره رجل طيب يستحق النجاح .

ترك الشاب فرسه في عهدة خادم الباشا وحمل السرج وعاد الى الخان الذي يقيم فيه في العشار ، احدى ضواحي البصره . وبعد اسبوع ، وكأن شيئاً لم يحدث ،

قام الشيخ بزيارة ثانية للباشا في مجلسه الصباحي فاستقبله استقبالاً حاراً واجلسه في مكان لائق حيث قدمت له القهوة ثلاث مرات كالمعتاد. ولاحظ بقية الزائرين الحفاوة التي قابل بها الباشا ضيفه فظنوا انه شيخ ذو منزلة رفيعة من شيوخ عنيزه أو شمّر .

وقال الباشا وهو يودع زائره :

– تعال ثانية يا صديقي .

وبعد أربعة أيام عـــاد الشاب الى زيارة الباشا ولكن شيئاً لم يحدث فأخذ يتردد على السراي يوماً بعد يوم الى أن بلغ مجموع زياراته اثنتي عشرة زيارة . ولما لم تظهر بوادر الحصول على هبـــة مقابل فرسه ، لجأ الشيخ إلى الخداع بأن عرض قضية الأرض التي جاء بصددها . ومــع ذلك لم يحدث اللهم إلا الترحيب الحار الذي كان يلقاه من الباشا ساعة قدومه .

ولما يئس الشاب فكر في خطة لنيل مأربه . فذهب إلى سوق البصرة الكبير واشترى من تاجر قماش معروف كان يراه في مجلس الباشا ، أثوابـــاً من الحرير بقيمة ثلاثمائة ليرة تركية . وطلب ان ترسل البضاعة الى الخان الذي ينزل فيــه في العشار فوافق التــاجر مبتسماً ظناً منه ان الشاب صديق حميم للباشا وذو مكانة رفيعة .

وبعد مرور عشرة أيام ذهب التاجر بنفســه الى الخان ليطلب حسابه بنفسه فاستقبله الشيخ بالترحاب قائلاً :

– عفارم عفارم عفارم .

وسأله التاجر :

– مــاذا تقصد ؟ انني لا أفهم . لقد جئت أطلب ثمن البضائع التي اشتريتها مني وتستقبلني بقولك « عفارم عفارم عفارم » .

وهنا قال الشاب ضاحكاً :

– اذهب واسأل الباشا ما معنى ذلك فهو يشرح لك أطال الله عمره .

وذهب التاجر الغاضب الى الباشا وأخبره القصة وقال :

ـ كل ما أريده هو ان تعاد إليّ أموالي .. إنني لست أفهم ماذا يقصد هذا الشاب بقوله « عفارم عفارم عفارم » .

وفكر الباشا لحظة ثم أبلغ التاجر ان يعود الى حانوته قائلاً :

ـ يا صديقي ، والله انك ستستعيد بضائعك او قيمتها البالغة ثلاثمايــة ليرة تركية . اذهب بسلام .

واستدعى الباشا محاسبه وقال له :

ـ اذهب بسرعة الى صديقنا الشيخ ، وضع في يده ثلاثماية ليرة تركية وقل مرتين بعد ان تحييه « عفارم عفارم عفارم » انك أذكى ممــا كان يظن صديقك الباشا . فهو إذ لم ينس دينك له يطلب منك ان لا تنسى دينك لتاجر القماش . عد الى بلادك بسلام .

وقبل الشيخ المبلغ بكل سرور ثم أعاد في الحــال أثواب الحرير الى صاحبها متذرعاً بأنه لم تعد له حاجة بها وطلب من التاجر ان يقبلها مع الاعتذار .

وأضاف قائلاً :

ربما أراد الباشا ان يشتريها منك .

اليهودي والنبي

قال عبدالله بن حجي ونحن نحتسي القهوة في حديقته :

ـ واعلم يا أبا سعود انــه ليس جميع اليهود في العالم أشراراً . فقد رأى الله برحمته الواسعة أن يجعل قلوب بعضهم رقيقة وقد أرشد أكثر من واحد منهم عن طريق رسله الى جادة الصلاح . ان رحمة الله واسعة .

« إن القصة التالية المعروفـــة لدى المسلمين تؤكد لسعادتك انني أقول الحقيقة .

« في زمن الرسول ﷺ ، كان يعيش في مكــة بجوار منزل الرسول يهودي يدعى خيبر . وكان هذا اليهودي عنيداً متعصباً كغيره من اليهود ولا يقيم وزنــاً لأي ديانة غير ديانته . وتطاول أكثر من ذلك إذ حاول بكل وسيلة ممكنة ان

يوجه الاهانات الى اتباع الدين الاسلامي الجديد ويوجه اذاه بصورة خاصة الى مؤسس هذا الدين .

« وكان يعرف انه عندما تحين ساعة الصلاة كل يوم يخرج رسول الله من منزله ويمر أمام منزل خير في طريقه الى المسجد ، فخطر لليهودي ان أفضل طريقة لإيذاء مشاعر الرسول وصحبه هي ان ينثر أمام باب الرسول أوساخ عائلته لكي يدوس عليها فيلوث نفسه قبل دخول المسجد .

« وأبلغ خدامه أيضاً ان يجمعوا يومياً الاوساخ التي يجدونها على سطح منزله وفي مرحاضه وينثروها في الطريق أمام باب الرسول . وبعد ان فعل ذلك صعد ليراقب من نافذة غرفته في الطابق العلوي كيف سيستقبل الرسول الاهانة .

« وخاب فأل اليهودي خير لان الرسول كلما خرج الى الشارع يرفع رداءه عالياً لكي لا يلوث ويتنقل بعناية بين الاقذار المنثورة في الطريق ويتوجه الى المسجد للصلاة . ولكن صحب الرسول غضبوا من هذه المحاولات الشائنة لإهانة سيدهم ولم يتمكنوا من كبح جماح أنفسهم . وبعد عدة أيام دخلوا في نقاش حاد مع الرسول قائلين :

— « لماذا لا تتكلم وتأمرنا بأن نذهب الى هذا اليهودي اللعين ونؤدبه او على الاقل نأمره بوقف هذه التصرفات غير اللائقة ؟

« فوبخهم الرسول قائلاً :

— « يا أولادي ان خيراً اليهودي جاري ، وواجب الانسان الاول بعد الله أن يعامل جاره بالحسنى . دعوه وشأنه فالله يحاسبه .

« ولما ألح صحبه في الاحتجاج مستفهمين عما يقصده بواجب الأنسان الاول قال الرسول :

— « يا اتباعي بعد ان يعمل المرء بمشيئة الله هنالك ثلاثة واجبات مفروضة على كل مسلم يمكن تلخيصها بهذه الكلمات : « جارهم ثم جارهم وجارهم »

« ويقصد بذلك ان واجب الانسان الاول وحتى الثاني والثالث هو تجاه جاره . ودهش صحب الرسول لقوله هذا وتهامسوا فيما بينهم .

« وكرت الايام ولم يكف اليهودي يوماً واحداً عن اساليبه الشريرة ولم يشعر مرة بالخجل مما يفعل . امـــا الرسول فلم يتأثر من جهته واستمر في أداء صلاته اليومية ، ولم يظهر منه اي شيء إن بالقول او بالفعل يدل على تضايقه من اليهودي المتعصب الارعن .

« وبعد مرور فترة من الزمان مرض اليهودي خير مرضاً شديداً . ولاحظ الرسول ان الاوساخ لم تعد توضع امـــام بابه فاستفهم من صحبه عن السبب . وابلغوه ان خيراً طريح الفراش وعلى وشك مفارقة الحيـــاة . وحزن الرسول لهذه الانباء وامتلأ قلبه اسى وقال :

— « مسكين .. مسكين يجب ان نصعد اليه ونرى ماذا يمكن ان نفعل من أجله ؛ اليس هو جارنا ؟ اذهبوا أيها الأصدقاء وبلغوه تحيات محمد واسألوه ما اذا كان باستطاعتي ان أؤدي له اية خدمة .

« ولم يطق الرسول الانتظار حتى عودتهم فدخل بنفسه الى منزل خير وطلب ان يرشدوه الى غرفة المريض .

« ولما وقع نظر الرسول عليه قال له :

— « كل ما أملك وكل ما تطلب في مرضك يا صديقي هو لك . اطلب مـا شئت وأنا احضره لك وليشفك الله .

« وحدق الرجل المريض بوجه رسول الله وقد بلغت به الدهشة حداً كبيراً وتمتم بشفتين ضعيفتين مرتجفتين قائلاً :

— « ألست انت الدجال المدعو محمد الذي يعيش بجوار منزلي ؟ الست انت الرجل الذي لم اكف طيلة الأشهر الماضية عن محاولة الاساءة اليه بطرح الاوساخ والأقذار أمام بابه ؟

« وقال الرسول :

— « نعم يا صديقي أنا هو . ولكن الأشياء التي تذكرها ليست شيئاً عندي وقد نسيتها كلها . اما الآن فقد اتيت بالحقيقة لخدمتك ولأفعل ما بوسعي لإنقاذك من مرضك . قل ما هي مطالبك ؟

اصيب خير بدهشة فائقة اذ اغمض عينيه فترة طويلة من الوقت . وعندما فتحها ثانية كانت الدموع تترقرق فيها وبدت على وجهه أسارير سعادة رجل فتحت في وجهه ابواب الجنة وظهر عليه مجد الله . وقال خير للرسول :

ـ « اقترب مني يا رسول الله »

ولما اقترب الرسول منه اعلن خير بصوت عال يفيض بالبهجة قائلا :

ـ « اشهد ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله » .

« وبعد ان اعلن اسلامه اسلم الروح ونزلت ملائكة السماء . وبعد غسله وتدثيره بملابس جديدة نقل جثمانه ودفن في المقبرة الاسلامية بمكة حيث لا يزال قبره يكرم الى الآن .

« بهذه الطريقة وبقوة من عند الله تحول خير اليهودي الى الايمان الصحيح واصبح اسمه مباركاً في كل زمان عند المسلمين . وتخليداً لذكره يقول المسلم عادة بعد انتهاء صلاة الصبح « يا الله صباح الخير » لكي يتذكر تحول اليهودي خير الى الاسلام .

ان هذه القصة تفقد كثيراً من معانيها عندما تروى بالانكليزية . ولكنها تكون رائعة عندما يرويها عبدالله بن حجي بلسانه العربي الفصيح .

شفاء سعود بن عقاب

لنا صديق بدوي آخر من عنيزه اسمه سعود بن عقاب يعمل حارساً في شركة النفط . وكان رجلا طيباً في الخامسة والثلاثين، قدمه الينا صاحب السمو الشيخ أحمد . وفي تلك الأيام كان جميع الحراس تحت امرتي مباشرة . وكان مركز سعود في الحراسة محطة ضخ الماء القديمة التي تبعد ميلاً واحداً الى الجنوب من شعيبه على الساحل . وعندما كنت انا وزوجتي نمر لزيارته كالعادة لنشرب عنده فنجاناً من القهوة ، لم يكن يسمح أن يضيفنا في الكوخ المخصص للحارس بل في خيمته السوداء القريبة التي يقطن فيها مع عائلته . تلك كانت مسألة اعتزاز بالنسبة له تسرنا نحن ايضاً .

وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٩ أخذ الحارس سعود يشكو من صداع شديد تبعه ضعف في النظر. ولما لم نكن نستطيع تخفيف المه بواسطة اقراص الاسبيرين، حملناه معنا في سيارتنا الى الكويت وادخلناه مستشفى الارسالية الاميركية. وعمل الدكتور ميلري جهده لمساعدته واعتنى به عناية فائقة ولكن دون جدوى. وبعد عشرة أيام ابلغني الطبيب ان ما يشكو منه الرجل هو اضطراب في الدماغ.

وازدادت حالته سوءاً مما اضطر الدكتور ميلري الى تخديره معظم الوقت لينقذه من الألم الشديد الذي كان يعاني منه. وفي صباح أحد الأيام توجهت الى المستشفى حيث اخبرني الدكتور ميلري انه أبلغ أقارب سعود ان ينقلوه الى المنزل في اليوم ذاته. وكانت أمامه عدة ساعات يعيشها فقط فرأى الطبيب انه من الأفضل ان يموت بين اقاربه واحبائه في منزله. وهذا تدبير إنساني تتخذه سلطات المستشفى ويقدره كثيراً السكان العرب في الكويت.

وقد أكد لي الدكتور ميلري ان حالة سعود يائسة وانه سيفارق الحياة خلال ساعة او ساعتين. وعدت الى البيت ونقلت النبأ المفجع الى زوجتي والى الشيخ أحمد. ولم نكن نعرف الى اين سيأخذه أقاربه. ويتعلم المرء في الكويت ان يتلقى مثل هذه المآسي بشجاعة لأن «كل شيء يأتي من عند الله»، والتعليق الذي نسمعه دائماً في مثل هذه الحالات هو «الله يعطي ويأخذ. انه من الخطأ الحزن والبكاء. اختاره الله الى جواره».

وبعد مرور اسبوعين كنت وزوجتي نركب الخيل بين خيام البدو واكواخهم في منطقة الشامية خارج اسوار المدينة وهي منطقة مخصصة ليضرب فيها البدو النازحون من الصحراء في الصيف خيامهم. وكنا نقوم بمثل هذه الرحلات من وقت لآخر لأن لنا اصدقاء كثيرين بين هؤلاء البدو. وفجأة سمعت صوتاً يناديني باسمي:

— «يا أبا سعود! يا أبا سعود؟»

وكان الصوت صادراً من صريفة. وسرنا باتجاه الصوت فرأينا أمام الباب زنجية جميلة جالسة تغزل الصوف. وسألتها:

– من ناداني باسمي ؟

– انه خادمك سعود بن عقاب. انني أعالجه . انه هنا يقضي دور نقاهة هيا انزل لزيارته .

وأصبنا بدهشة لسماع هذا الخبر فسلمنا زمام خيولنا الى صبية كانوا قرب المكان . . وهناك رأينا الرجل الذي ظننا انه توفي ودفن منذ اسبوعين. فجلسنا الى جانبه نسمع قصته .

قال :

– « ارسلني الطبيب الانكليزي الرقيق القلب الى المنزل لأموت هناك . ولم يكن يعرف ان جناً شريراً امتلكني ليقتلني ولكن بنت الحلال هذه (وأشار الى الزنجية) عرفت دائي حالما رأتني فحلقت رأسي على الفور ثم كوتني في رأسي على شكل صليب من الأذن الى الأذن ومن الجبهة الى مؤخرة الرقبة وذلك لكي تطرد الروح الشريرة . وبعد ذلك امرت الروح الشريرة ان تخرج باسم الله فخرجت فوراً وتركتني كالميت . وعندما افقت من غيبوبتي وجدت الزنجية الطيبة ترعاني وتقرأ آيات من القرآن الكريم فوق رأسي . وهي تفعل ذلك كل يوم وإني لأشكرها لأني تحسنت وتحسن نظري ولكنني لا زلت أشعر بقليل من الضعف .

وبينما كان سعود يروي قصته كانت الزنجية واقفة الى جانبنا تضحك ثم قالت بكل بساطة :

– انني أملك هذه القدرة من عندالله .

فشكرناها شكراً جزيلاً واعطيناها ثماني روبيات قال سعود انها دين عليه، وشكرنا قائلاً ان الله اقتادنا الى كوخه .

وتعافى سعود ولكنه استقال من الحراسة . وضحك الدكتور ميلري ضحكة خبيثة لما اخبرته القصة واظن انه لم يكن مسروراً .

ومع ان « ميريلاي » كما يسميه العرب لم يكن معروفاً لدى العالم الخارجي فان اعماله التي قام بها في الخليج ولا سيما في الكويت تضعه في مصاف أعظم

البريطانيين في هذا القرن. ويكفي ان يسير معه المرء خطوات قليلة في الأسواق ليعرف مدى احترام الجميع وحبهم له. فليس من أحد يلتقي به سواء كان شيخاً ام تاجراً ام حمالاً ام متسولاً معدماً. إلا وكان يصافحه ويذكره بمرض شفاه منه – وربما كان ذلك قبل سنوات – .

وكانت دائماً لديه كلمات رقيقة يقولها لكل انسان في السراء والضراء؛ فكان يردد جملة مناسبة من التوراة – او ربما من ديكنز – تدخل العزاء والسرور الى قلوب من حوله . كان أديباً في العربية وكذلك كانت زوجته بيسي . وكان حافظاً التوراة عن ظهر قلب باللغتين الانكليزية والعربية . وفي مساء كل أحد يخال المرء الذي يذهب الى كنيسة الارسالية انه يسمع قصة جديدة لم تذكر من قبل وهو يستمع اليه يقرأ دون ان يلتفت الى الكتاب .

وتقاعد منذ عدة سنوات وذهب ليعيش في جنوب الهند . وفي كانون الأول سنة ١٩٥١ عاد الى الكويت وقضى عطلة عيد الميلاد بصحبتي وصحبة زوجتي . وتوفي في الثالث من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ فكتبت عنه زوجتي مقالاً تأبينياً في جريدة « التايمز » قالت فيه :

« كان يحب كل شيء حوله: منظر غروب الشمس من منزله في الشتاء، والنجوم في ليلة صيف ، البحر والزوارق الشراعية التي تتمختر فيه ، أزهار الربيع في الصحراء وخاصة ذلك البساط النرجسي . وأتى بالنرجس الى تلك الرملية فكان مع الأقحوان الصحراوي الأصفر والأبيض الأزهار الوحيدة في حديقته . ودفن في المقبرة المسيحية الى جانب الحجر التذكاري لصديقه الكابتن شكسبير الذي كان وكيلا سياسيا وهو الانكليزي الوحيد الذي كان في الكويت في ذلك الوقت وقتل في معركة جراب سنة ١٩١٥ .

كانت جنازة الدكتور ميلري مؤثرة اذ حضر الى المقبرة المسيحية عدة آلاف من العرب وهناك القى الشيخ فهد السالم الصباح شقيق حاكم الكويت رثاء بليغاً مؤثراً ومعبراً معاً .

وكل ربيع تحاول زوجتي زرع بصيلات النرجس على قبره . وهذه السنة

— ١٩٥٤ — رأيت أنها تنمو جيداً .

نبي في الكويت

ان قصة شفاء سعود بن عقاب تذكرني بقضيتين غريبتين تجدر الاشارة اليها في هذا المكان . تتعلق الاولى منها بالسيد ياسين .

كانت الحياة في الكويت قبل مجيء شركة النفط بدائية جداً . وكانت هنالك جرائم قتل وثارات وغزوات من الصحراء والأخوان المتعصبون والجن وغيرها من الخرافات والاساطير . ولم نكن نعدم أنبياء كالذين يأتي ذكرهم في العهد القديم من الكتاب المقدس .

في ذلك الوقت كان « نبي » الكويت السيد ياسين وهو رجل طاعن في السن طيب شفوق لا يعرف للتعصب معنى . ففي الشتاء والربيع كان يعيش مع عدد من تلاميذه في شبه جزيرة رأس عشيرج التي تبعد خمسة عشر ميلاً الى الغرب من الكويت . وفي عز الصيف كان يقيم في منزل في وسط مدينة الكويت وليس بعيداً عن البحر الى جوار حمد الخالد أحد قدامى تجار الكويت وصديق الاتراك .

وكانت للسيد ياسين قوة خارقة للشفاء لا سيما اذا كان الأمر يتعلق بلدغة حية أو عقرب . ومع ذلك كان يأتي اليه المصابون بالزكام والحمى والسل على حد سواء . كان بعضهم يسمي ذلك شفاء عن طريق الإيمان ولكن السيد ياسين كان يصفه بأنه يد الله التي تعمل من خلاله .

وكان يقول دائماً :

— انا نفسي لا استطيع ان افعل شيئاً ولكنني اطلب من الله ان يخفف عن المتألم فيستجيب برحمته الواسعة الى دعائي وصلواتي .

كان السيد ياسين يضع يده على رأس المريض ويقول :

— « آمن بالله وهو يشفيك من كل العلل . اذهب بسلام » .

ولم يستخدم دواء سوى الماء . فكان يطلب كأساً منه ويتصرف كأنه سيبصق فيه دون ان يفعل ذلك ثم يطلب من المريض ان يشرب الماء الى

آخر « فيبرأ » .

ويبدو انه كان ينجح ؛ اذ كيف نفسر شفاء العشرات ممن يأتون اليه يومياً لشفائهم ؟

ولم يكن يتقاضى عن عمله هذا أي أجر ، كما انه لم يقتل قط أي حيوان سام أو مؤذ لأن تلك الحيوانات على حد قوله « مخلوقات الله فلماذا نؤذيها ؟ » .

كانت له طريقة عجيبة في اجتذاب الافاعي . ولم تكن تلك الافاعي تلدغه فكان يلتقطها وكأنها اكثر المخلوقات براءة . وكان يخبر اصدقاءه ان الأفعى لا تؤذي احداً اذا افهمها انه لا يقصد بها الشر .

ـ « قل للافعى « لا اقصد بك الشر فلا تؤذيني » وهي لن تؤذيك » .

وكان له عدد من التلاميذ يسيرون على خطاه ويستطيعون التقاط الأفاعي السامة وترويضها . ومن هؤلاء التلاميذ محمد السنا الذي كان سائقاً لسيارتي في يوم من الأيام .

ولعل اكثر اساليب السيد ياسين اثارة للدهشة قدرته على معالجة الذين لدغتهم الأفاعي السامة بشرط ان يؤتى بالشخص الملدوغ اليه في الحال فيصلي عليه ويمسك بيده فيخف المه ويشفى . ومع انه كانت لدينا ارسالية واطباء وعدة انواع من المصل المضاد للسم ، لكن العرب على العموم كانوا يفضلون الذهاب الى السيد ياسين أولاً . وقد عثرت مرتين على رجال من البدو فاقدي الوعي يموتون من لدغة الأفعى وفي المرتين توسل هؤلاء الي ان لا آخذهم الى المستشفى بل الى منزل السيد ياسين .. ففعلت .

ان اعظم مثل على قدرة السيد ياسين في الشفاء من لدغة الافعى ذلك الذي رأيته بنفسي . وأعرف ابطال القضية واحداً واحداً ولذلك أريد ان أتوخى الحقيقة فقط . ولن ادعي انني سأفسر الاسباب والنتائج .

في اوائل صيف سنة ١٩٤٥ كان صديقي الشيخ لافي بن معلث من فرع الدياهين في قبيلة مطير مخيماً مع عدد من قبيلته في اربعين خيمة عند آبار الطويل على بعد ثلاثين ميلا الى الجنوب من الكويت . وبعد غروب الشمس بقليل وبينما

كان الشيخ لافي جالساً بقرب النـــار ينتظر القهوة ، رأى على ضوء النار أفعى ذات قرون اجتذبها النور المنبعث من النار فاقتربت منهـا . وأصيب لافي بهلع مفاجيء فرفس الأفعى برجله الحافية رفسة قويـــة ولكنهـا كانت اسرع منه فغرزت انيابها في رجله وتعلقت بها .

وأخذ الشيخ لافي يصيح طالباً النجدة فهرع اليـــه اصدقاؤه بعد قليـــل ليخلصوه من انياب الأفعى بعد ان قتلوها. لقد كانت افعى مكتملة النمو ومميتة دون أي شك . واوثق اصدقاء الشيخ لافي الرباط فوق ركبته وتحتها ليحصروا مجرى الدم على طريقة البـــدو وقرروا ان ينقلوه الى السيد ياسين باسرع وقت ممكن على جمله . وكان شقيقه الاصغر أذكى من البقية فقفز على جمـله وخف الى الكويت لمقابلة السيد ياسين وطلب المساعدة منه . وكان يعرف انه اذا قـــدر للشيخ لافي ان يصل الى المدينة فلن يصلها قبـــل الصباح . وسار الشاب حثيثاً فوصل الكويت عند منتصف الليل فايقظ السيد ياسين من نومه وأخـــبره قصته بسرعة وقال :

— « لا اعتقد ان أخي بامكانه ان يصل الى الكويت قبـــل ثماني ساعات أو أكثر وعندها يتسرب السم الى جسـده فيقتله .

وتأمل السيد ياسين برهة ثم قال بهدوء :

— « اذهب بسلام يا بني لقد شفى الله الشيخ لافي منذ هذه الساعة . عد الى ملاقاة أخيك وستجده سالماً معافى .

فرح الشاب ولكنه ظل قلقاً وعاد الى حيث اتى في ظلام الليل . وبعـــد مسيرة خمسة عشر ميلاً من المدينة التقى بشقيقه راكباً على جمـــله يسير ببطء ولكنه بصحة جيدة مع انه كان لا يزال يعاني من تأثير الصدمة .

وبادره لافي بقوله :

— « لقد زال عني تأثير السم فجأة وشعرت بالحياة تعـ د إلي .

ولما سأله عن الوقت الذي حدث فيه ذلك تبين ان المعجزة وقعت تمـاماً في الوقت الذي ابلغ فيه السيد ياسين شقيق الشيخ لافي ان شقيقه سيشفى بعون

الله .

رأيت الشيخ لافي بعد ثماني ساعات من الحادث في مجلس الشيخ عبدالله الأحمد الابن الأكبر لشيخ الكويت . وكان يصف كيف أنقذت حياته في الليل شاكراً الله . وزيادة في الايضاح اراني الجرح الذي احدثته أنياب الأفعى في ساقه واخبرني والجمع في المجلس كيف انه بعد عشرين دقيقة من لدغ الأفعى له انتابه نعاس وخدر شديدان فقد بعدهما الوعي كلياً بعد ان قطع مسافة ميلين نحو الكويت. وقد ربطه صحبه الى ظهر الجمل وأرسلوا معه رجلاً ليدل على الطريق ولم يكن بالامكان السير بأكثر من المشي العادي . وحوالي منتصف الليل أفاق الشيخ لافي ودعا رفاقه ان يوقفوا الجمل وينزلوه الى الأرض ففعلوا ثم فكوا رباط الشيخ لافي بسرج الجمل فوقف ولكن ضعيفاً وقال :

– « وبعد ساعة شعرت بتحسن مذهل . بحيث اني نزعت الرباطين في رجلي لانهما كانا يؤلماني . ووصلت الى الكويت عند الفجر شاكراً الله على رحمته . وتوجهت رأساً الى منزل السيد ياسين لأعبر له عن شكري وعرفاني لجميله، ولكنه قال : اشكر الله وحده .. انا لم أفعل شيئاً . صليت الى الله فاستجاب لصلاتي، تبارك اسمه .

لقد قابلت السيد ياسين مرة واحدة وخرجت بانطباع طيب عنه . وكنت انا وزوجتي غالباً ما نراه جالساً على « دتشه » قرب البحر . وقد توفي سنة ١٩٤٨ بسبب كبر السن ولم يترك خلفة أولاداً فحزن عليه الجميع .

اخراج شيطانين من بتا

قصتي الثانية تتعلق ببتا وهي زوجة معزي بن بيتل الجبيلي وهو مطيري كان يعمل حارساً وخادماً لنا. وتتعلق القصة ايضاً بمحمد المرزوق وهو مطيري آخر كان يهتم بحصانينا في الكويت . ومحمد متزوج من مضي الزوجة السابقة لفالح العامر . وهي امرأة ذات شخصية تنتمي الى فرع رخمان في مطير وكانت تقيم في الجهراء عند رأس الكويت . وقد تعرفنا عليهما قبل خمس عشرة سنة

وكانت تأتي لزيارتنا وزيارة زوجها من وقت لآخر .

والحادث الذي سأروي قصته هنا وقع في آذار سنة ١٩٤٩ في الوقت الذي كان فيه ميلري قد تقاعد وأصبح الدكتور ج . هـ . تيكرك طبيب الارسالية . وكانت بتا تعيش مع ابنتها في فحاحيل بالقرب من خيمة خلف المطيري زوج ابنة معزي . وكان خلف في خدمة صاحب السمو الشيخ أحمد . وكنا نسمح لمعزي كل اسبوع ان يذهب الى فحاحيل لقضاء يوم وليلة مع زوجته بتا وابنيه فرج وعبدالله .

وأبلغنا معزي ذات يوم ان بتا تعاني من مرض لا يعرف ما هو وان حالتها تسير من سيء الى اسوأ . وفي الاسبوع التالي ابلغنا انها أصبحت نحيلة للغاية وان حليبها قد نضب مما اضطره الى ارسال طفله عبدالله الى السمن على بعد ١٥٠ ميلاً لكي يعتني به أهل والدته .

وبعد مضي اسبوعين من الزمن على هذا المرض الغريب عاد معزي ليقول ان زوجته في حالة خطيرة ويعتقد انها ستموت قريباً . فقد بلغ بها النحول درجة كبيرة ولم يعد بامكانها ان تأكل شيئاً ولم تعد تستطيع الوقوف على رجليها . كان ذلك بعد زيارته الأخيرة لها . وتوسل الي ان اذهب لرؤيتها بنفسي عندما اقوم بجولتي التفتيشية القادمة الى ميناء الاحمدي الذي يبعد ثلاثة اميال فقط عن خيمة بتا .

وكان معزي في حالة يأس بحيث انه اشترى كفناً لزوجته . ولكي اشجعه قررت ان اذهب الى ميناء الاحمدي في اليوم التالي لزيارة بتا والاطلاع على حالتها بنفسي وحملها معي في السيارة الى الكويت اذا اقتضى الأمر لادخالها الى مستشفى الارسالية الاميركية . وابلغت عزمي هذا الى معزي فوافق في الحال! وقال انه لن يرافقني لأنه لا يستطيع رؤية زوجته الصبية بهذه الحالة .

وفي الوقت المحدد وصلت الى خيام البدو جنوب غربي ميناء الاحمدي حيث علمت ان بتا وشقيقاتها يقمن عند الطرف الغربي من المخيم . ولم تكن بتا هناك ولكنها وضعت في صريفة صغيرة ابتناها لها شقيقاتها الى جانب خيمتهن .

واخذتني اليها فصدمت عندما رأيت بتا وقد أصبحت هيكلاً بشرياً متهالكاً على لحاف قديم وسط قاذورة تهافت عليها الذباب . وكانت تئن وتتـــألم ولدى سؤالي عن حالتها جلست بصعوبة وقالت وهي تبكي وتتنهد انها ستفارق الحياة. كانت نحيلة كالعصا وتبدو اشبه بهيكل عظمي ناطق . ولما رفعت يدها لأجس نبضها لم أجد عليه لحمــاً فكنت استطيع ان اطوق معصمها باصبعي . وكانت يدها ساخنة .

وبصعوبة ايضاً ابلغتني انها لا تستطيع ان تأكل أو تشرب شيئاً إلا وتتقيأه، وانها لا تستطيع التحرك نحو الباب إلا زحفاً على يديها وركبتيها . وقالت انها تنفث دماً في بعض الاحيان ولكن ليس بكثرة .

مسكينة بتا الصغيرة .. كيف تحولت من فتـــاة موردة الخدين الى هيكل بشري فاقد العافية ! كان يبدو واضحاً انها في حالة يائسة واعتقد انها تعاني من السل في درجة متقدمة لأنني رأيت كثيراً مثله بين رجال ونساء البدو . وقلت لبتا انني اقترح بموافقة زوجها نقلها الى المستشفى وسألتها عن اية امرأة مــــن جيرانهـــا تود ان تصحبها . وتوسلت اليّ بتا وهي تبكي ان لا انقلها في الوقت الحاضر لأنها ضعيفة وتخشى ان تموت في سيارتي . وطلبت مني بدلاً من ذلــك ان أرسل طبيب الارسالية اليها لمعاينتها وربما استطاعت ان تذهب بعد ذلك . وقد الحت كثيراً في توسلاتها فنزلت عند رغبتها .

كنت اعرف جيداً ان الدكتور نيكرك لا يمـــانع في الخروج من الكويت ولذلك فان التأخر يومين لن يبدل في الوضع . واعطيت بتا كمية من كربونات الصودا مع الماء وسررت لأنها جرعتها وتركت كمية اخرى من هـــذا المسحوق وطلبت من شقيقتها ان تعطيها منه اربع مرات في اليوم وكميات قليلة من الحليب الساخن كل ساعتين . وقبل ان اغادر المكان رفعت الفتاة من ذراعيها لأرى اذا كانت تستطيع الوقوف ، فسقطت الى الأرض حالما افلتت يديها فتأثرت بهـذا المشهد كثيراً .

وعدت الى الكويت ونقلت ما شاهدت الى زوجتي والى معزي، الذي كان

يبدو بالغ القلق . وفي مساء اليوم ذاته وقبل ان اذهب الى الدكتور نيكرك لأسأله اذا كان بامكانه ان يخرج الى الصحراء لمعاينة بتا، وصل خلف من فحاحيل حاملاً رسالة الى معزي من زوجته تطلب منه فيها ان يأخذها الى امرأة حكيمة في الجهراء لانها تشعر ان الكي سيفيدها وينقذ حياتها .

هذه هي طريقة البدو في معالجة السل . وتجري هذه العملية بواسطة اوتاد حديدية تسخن على النار الى أن تصبح حمراء ثم يجري كي المعصم الأيسر في خطين قصيرين متوازيين ، فاذا لم يحمل ذلك معه اي تحسن خلال اسبوعين تجري نفس العملية على المعصم الايمن . فاذا لم يحدث اي تحسن ايضـــاً يكوى المريض على الجهة السفلى من اللسان . وهذه العملية مؤلمة للغاية اذ يتورم الفم ولا يستطيع المريض لمدة أيام ان ينبس ببنت شفة .

وتوسلت بتا الى معزي في رسالتها ان يحقق رغبتها . وعندمـــا اعطيت موافقتي على ذلك تقدم سائسنا محمد المرزوق الذي كان قد سمع كل شيء واستأذن بالكلام . وتطوع محمد ان يتوجه الى فحاحيل صباح اليوم التالي ليأخذ بتـا الى الجهراء حيث تقيم زوجته مضي . ولم يكن يرغب ان يصحب معزي معه لأنه يعيقه وقال انه سيحضر السيارة وكل مـــا يلزم ، وانه سيعود ان شاء الله اليوم الخامس وقت شفيت بتا .

وكان محمد يبدو قوياً واثقاً من نفسه بوجهه الباسم الصبوح بحيث انني وزوجتي وافقنا على طلبه في الحال . ولم يمانع معزي في ذلك . فقد علمتني التجـارب انه في مثل هذا المناسبات لا سيما بين أناس يعتمدون كثيراً على الإيمـــان ، تعمل المعجزات عملها .

وقلت لمحمد :

– « اذهب وليوفقك الله . ربما أراد بقدرته ان تشفى بتا .

وغادرنا محمد فجر اليوم التالي ولم نسمع شيئاً عنه لمدة أربعة أيام .

وكان معزي يتمتم قائلاً : « ربما أراد الله ان يشفيها وينقذها » . وكنت أنا وزوجتي نجيبه بقولنا : « ان شاء الله » « ان شاء الله » « الله كريم » .

وفي اليوم الخامس عند الظهر عاد محمد المرزوق سعيداً باسماً وقال :
– ألم أقل لكم ان كل شيء سيكون على ما يرام لأن الله يستطيع ان يفعل كل شيء . لقد استعادت بتا صحتها وشفيت تماماً . لقد أخذتها الى شقيقاتها في فحاحيل وعدت مسرعاً لأنقل اليكم الأخبار السارة .
وأخذ يصف لنا كيف نقل بتا وهي نصف ميتة الى المرأة الحكيمة العجوز في الجهراء برفقة زوجته مضي . وبعد ان فحصتها العجوز اعلنت ان حالة بتا لا تقتضي الكي بل طرد روح شريرة لأن الجن قد تسلط على جسدها وأخذ يعذبها وسيقتلها حتماً اذا لم يطرد . وعندئذ امرت العجوز الجن باسم الله ان يخرج .
وقال محمد :
– ولم يخرج منها جن واحد بل اثنان . وكان كل منهما يصرخ بصوت مخنوق على طريقة الجن متوسلاً البقاء داخل الفتاة ولكن العجوز الماهرة لم تستجب اليهما وأمرتهما بكل اصرار باسم الله القدير ان يخرجا ويرجعا الى مكانهما الأصلي تحت الارض .
واستطرد محمد يصف كيف ان بتا بقيت شبه ميتة لمدة من الزمن بعد ان طردت منها الأرواح الشريرة . ولما استعادت وعيها نقلها الى منزل زوجته مضي حيث اظهرت تحسناً مدهشاً خلال يومين وليلتين بحيث طلبت ان تعاد الى منزلها في فحاحيل .
وأضاف محمد قائلاً :
– والله انها تأكل الآن كالناقة .. شكراً لله . وفي الواقع مشت هذا الصباح الى محطة شاحنات الجهراء اي مسافة ربع ميل تقريباً حاملة المكسر على رأسها، وأنت تعرف كم هو ثقيل المكسر يا أبا سعود . وقد تسلقت الى الشاحنة لوحدها أيضاً .
وقد أذهلتني هذه القصة بحيث ظننت أن الأسوأ قد حدث ، وان هذه هي طريقة محمد في افضاء نبأ وفاة بتا . وقلت له بصراحة انني لا أصدقه ما لم أرها شخصياً وأتأكد انها في الحالة التي وصفها لنا . وعلى كل حال ارسلت معزي الى

فحاحيل على جناح السرعة طالباً منه اذا صدق كلام محمد ان يجلب بنا معه الى منزلنا في الكويت خلال خمسة أو ستة أيام لنراها بأعيننا .

كان ذلك يوم اثنين . وفي مساء اليوم التالي أخذ محمد بن مرزوق يشكو من صداع شديد ومن حمى . فأعطيناه اقراص الاسبيرين ولكنه يوم الاربعاء ساءت حالته كثيراً فطلب ان نسمح له بالذهاب الى الجهراء حيث يمكن لزوجته ان تعتني به . فوافقنا على ذلك واستقل محمد الشاحنة التي تسير عند الظهر وهي ملك عبدالله بن خلف . ولما كان الطقس بارداً جداً حذرناه ونصحناه ان يلف نفسه جيداً ويجلس في صدر الشاحنة وراء السائق .

ولم نعد نرى محمد بن مرزوق ثانية . وجاء الينا يوم الجمعة بدوي يحمل الينا بندقية محمد وحزام الذخيرة وأبلغنا ان محمد توفي فجأة . ويبدو من التفاصيل التي حصلنا عليها فيا بعد من سعود بن تويران زوج شقيقة مضي ، ان محمد وصل الى المنزل في حالة سيئة وتلاشى بهدوء بالرغم من عناية مضي به وفارق الحياة ورأسه على حضن زوجته . وكانت شكواه الوحيدة انه يشعر ببرد في رجليه وجسده وطلب ان يضطجع في الشمس بمواجهة مكة .

وقال مخبري بدهشة :

ـ ماذا تظن يا أبا سعود ؟ كل الناس في الجهراء يعرفون ان محمد هو الذي أخذ بنا الى العجوز التي طردت منها الروحين الشريرتين . وانتقم هؤلاء الجنيان دخلا جسد محمد المسكين بدلاً من ان يعودا الى عالمها في باطن الأرض . ولم يكن محمد أو زوجته يعرفان ذلك ولو انها عرفا به لأحضرا العجوز لمساعدتها .

وحزنت أنا وزوجتي كثيراً على محمد لأنه كان سائساً رائعاً وأميناً الى أبعد الحدود . وبعد انقضاء فترة حزنها اتت مضي لزيارتنا ، وكان وضعها مؤسفاً لأنها هي الاخرى صدقت قصة الأرواح الشريرة .

وبعد اسبوع واحد من وفاة محمد بلغني ان فتاتين بدويتين قدمتا لزيارتي فوجدتها جالستين على أسفل الدرج الذي ينزل الى الاسطبل . ورأيت معزي متكئاً على أحد الاعمدة وعلى فمه ابتسامة عريضة . ونهضت الفتاتان لتحيتي فلم

أعرفها الى ان قالت احداهما من خلف برقعها :

– « أنا بتا وهذه شقيقتي . لقد جئت لأريك انني استعدت صحتي .

والحقيقة انني دهشت فاستدعيت معزي الذي اقسم انها زوجته بتا الذي عادت اليها عافيتها باعجوبة من عند الله . وسررت سروراً لا حد له وكشفت عن ذراع بتا فوجدتها سمينة مكتنزة باللحم وحاولت ان اطوق معصمها باصبعي ولكنها لم تلتف حولها سوى بوصتين ونصف البوصة ، فضحكت بتا على ما أفعله وقالت :

– يا ام سعود انها حقيقة .. انا هي بتا .. معزي لم يستبدلني بامرأة أخرى وها أنت ترى انني عدت سمينة كما كنت تعرفني من قبل . وقد عاد الي حليبي بكثرة وسوف أستعيد طفلي عبدالله من عند أهلي .

وحضرت زوجتي بعد قليل فأخذت بتا جانباً ورفعت برقعها عن وجهها للتأكد . وأبلغتني زوجتي فيما بعد ان القصة صحيحة وأن بتا عادت كما كنا نعرفها .

أية اعجوبة حدثت ؟ قبل عشرة أيام فقط رأيتها هيكلاً عظمياً فاقد القوة ظننت ان السل قد نخر عظامها .

وحدث ان كانت الدكتورة غوثري طبيبة شركة نفط الكويت في زيارتنا في ذلك الوقت فهرعت الى الطابق الأعلى واستدعيتها من غرفة الاستقبال قائلاً :

– تعالي وشاهدي هذه الاعجوبة !

وبعد أن فحصتها أعلنت الدكتورة غوثري ان بتا الصغيرة في حالة جيدة وليس فيها أثر لأي مرض صدري .

حدث كل ذلك ومعزي واقف يبتسم وعلامات السعادة على وجهه . ولم يكن يقول شيئاً إلا « الحمد لله » « الحمد لله » .

ان أشياء كثيرة في الحقيقة تحدث بالجزيرة العربية لا يتصورها عقل .

مستشفى اولكوت التذكاري

نعود الآن الى سنة ١٩٣٩ . في تلك السنة شيد مستشفى اولكوت التذكاري

في نفس المكان الذي كان يقوم عليه مستشفى النساء القديم . وقد افتتحه في اوائل الصيف سمو الشيخ أحمد .

وقد كتبت السيدة كالفرلي التي عادت الى اميركا مع زوجها عام ١٩٢٩ تقول :

« لقد عملت السيدة كايت فان سانتفورد اولكوت التي بني المستشفى تخليداً لذكرها سكرتيرة لشؤون الجزيرة العربية في مجلس ادارة ارساليتنا . وقد زارت الكويت مرة . وكم كنا نتمنى ان تعيش لترى الخدمة الجلى التي قدمتها لنساء الكويت عبر السنين . ان شعب الكويت لم ير من قبل بناء مثل بناء هذا المستشفى المؤلف من طابقين من الحديد والاسمنت المسلح . ان قناطر فارسية تدعم شرفاته الواسعة والممرات التي تصل بين غرفه التي مدت اليها شبكات الماء والكهرباء . ويبلغ عدد الاسرة فيه اربعة وثلاثين سريراً باستثناء اسرة الاولاد والأطفال .

وقد خدم في هذا المستشفى الى جانب الدكتورة ماري بروئز اليسون المسؤولة حالياً عن المستشفى كل من الدكتورة استر بارني والدكتورة روث كراوز .

وظلت الآنسة فان بيليت تحمل كل اعباء العمل الطبي وحدها بعد مغادرتنا طيلة ستة اشهر الى ان وصلت الدكتورة بارني . وعندما لم يكن في المستشفى امرأة طبيبة كان الدكتور ميلري وخلفاؤه الدكتور سكادور وبعده الدكتور نيكرك ونساؤهم يعالجون النساء المريضات .

ومنذ ذهاب الآنسة فان بيلت من الجزيرة العربية بعد افتتاح مستشفى اولكوت بوقت قصير ، لم تعد هنالك رئيسة لمرضات . ويعمل مع الدكتورة اليسون حالياً ثلاث ممرضات هنديات حديثات العهد بالمهنة وفتاة سورية مسيحية تتدرب على التمريض . وحتى اليوم فان العادات الاسلامية كالزواج المبكر واحتجاب النساء ، تمنع تدريب الفتيات العربيات في الكويت والجزيرة على اعمال التمريض . ولكن هناك عشر نساء أميات يعملن كمساعدات أو

خادمات الى جانب فتى تسمح له سنه بالاختلاط بالنساء كان يعمل كاتباً . وحول المكان حيث يجلس لقطع التذاكر اقيم سياج ليمنع ازدحام النساء عليه .

ويسرني ان اسجل هنا في سنة ١٩٥٦ ان مجلس ادارة الارسالية الأميركية وضع خطة لبناء مستشفى فخم للرجال في الكويت . وسيسمى هذا المستشفى « مستشفى ميلري التذكاري » وستبلغ تكاليفه مليونين ونصف المليون من الروبيات وذلك بسبب غلاء مواد البناء في هذه الأيام. ومن الصعب على سلطات الارسالية ان تجمع مثل هذا المبلغ ولذلك فقد اعطى صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح مثلاً رائعاً في الكرم اذ تبرع بمبلغ محترم . ولكن الآن يحتاج بعد الى مبالغ كبيرة ينتظر ان تجمع من المحسنين والمحسنات في جميع انحاء العالم الذين لن يتورعوا عن البذل في سبيل هذا المشروع الإنساني .

الفصل السابع عشر

الكويت

١٩٣٩ - ١٩٤٢

الحرب العالمية الثانية

نجح هتلر عن طريق الدكتور غروبا سفيره في بغداد في تأسيس حزب للشباب في مدينة الكويت يعرف باسم « الشبيبة » . وباستخدام نفس الطرق والاساليب التي اتبعت في تشيكوسلوفاكيا ، نجح في اشعال ثورة مفاجئة هدفها الإطاحة بسمو الشيخ أحمد الجابر الصباح وإنهاء الحماية البريطانية على الكويت واستبدالها بالعراق على أساس انها دولة مسلمة .

وكان توقيت الحركة سيئاً ففشلت تماماً كما فشلت ثورة رشيد عالي الكيلاني الموالية لهتلر في العراق بعد أن أزهق فيها عدد من الارواح . وقد تم الاستيلاء على مستودع الاسلحة في الكويت فتحرك ابن سعود نحو الحدود الكويتية على رأس قوة كبيرة لمساعدة الشيخ أحمد في إعادة النظام .

وقد عملت الحرب العالمية الثانية على إعادة الكويت الى جانب بريطانيا الامر الذي يؤكد الثقة الكبيرة التي وضعتها حكومة صاحب الجلالة منذ زمن طويل في شخص الشيخ أحمد .

وفي أوائل سنة ١٩٤١ بعد أن احتلت فرقة بريطانيا البصرة أرسلت بطريق الجو من الهند لمجابهة ثورة الكيلاني في العراق ، رحلت شركة نفط الكويت نساء موظفيها الى الهند كاجراء وقائي . ولكن زوجتي رفضت الرحيل شعوراً منها بأنها ستكون ذات فائدة في حال وقوع هجوم جوي على الكويت ، ولأنها فضلت البقاء بين أصدقائها العرب على الهرب . وبقي في الكويت أيضاً جميع نساء الارسالية الاميركية واستمروا في العمل بالمستشفى خلال الحرب .

لقد كان ذلك الوقت عصيباً بالنسبة للجميع ولا سيما بالنسبة للفقراء في المدينة وفي الصحراء ، لان المواد الغذائية والالبسة والادوية فقدت من الاسواق وساد البؤس .

وفي نهاية نيسان سنة ١٩٤١ عندما عين الميجر غالواي الوكيل السياسي في الكويت ضابط ارتباط مع القوات البريطانية التي قدمت مؤخراً إلى العراق ، طلب مني ان أشغل منصب الوكيل السياسي ثانية الى حين تسلم الميجر توم هيكينبوثام مهام هذا المنصب في ١٦ آب من السنة ذاتها .

وفي تلك الفترة تمكنت أنا وزوجتي من الحصول على مسابقي حجر مطحنة لاعطائها للبدو الجوعانين في الداخل ليطحنوا عليها الشعير الذي كنا نوزعه عليهم لسد رمقهم ، إذ لم يكن في المدينة في ذلك الوقت أية كمية من طحين الحنطة ، وكان الارز نادراً ووصلت أسعار التمور الى مستوى خيالي .

ولكنه لم يقع في الكويت في تلك الاثناء أي حادث من حوادث الحرب مما أعطانا فرصة ، بالاضافة الى مساعدة المرضى والمحتاجين ، زيادة معلوماتنا عن عرب الصحراء ومساعدتهم في الحصول على الطعام والملابس . وكانت حالة البدو أسوأ بكثير من حالة أهل المدينة .

محمد السيد يعرض قوته

لاحظت قوة آل مرة الخارقة في اقتفاء الآثار لأول مرة في حادث وقع في

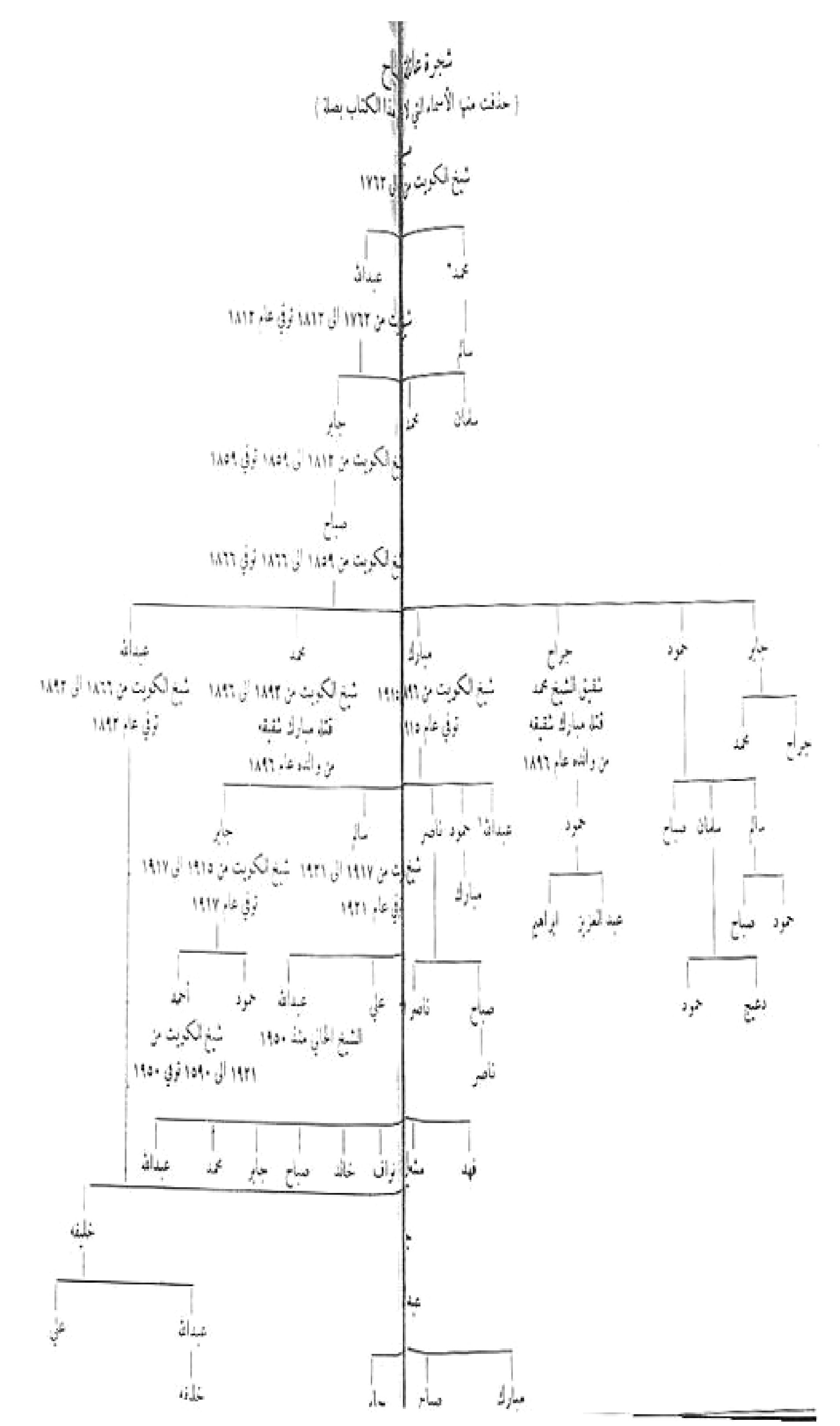
٢٥ حزيران سنة ١٩٤٠ على حدود الكويت الجنوبية، كنت وقتها في جـــولة تفتيشية على أحد مراكز الحراسة التـــابعة لشركة النفط قرب البئر رقم ٤ في برقان .

كان ذلك اليوم قائظاً . ووصلت الى المركز في الساعة العاشرة صباحاً لأجد الحارس محمد بن وقيان من قبيلة عجمان يقوم بالواجب لوحده بينما ذهب الحارسان الآخران الى مركز واره للحصول على المـــؤن . واستقبلني محمد فور نزولي من السيارة وقال انه يحضر القهـوة لرجل اشتد عليه المرض وان وصولي جاء في الوقت المناسب .

ومركز الحراسة هذا عبارة عن صريفة من غرفة واحدة لا نوافذ لها بابهـا نحو الجنوب . فدخلت وجلست الى جانب الوجار الذي تصنع عليه القهوة قبالة الباب . وفي الزاوية البعيـــدة المظلمة كان شخص مضطجعاً وقد غطى نفسه من أعلى الى أسفل . وقال محمد ان المريض ينتمي الى قبيلة مره وقد وصل في المساء السابق محروراً وطلب ان يأوي الليل هناك ولم يكن محمد يعرف اسم الرجـل ولكنه ظن انه ذاهب الى الكويت يبحث عن عمل عند الشيخ أحمد .

وجلست اتحدث الى محمد حوالي عشرين دقيقة في مسائل تتعلق بواجباتـه وبسلامة المركز بصورة عامة عنـدما وقع نظرنا على اثنين من البدو قادمين من الجنوب احدهما يركب جملاً بني اللون والآخر جمـــلا أبيض اللون . وكنت أنا أراهما بوضوح من المكان الذي كنت اجلس فيه ولكن الرجل المريض لم يكن ليراهما لانه بعيد عن الباب ولأن جدران الصريفة سميكة لا تتيح له رؤية مـا يجري في الخارج . وهذه نقطة مهمة لأن لها تأثيرها على القصة التي نحن بصددها .

وبالتهذيب المعهود برجال الصحراء اناخ البدويان جمليهما الى الأرض على بعـد مائة وخمسين ياردة من الصريفة واخذا يربطان ركبتي الجملين لمنعهما من النهوض . وكان الجملان من أنواع أصيلة سريعة مما يدل على ان الرجلين قطعا مسافة طويلة . ويبدو أنهما من الشيوخ لأن سرجيهـما مصنوعان من قماش زاهي الألوان غالي الثمن .



شيخ الكويت من ... الى ١٧٦٢
محمد
عبدالله
شيخ من ١٧٦٢ الى ١٨١٢ توفي عام ١٨١٢
سالم
سلمان
محمد
جابر
شيخ الكويت من ١٨١٢ الى ١٨٥٩ توفي ١٨٥٩
صباح
شيخ الكويت من ١٨٥٩ الى ١٨٦٦ توفي ١٨٦٦
جابر
حمود
جراح
شقيق الشيخ محمد قتله مبارك شقيقه من والده عام ١٨٩٦
مبارك
محمد
شيخ الكويت من ١٨٩٢ الى ١٨٩٦ قتله مبارك شقيقه من والده عام ١٨٩٦
عبدالله
شيخ الكويت من ١٨٦٦ الى ١٨٩٢ توفي عام ١٨٩٢
جراح
محمد
سالم
سلمان
صباح
حمود
صباح
دعيج
حمود
عبد العزيز
ابراهيم
عبدالله
حمود
ناصر
مبارك
سالم
شيخ من ١٩١٧ الى ١٩٢١ توفي عام ١٩٢١
جابر
شيخ الكويت من ١٩١٥ الى ١٩١٧ توفي عام ١٩١٧
حمود
أحمد
شيخ الكويت من ١٩٢١ الى ١٩٥٠ توفي ١٩٥٠
علي
عبدالله
الشيخ الحالي منذ ١٩٥٠
صباح
ناصر
ناصر
فهد
خالد
صباح
جابر
محمد
عبدالله
خليفة
عبدالله
علي
خليفة
مبارك
صباح

وطلبت من محمد بن وتيان ان يدعو الرجلين لشرب القهوة . وذهب اليهما ولكنه عاد ليأخذ لهما بعض الماء الذي قالا انه كل ما يحتاجان اليه ورفضا ان ينزلا لشرب القهوة . ومما لا شك فيه انهما شاهدا سيارتي قرب الصريفة فتبادر الى ذهنيهما ان رجلاً انكليزياً داخل الصريفة فقررا متابعة سيرهما . وبعد أن شربا الماء الذي قدمه لهما محمد استأنفا السير . وعاد محمد الى الجلوس بجانب الوجار واستأنف حديثه معي . وطوال هذا الوقت لم اتحرك من مكاني كما ان الرجل المريض الملفع بالغطاء لم يتململ قيد شعرة . وجواباً على سؤالي عن هوية الرجلين الغريبين قال محمد انه ليست لديه اية فكرة لان الرجلين رفضا الافصاح بذلك عندما سألهما .

وجلست مع محمد نصف ساعة أخرى تناولت خلالها غداء كنت قد احضرته معي . وعندما انتهيت من تناول الطعام نهضت استعداداً للعودة فما كان من الرجل المريض القابع في الزاوية إلا ان وقف واتجه نحوي للسلام علي بالطريقة المعهودة .

وكان الرجل يبدو مريضاً فعلا فدعوته للجلوس وشرب القهوة ثم سألته عن حاله فقال :

– لقد فارقتني الحمى وانا أحسن حالاً الآن الحمد لله .

وتحسست معصمه فوجدته بارداً ولكنه شكا على كل حال بأنه يشعر بضعف ودوار .

ويدل مظهره على انه متوسط الطول مربوع القامة له لحية سوداء تمتد الى صدره . وبعد أن شرب القهوة شعر بأنه يستطيع الاسهاب في الحديث فعلمت منه أنه سمع بأن شيخ الكويت بحاجة الى رجل ماهر في اقتفاء الآثار ، وبما انه مرّي يجيد هذه المهنة فقد جاء في طريقه الى الكويت طلباً للعمل . وتبين لي ان اسمه محمد السيد وانه محدث ماهر اذ بدأ يخبرني قصصاً عن قبيلته وعن البلاد التي يعيشون فيها بعيداً في الجنوب .

وأحب الحارس محمد ان يطيل الحديث فاشار بخبث الى انه ربما استطاع

الرجل لكونه من قبيلة مرّة الشهيرة باقتفاء الآثار ، ان يعرف شيئاً عن الغريبين اللذين مرا بالقرب من المكان وشربا الماء اثناء نومه . وقال محمد السيد بصورة جدّية :

ـ انني اشك فيما اذا كان بإمكاني ان اعرف اسميهما ولكنني اذا رأيت المكان الذي أقعدا فيه جمليهما وآثار أقدامهما ، فربما تمكنت من اعطائكم بعض المعلومات .

واشرت الى المكان الذي توقف فيه الرجلان فذهب محمد السيد الى المكان لوحده لتفحص الآثار . وقصدت ان لا أسمح للحارس محمد ان يغادر الصريفة . وبعد فحص دقيق طال بعض الوقت عاد محمد السيد وجلس ليشرب المزيد من القهوة فحذوت حذوه .

وسألته بقولي :

ـ حسناً . هل صادفك الحظ ؟

ـ لا بأس . يستدل من آثار الجمال انها أصيلة واحد منها وضحى (الأبيض) والآخر خضيره (البني) . لقد توجه راكب الوضحى نحو الشمال الغربي باتجاه الجهراء، وسار الآخر نحو الشمال الشرقي وربما باتجاه فحاحيل على الساحل. وكلا الرجلين من شيوخ الدرجة الثانية في قبيلة بني هاجر وقد قدما من شبه جزيرة قطر وربما من داخل القطيف . انني لا أستطيع ان أعرف اسمي الرجلين ولكنني اظن انهما يبحثان عن عبد لهما فار وهما يقتفيان آثاره لأنني رأيت على مقربة من المكان الذي توقفا فيه آثار زنجي حافي القدمين مر من هنا خلال الليل وقد منعه خوفه من ان يلجأ الى هذا المكان . وكلا الرجلين في مقتبل العمر بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر وكانا متعبين جداً بعد ان قطعا مسافة اربعمائة ميل .

وسألته بدهشة بالغة :

ـ هل لك ما تضيفه على ذلك ؟

ـ لا . . ولكنهما من بني هاجر بكل تأكيد ويحملان بندقيتين من نوع

« موزر » ويضعاهما على الأرض وهما يشربان الماء. ومن الخطأ أن أحاول افتراض معرفة اسميهما .. ان الله وحده يعرف ذلك .

ودهشت مصدقاً كل ما قاله لانني اعرف هؤلاء القوم . ثم غادرت المكان بعد ان اعطيت اقراصاً من الاسبيرين كانت معي في السيارة لمحمد السيد .

وبعد أربعة أيام ذهبت في الساعة الثامنة صباحاً الى مجلس الشيخ عبدالله المبارك الصباح ، نائب الحاكم لشؤون الأمن العام وشؤون البدو . وفي الأيام التي يشتد فيها الحر يعقد مجلس سموه في الشرفة الواسعة امام مكتبه . وكنت انا قد اتيت لاقدم احتراماتي كما كنت أفعل غالباً . وكان الزائرون في ذلك الصباح كثيرين فالقيت عليهم نظرة سريعة وكان بينهم صديقنا المري ذي اللحية السوداء الطويلة جالساً بين الحرس والخدم على الأرض . وقد رآني هو ايضاً وبعد أن ألقى علي نظرة معرفة أشاح بوجهه .

جلست الى جانب الشيخ عبدالله لمدة عشرين دقيقة عندما قدم الى المجلس رجلان يركبان جملين اصيلين رائعين احدهما ابيض والآخر بني . وبعد ان ربطا جمليهما دخلا المجلس . كانت ملابسهما تدل على انهما من بني هاجر وفي مقتبل العمر ويبدو ان صاحب الجمل الأبيض هو الأكبر سناً . ووقفا باحترام امام الشيخ عبدالله وكأنهما ينتظران السماح لهما بالكلام فحياهما الشيخ عبدالله ورحب بهما وسألهما عما يبتغيانه .

وأجاب الاكبر بقوله :

– يا عبدالله المبارك .. نحن من بني هاجر من اقارب بن شافي شيخنا الاعلى . وقد اتينا من بعيد .. من قطر بلاد بن ثاني . لقد هرب أحد عبيدنا ونحن نقتفي آثاره منذ خمسة عشر يوماً . ذهب اخي للتفتيش عنه في قرية فحاحيل وقرى القصور الاخرى على الساحل بينما ذهبت انا الى الجهراء لأتأكد ان العبد الهارب لم يمر من هناك في طريقه الى البصرة . وقد فشلنا حتى الآن في تحديد مكان الرجل او الحصول على اخباره .. لذلك نعتقد انه وصل الى الكويت مدينتكم المضيافة واختبأ فيها . وبدون مساعدتك لا نستطيع ان نفعل شيئاً لذلك

نتوسل الى سموك بكل احترام ان تساعدنا في بحثنا عنه .. اطال الله عمرك .

وكانت القصة مطابقة بالضبط لتلك التي اخبرني اياها محمد السيد في الصريفة ببرقان . وتتطلع الى محمد من بين جميع الرجال واطلق على شفتيه ابتسامة كأنه يقصد بها ان يقول « ألم أقل لك ذلك ؟ »

آثار المخلب

أخبرني الشيخ عبدالله المبارك فيما بعد ان انعبد الهارب لم يقبض عليه ، كما انني لم اشاهد محمد السيد ثانية . فبعد ان فشل في الحصول على عمل مع الشيخ أحمد حاكم الكويت حاول ان يلفت نظر الشيخ صباح الناصر الصباح الى مواهبه لكي يستخدمه . وكان الشيخ صباح في ذلك الوقت مخيماً قرب الشاطىء على بعد خمسة اميال الى الجنوب من قرية شعيبه . ولكنه لم يستخدم محمد بل ابقاه معه مدة خمسة أيام ثم أهداه هدية لا بأس بها قبل ان يتخلى عنه .

وابلغني الشيخ صباح فيما بعد ان سائق سيارته شكا في يوم من الايام ان ساعته قد سرقت منه وهو يستحم . كان المد قد انحسر عندما وصل السائق الى الشاطىء فخلع ثيابه ووضعها على الرمل ووضع ساعته فوق الملابس ونزل الى البحر . ولم يلاحظ السائق أحداً اقترب من الشاطىء ولكنه اعترف بأنه لم يكن يراقب باهتمام . ولما خرج من الماء وجد ملابسه على حالها ولكن الساعة كانت مفقودة .

وأعلم السائق الشيخ صباح بالسرقة في الحال وكان محمد السيد موجوداً في الخيمة ولكن احداً لم يطلب نصيحته أو مشورته . ولكنه لاهتمامه بالامر وفضولاً منه انسل بهدوء ونزل الى الشاطىء حيث كانت الملابس قد وضعت على الرمل وتتبع آثار اقدام السائق عندما نزل ليسبح . ومع ان محمد تجول في المكان ليتفحصه ، فانه لم يجد أثراً لأي إنسان آخر في المنطقة والآثار الوحيدة الموجودة هي التي تركها السرطان الموجود بكثرة على الساحل . وهذا السرطان من النوع الصغير وله مخلب اطول بكثير من المخلب الآخر . وهذا السرطان

يعيش في جحور يبني حولها جدراناً من الرمل للحماية على جانب واحد .

وكان أثر أحدثه السرطان يقود نحو المكان الذي وضعت فيه الملابس حيث يشكل عدة دوائر حولها ثم يعود باتجاه عكسي . لم يفكر محمد بهذا في بادىء الأمر وظن ان السائق يكذب وانه فقد ساعته في مكان آخر واختلق هذه القصة لسيده ليحصل منه على ساعة جديدة .

وعاد محمد الى الخيمة قلقاً يفكر بحادث السرقة . وفي صباح اليوم التالي توجه الى نفس المكان على الشاطىء وكان المد قد ارتفع هذه المرة وزالت معه جميع آثار اليوم السابق . فجلس قرب الشاطىء ينتظر انحسار المد .

وبدأ كل سرطان يخرج من حجره ويدبدب على الرمل . ومشى محمد نحوها فتفرقت واختفت في جحورها . وبعد ان تفحص آثارها فترة من الزمن تعرف محمد من بين خمسين أو ستين منها على واحد كان قد رآه قرب الملابس في اليوم السابق . وتبع ذلك الاثر بدقة مسافة مئة ياردة الى ان وصل الى جحر السرطان فوجد في اسفله ساعة السائق كما هي .

اكد لي الشيخ صباح الناصر ان هذه قصة حقيقية ولكن الشك ظل يخامرني فقمت بتحريات حول هذا الموضوع . وقد اعطاني التأكيد الذي ابحث عنه شخص يدعى علي بن لافي وهو من رعاة العوازم في ١٠ تموز . ولم يكن لهذا الراعي اية علاقة بالشيخ ناصر أو مخيمه ولكن خيمته لم تكن بعيدة عن خيمة الشيخ . وقد مر المرّي وتوقف عنده لتناول العشاء فأخبره القصة مباشرة .

علي العريق لا ينسى

كان في خدمة الملك ابن سعود ثلاثةمن أشهر متتبعي الآثار في قبيلة آل مرّة وهم الاخوة علي ومحمد وسالم العريق . وقد اخبرني قصة تتعلق بهم الشيخ عبيد المتلقم سيد عجمان ومن أقدم اصدقاء الملك ، وذلك في ١٣ آب ١٩٤٣ . وأكد القصة علي العريق في وقت لاحق عندما قدم الى الكويت وتوجه لزيارتي .

أيام حملة اليمن سنة ١٩٣٤ توجه الشيخ جفران الفقم رئيس فرع السحابة في

مطير الى الرياض مع فريق من الشيوخ واتباعهم في زيارتهم السنوية للملك ابن سعود . وكانت هذه الزيارة عادة تتم خلال الشهر السابق لرمضان . وبعد ان يقدم هؤلاء الاحترام والولاء للملك يعودون الى عائلاتهم محملين بالهدايا التقليدية من مال وثياب .

وتناهى الى جفران ذات صباح ان ذلولين من ذلوله[*] سرقا في الليل من قطيعه الصغير الذي كان يرعى خارج الرياض .

وقد وجدت آثار اقدام اللصوص الثلاثة سليمة كما هي مع آثار الجملين .

ولما علم الملك بالقصة أرسل في طلب علي وسالم العريق . وبعد ان تفحصا الآثار انطلقا على جمليهما وتتبعا آثار اللصوص من ارض الخيام في بنبان خارج الرياض الى الرماح . ومن هناك قادتهما الآثار عبر صحراء الدهانة الى السمن حتى وصلا الى جارية سفلى اي مسافة ٢٥٠ ميلا . وهنا تتبعا آثار اللصوص الى أن وصلا الى الخيمة التي كانوا يجلسون فيها مع نسائهم .

وتمكن واحد من اللصوص من الهرب . وقد اعتقل علي وسالم اللصين الآخرين وأوسعاهما ضرباً بعد ان شدا وثاقهما واقتاداهما الى الرياض مع الجملين المسروقين اللذين أعيدا الى جفران الفقم . أما اللصان اللذان تبين إنهما من مطير قبيلة جفران فقد أودعا السجن حيث بقيا سنة كاملة قبل ان يطلق سراحهما .

وحدث بعد خمس سنوات في الرياض ان كان علي العريق خارج المسجد بعد انتهاء صلاة الجمعة . وكان بين الخارجين من المسجد شخص غريب على علي ولكنه لما شاهد آثار أقدامه عرف علي انه اللص الذي هرب منه في جارية فألقي القبض عليه وجلد ووضع في السجن حيث توفي بعد فترة من الزمن .

وقد أكد لي علي انه يستطيع ان يتذكر أثر أي رجل او جمل لمدة عشر سنوات ولم يحدث انه أخطأ مرة .

---

* الذلول جمع جمال تستخدم للركب .

رحمة الملك

أخبرني علي العريق القصة التالية :

في خريف سنة ١٩٤١ كان ثلاثة من شيوخ عتيبه عائدين الى مخيمهم بعد أن قاموا بزيارتهم السنوية الاعتيادية للملك في الرياض . ولحق بالشيوخ في الطريق ثلاثة رجال على جمالهم وطلبوا منهم مرافقتهم . ومع ان الشيوخ لم يكونوا يعرفون الأشخاص الثلاثة شخصياً إلا انه كان يبدو انهم من العتبان فرحبوا بهم كرفاق طريق .

وبعد ثلاثة أيام وصل الجميع الى المكان الذي يقصدونه . وبينما كانوا جالسين في الخيمة يشربون القهوة وصل خادمان من خدم الملك وترجلا عن جمليهما . والخادمان هما محمد بن دعوس من آل مرّه وخربوش بن صدحه من عجمان .

وبعد أن دارت القهوة على الجميع وتبودلت التحيات شرح محمد وخربوش للشيوخ الثلاثة كيف انهما تتبعا آثار الرجال الثلاثة الآخرين لأن الملك يطلبهم لعلاقتهما بسرقة جمال حدثت في الرياض منذ مدة قصيرة . واستلم الرجال الثلاثة تلقائياً وعادا مع محمد وخربوش في طريق الرياض دون مقاومة ودون ان يكبلا .

وتوقف الجميع لقضاء الليل في بقعة موحشة على بعد مايتين وخمسين ميلاً الى الغرب من الرياض . وبعد تناول طعام العشاء استسلم الحارسان للنوم فسرق السجينان منهما بندقيتيهما وأحزمة الذخيرة . ولم يعرف ما اذا كان الحارسان قد استيقظا قبل أن يحاول السجينان الهرب . ولكن الشيء المؤكد هو أن السجينين أجهزا عليهما وقتلاهما ثم عرياهما من ملابسهما وفرا بالجمال الخمسة باتجاه الشمال على أمل ان يصلا الى العراق قبل ان يفتضح الأمر .

ومضت عشرة أيام قبل أن يساور الملك القلق بشأن تأخر محمد وخربوش في العودة فنظم على الفور فريقاً للتفتيش . وجهزت ثلاث سيارات كما ان فريقاً من الرجال أرسل للبحث على الجمال . وكان في كل سيارة عدد من المسلحين ومعهم واحد من مقتفي الآثار من آل مرّه .. فكان علي العريق في السيارة الاولى

واستقل شقيقاه محمد وسالم السيارتين الأخريين .

وجرى البحث ببطء لعدة أيام لأن الباحثين كانوا يتوقفون من وقت لآخر لتفحص الآثار والاسترشاد بها . وأخيراً عثر الفريق على جثتي محمد وخربوش العاريتين . وذبح الرجال خروفاً للعشاء (كنوع من الضحية) وحفروا قبرين للقتيلين ثم قضوا الليل هناك .

ومن هناك اتخذت الآثار اتجاهاً شمالياً ولكنه كان من الصعب تتبعها لأنها بعد مضي كل ذلك الوقت أصبحت غير مرئية تقريباً . وبعد شهر من البحث الدقيق وصل فريق التفتيش الى قسيم ومن هناك أبرقوا الى الملك يخبرونه انهم عثروا على الجثتين وإن السيارات ما زالت تلاحق القتلة شمالاً . وسر الملك لهذه البرقية لأنه لم يكن قد تلقى أية اشارة من الباحثين لمدة ستة أسابيع . وبعث الملك بدوره برقيات الى جميع مراكز الحدود يأمرها بالتدقيق في هويات المارة للعثور على ثلاثة من العشبان معهم خمسة جمال .

وظل المريون الثلاثة يتتبعون آثار القتلة الهاربين دون هوادة الى أن لحقوا بهم في الرخاميه قرب الحدود العراقية . وكان خفر الحدود في ذلك المكان قد القوا القبض على اثنين من الرجال المطلوبين أما الثالث فقد اصيب بطلقة وقتل عندما حاول الفرار . وأبلغ الملك بجميع التفاصيل ثم عاد الفريق مع السجينين الى الرياض عن طريق السمن وتوقفوا في روضة خريم على الطريق حيث كان يخيم الملك مع عائلته . وعندما وصلت السيارات الى هناك كان الملك في الصيد . وتمكن أحد السجينين بطريقة او بأخرى من ايصال رسالة الى زوجة الملك المحظية الأميرة منيره متوسلاً اليها ان تستخدم نفوذها لدى الملك لانقاذ حياتهما .

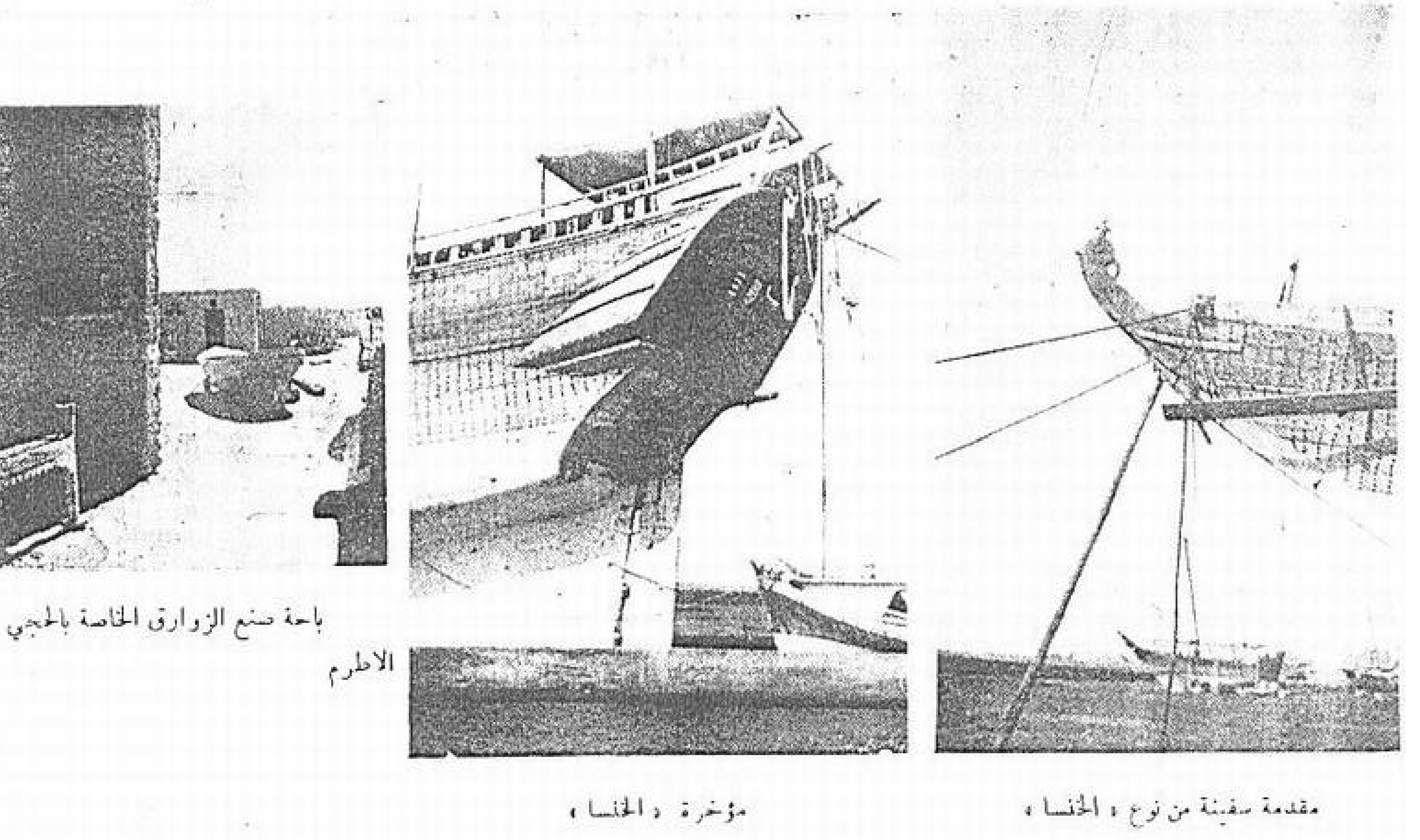
وقبل غروب الشمس في اليوم التالي عاد الملك من الصيد موفقاً إذ اصطاد مع مرافقيه عدة غزلان وكثير من الحبارى . وفي ذلك المساء أتت الاميرة منيره بابنها الصغير بندر واجلسته في حضن والده الملك قائلة كأنما على لسان الطفل : « طلبتك » .

وعرف الملك معنى طلبها فوراً فأجابها في الحال :



نبع عين العبد الكبريتية في منطقة الكويت المحايدة

المؤلف وحارسه المري فهيد ـ يوم عيد الميلاد ١٩٥٢ واقفان تحت شجرة السدر الشهيرة التي تدل على مركز آبار النفط في برقان



مقدمة سفينة من نوع « الخنسا »

مؤخرة « الخنسا »

باحة صنع الزوارق الخاصة بالحجي الاطرم

– « الله أعطاهم إياك » .

ثم قبّل ابنه الصغير .

وصدرت الأوامر بعـــد ذلك بنقل الرجلين الى الرياض وإيداعهما السجن . وفي اليوم التالي صدرت أوامر أخرى بإطلاق سراحهما وإعطاء كل منهما خمسماية روبية وبشتين جديدين وجملين للركوب وملابس وارسالهما الى أهلهما . وعـاد الملك فتبرع بمبلغ ألف وخمسماية روبية لعائلتي القتيلين محمـد بن دعوس وخربوش ابن صدحه .

ودهش الجميع في ذلك الوقت لهذا التصرف الغريب الذي بـــدر عن الملك ومضى زمن ليس بقليل قبـــل ان يعرف الناس قصة الأميرة منيرة وبندر .. وعندئذ فهم السبب الذي دفع الملك الى مثل هذا القرار .

التحضير للسفر

بقلم فيوليت ديكسون

السفر هي الكلمة التي تطلق على ذلك الفصل من السنة الذي تتهيـأ فيه السفن للسفر الى الهند وافريقيا وزنجبـار . ويأتي هذا الفصل في أوائل الخريف من كل عام . وفي وقت من الأوقات كانت جميع السفن الشراعية من نوع « البغلة » ذات مؤخرة مربعة الشكل ونوافذ خلفية . وكانت السفن من نوع « البوم » محصورة في تلك المتوسطة او الصغيرة الحجم .

في الخامس من أيلول سنة ١٩٤٠ كتبت ما يلي :

« لقد وضعت اللمسات الأخيرة على « البغلة » التي يملكها « النخاده » الثري عبد الوهاب القطامي الزايد قبل ان تغادر الميناء في ارتفاع المد اليوم .

« طيلة الاسبوعين الماضيين كانت الأيدي مشغولة بالعمل فيهـا . فقد كانت بحاجة الى شراع جديد ولذلك كان ما يزيد عن ثلاثين رجلاً يخيطون قطع القماش ببعضها في الطريق الواقع وراء منزل هـــلال المطيري تاجر اللؤلؤ المشهور . في البدايـة يرسم شكل الشراع على الارض بالحبال والمسامير ثم تخاط قطع القماش

ببعضها عليه . وعند المساء وفي الصباح الباكر يجري العمل على ضوء القناديل . وهذا الشراع الذي يعتبر أكبر الاشرعـــة يعرف باسم « العود » ويحتوي على خمس وخمسين قطعة قماش .

« أما « البغلة » ذاتها فقد جرى تشحيمها بزيت السمك وهو مـادة كريهة الرائحة من الهند ، وسدت جميع الثقوب التي ستأتي تحت سطح الماء بالقـــار . وأخيراً وبعد ان تمت جميع التصليحات الضرورية طلي القسم السفلي منها بطلاء أبيض مؤلف من دهن ذيل الخروف ونوع من الكلس . وتأتي صفائح الدهن عادة من الهند بالسفن كل ربيع . ويبلغ ثمن الصفيحة الواحدة عشر روبيات . وتحتاج البغلة الى ثلاث عشرة صفيحة منها. أما الكلس فيجلب من مكلا أو حضرموت أو خليج عدن ويقال انه أجود أنواع الكلس لهذا الغرض .

وفوق الجزء المطلي بالابيض مباشرة وتحت ظهر السفينة هنالك خط عرضه قدمان لم يشحم ولم يطل بالقار. ولن يكمل هذا الجزء إلا عند الوصول الى البصره وبعد ان تغسل « البغلة » يومياً لمدة اسبوع بمياه شط العرب العذبة .

والساعة الآن الحادية والنصف بعد الظهر .وصل المد الى ذروته وحان الوقت لخروج « البغلة » من الميناء . لقد رفع علم الكويت الاحمر على مؤخرتها ورفع علم آخر أصغر على طرف القوس إيذاناً بالتحرك .وتوجه عبدالوهاب القطيمي سباحة نحو المدخل الى العمود الذي ربط به حبل كان البحارة يشدونه . ولم يكن يرتدي سوى ازار فبدا أبيض اللون وهو واقف على الصخور كالتمثال . لقد كان جميل الطلعة ببشرته النقية وعينيه الزرقاوين .

«وشقت « البغلة » طريقها بين السفن الكثيرة التي ازدحم بها الميناء . وكانت تجر وراءها صاريتها الرئيسية التي سترفع في البحر ، وزورقاً صغيراً .

« واعترض طريقها قوس طويل لسفينة من نوع « البوم » فقفز اليها اثنان من بحارة « البغلة » ودفعاها قليلاً الى الوراء . وتهادت « البغلة» ببطء وكان صاحبها يعطي التعليمات ويلوح بيديه الى ان انتهت من عبور المدخل الضيق . وعندمـا غادرت مدخـل الميناء قفز عدة أولاد كانوا يجلسون على جدار الميناء الى البحر

وتعلقوا بصاريتها. وكان غيرهم من الأولاد يجلسون عند مؤخرة « البغلة » . وفي سفينة كبيرة كهذه تقسم مؤخرتها قسمين قسم فيه غرفة ذات نافذة والقسم الآخر مخصص للمتنفسات والمرحاض وله نافذة ايضاً .

« والآن رفعت صاريتها الصغرى ومع انه لم تكن توجد نسمات في تلك اللحظة إلا ان السفينة انحرفت جانبياً مع التيار . واخذ الأولاد يقفزون الواحد بعد الآخر من مؤخرة السفينة الى الماء وايديهم مرفوعة في الهواء وتسلق بعضهم جدار الميناء وساروا على صخور الشاطىء وكأنهم جرذان الماء . اما الذين ظلوا معلقين بالصارية فقد نزلوا الى البحر بعد خفق الريح بشراع « البغلة » ودفعها بسرعة الى داخل البحر . اما عبدالوهاب فقد نزل من مكانه وربما سبح الى الشاطىء أو الى زورق قريب استقله نحو الشاطىء .

« وستبقى «البغلة» راسية لخمسة أو ستة أيام في بندر الشويخ وهو ميناء امين للزوارق على بعد ميلين الى الغرب من مدينة الكويت في الوقت الذي يكون البحارة فيه يشترون حاجياتهم ويدبرون أمورهم قبل الابحار الى البصرة . ويأخذ كل بحار معه ثماني « دشاديش » قبل السفر لأنه سيبقى بعيداً مدة ثمانية أو تسعة أشهر . واليوم يعطى البحارة سلفة لاعالة اسرهم اثناء غيابهم ويختلف المبلغ ولكنه يبلغ على العموم ٦٠ روبية للرجل الواحد .

« في البصرة تحمل « البغلة » بالتمور ثم تبدأ رحلتها الطويلة . اما وقد مضى على بنائها مدة خمس وثلاثين سنة فهي تحمل الفين وخمسماية كيس من البضاعة وطاقماً من البحارة عدده ٢٥ رجلاً – أي حسب القاعدة رجلاً واحداً لكل ماية كيس . ويبلغ مجموع ما تجنيه هذه الرحلة حوالي عشرة آلاف روبية . ويبلغ مجموع رسوم الميناء وتكاليف مؤن البحارة حوالي الفي روبية . والباقي – أي ثمانية آلاف روبية – يذهب نصفه للبحارة والنصف الآخر يعتبر ربحاً بعد اقتطاع اية تكاليف لاصلاح السفينة بما في ذلك ثمن الحبال أو الاشرعة الجديدة التي تتطلبها السفينة . والأربعة آلاف روبية التي يتقاضاها البحارة تقسم الى ثلاثين حصة بينما يخصص الربح للقبطان والى اشخاص معينين من البحارة .

ويجري التقسيم كما يلي :

	مبلغ البحارة	الربح
(١) القبطان	حصة واحدة	٣ حصص
(٢) السكان (المرشد)	حصة ونصف	حصة ونصف
(٣) استاذ (ملاح)	حصة ونصف	حصة ونصف أو اثنتين
(٤) معلم	حصتان	
(٥) سيرانغ رقم ١	حصتان	
(٦) سيرانغ رقم ٢	حصة ونصف	
(٧) طباخ	حصة ونصف	ربع حصة
(٨) البحارة (عددهم ١٩ رجلا)	حصة لكل منهم	

« واذا اعطي البحارة سلفات وهم في احد الموانيء — اذا كانت الرحلة طويلة تعطى السلفة في بومباي أو زنجبار أو موازمبيق — يخصم المبلغ من الحصة النهائية . اما الاعمال البطولية التي يبديها أحد البحارة فيكافأ عليها بربع حصة أو نصف حصة اضافية .

« لقد شعرت ببعض الحزن لأن هذه السفينة الجميلة عادت الى البحر مرة ثانية . فلقد عشت قريباً منهم جميعا وأعرفهم شخصياً واحداً واحداً وتظهر في الميناء مشاعر الود عندما يعودون من رحلاتهم الطويلة ويتكرر ذلك سنة بعد سنة وهم في نفس الموقع . ولربما لن تعود « بغلة » عبد الوهاب وهذه رحلة الوداع . فكلما هبت العواصف في الخريف والشتاء اشعر بقلق نحوهم . ويكون الميناء في ذلك الوقت خالياً إلا من بعض زوارق الصيد العتيقة .

« مرت سنة من الزمان وعادت « بغلة » عبد الوهاب سالمة الى الكويت في أوائل الصيف . اما عبد الوهاب فاصبح يملك اليوم أكبر « بوم » في الكويت تستطيع استيعاب خمسة آلاف وخمسة أكياس. ويقال ان هذا النوع من السفينة يتسع لحمولة أكبر مما تستطيع البغلة نقله وهي اسرع لأن مؤخرتها مستطيلة دقيقة الرأس لذلك تعتبر افضل للملاحة لا سيما في البحار العالية . اما مقدمتها فطويلة

مستقيمة طلي طرفها باللون الاسود ورسمت فيه حلقة بيضاء وعلى عكس «البغلة» فبي ليست فيها نوافذ عند المؤخرة .

«ووعدني عبدالوهاب ان يريني «بومه» الجديدة التي اسماهـا «الفجر»، قبل ان تنزل الى الميناء ولذلك هيأت نفسي لهذه المناسبة في صباح الثـاني من ايلول سنة ١٩٤١ . ولما كان المد قد انحسر فقد لبست بنطلوناً ضيقاً وحـذاء قديماً قبل ان انزل الى رمال الميناء الموحلة حيث كانت السفينة . كان البحارة ناشطين في العمل بها وينشدون الاغاني وهم يطلون القسم الذي سينزل تحت الماء باللون الأبيض . وعلى مسافة منهم كان آخرون يغلون في وعاء كبير على النـار دهن الخروف مع الكلس لاستخدامه كطلاء كما ذكرت سابقاً .

« وبينما كنت اراقبهم يعملون جاء عبدالوهاب من خلفي وحياني وقال :

– هذا اليوم سيء لقد بدأ المد في الارتفاع . انني سآخـذك « بالمشوح » (زورق تجذيف) في يوم جميل عندما تكون السفينة مستعدة للإقلاع نحـو البصرة .. ان ذلك افضل بكثير .

وكانت مياه المد بلون الحبر بسبب كثرة الاقدام المتحركة في الوحل الاسود. وبدأت هذه المياه تغمر السلم المربوط من قمته الى جانب السفينة بحبل. وشعرت بخيبة أمل .

وقلت له :

– لقد لبست هذه الملابس خصيصاً يا عبدالوهـاب لأتمكن من تسلق السلم بسهولة . ولا تهمني المياه الموحلة لأن حذائي قديم لا اخاف عليه من التلف .

واصدر اوامره لأحد الرجال الذين كانوا يعملون في طلاء جانب السفينة ان يرتب الأمر . ومع ان الرجل كانت يده اليمنى مغطسة الى مـا فوق المعصم بالدهن والكلس فقد ذهب واحضر جذعاً من الخشب ووضعه عند قـدم السلم عبرنا عليه الى السلم ومنه الى السفينة . لقد كانت رائعة بالفعل وكان ظهرها لا يزال مغطى . وتسلقنا سلماً آخر الى « النيم » حيث شرح لي عبد الوهاب جميع التفاصيل .

وقال لي عبد الوهاب مشيراً الى مكان على السطح طوله ثمانية أقدام وعرضه قدمان : هذا هو مقعدي .

ثم دلني على مقعد الملاح وراء المقود في وسط السفينة وقال :

– هنا أمام مقعد الملاح مباشرة نضع البوصلة ونضع تحتها مصباحاً لليل . هذان هما العمودان اللذان يدلى منهما « الكميت » (زورق صغير) وهناك على الظهر قرب مقعدي نضع « المشوح » وأمامه يوجد خزانان للماء العذب ، واحد من كل جهة .

وأخذنا نتجول على ظهر السفينة باتجاه القوس .

– هذا هو الصندوق المغلف بالقصدير الذي يطهي فيه الطباخ الطعام ووراءه يوجد « الكشتيل » (برج المراقبة) .

وتسلقت القوس وسألت عن اسم قطعة الخشب التي يوجد فيها دولاب خشبي .

– هذه هي « الفخ » أو « البلوله » التي يدلى منها حبل المرساة . أما الآن فيجب ان ترى غرفتنا الرائعة التي لا يستخدمها سوى ركاب خصوصيين – لقد احتلها في الرحلة الماضية ابن الإمام يحيى إمام اليمن .

وتوجهنا الى مؤخرة السفينة مرة ثانية حيث نزلنا سلماً منحدراً من جهة الميناء . وعند أقدام السلم يقع باب الغرفة المربعة التي يبلغ ضلعها ١٢ قدماً والتي كانت ملأى بالأشرعة والحبال وقطع الحديد . وكان في سقف الغرفة منفذان زجاجيان للنور لأنه لم يكن فيها أي نافذة من أي نوع . وبعد ان اعتاد نظري على الضوء الخافت رأيت كتلاً كثيرة من الجيزان والصراصير السمينة على الحائط.

وصرخت بدهشة : صراصير !

وأجابني عبد الوهاب بقوله : لا بدّ .. يوجد جرذان أيضاً .

إذن هذه هي الغرفة التي يعتز بها !

وأضاف قائلاً : بعض النخاده لديهم غرف نظيفة ذات جدران مطلية ولكنني شخصياً لا اهتم لهذه الأمور .

وكانت أبواب المرحاض والمغسلة الملاصقين للغرفـــة مثبتة بسلسلة وقفل . وقد أرسل أحد البحارة على عجل الى أسفل ليأتي بالمفاتيح فغاب لحظة ثم عـاد حاملاً عدة مفاتيح . وأدير مفتاح باب المرحاض لكنه لم ينفتح لأن المرحاض كان مليئاً بجميع أنواع القطع الخاصة بالسفينة وكذلك كانت المغسلة ولم أستطع أن أرى شيئاً في الداخل .

وقال عبد الوهاب : هذه يستخدمها فقط النساء وكبار الركاب .

ولم أستطع ان أتصور نفسي استخدم مثل هذه المنتفعات في أيـــة رحلة . ويبدو أنه لا يوجد مكان آخر في السفينة لحفظ الأشرعـــة والقطع الأخرى فحشرت في المرحاض والمغسلة .

إن الصواري الكبرى لم توضع في مراكزها ولكن « العبد » الصاريـــة القصيرة التي تدعم الصارية الرئيسية كانت تقف هناك وكأنها اقتطعت مسافة ثمانية أقدام من ظهر السفينة . ومشى عبد الوهاب على القاعدة عبر الحواجز من جهة الى جهة ليشرح لي كيف توضع الصارية الرئيسـية في موضعها والمكان الذي ينطل منه الماء الراكد في دومس السفينة الى الخارج . ويبدو ان كل لوح خشب في السفينة وكل قطعة لها اسم معين ورغم انه اخبرني عدداً منها لكنه بقي الكثير الكثير . وفيما يلي بعض الملاحظات التي دونتها في حينه :

الاشرعة

للصارية الرئيسية	عدد قطع القماش
العود	٥٥
السفندره	٤٩
النكيت	٣٦
للصارية الثانية	
غالومي العود أو غالومي الكبير	٣٦
غالومي الصغير	٢٦

شراع مقدم السفينة ٢٣

ويبلغ عرض كل شراع من هذه الاشرعة ١٨ بوصة .

الحبال

١ – امار مولي	١٢ بوصة
٢ – امار شركي	١٠ بوصات
٣ – بريدون	٥ بوصات .

تستخدم الحبال للارساء في الرمل او الوحل اما حيث توجد الصخور فتستخدم السلاسل (الصناجل) .

وفي هذه الاثناء كان المد قد ارتفع اكثر بحيث انه غمر السلم على ارتفاع قدمين من الأرض . وسبقني عبد الوهاب في النزول وأحضر عدة ألواح من الخشب لأتمكن من النزول دون ان تبتل قدماي بالماء :

وقلت له مودعة :

– رحلة طيبة وحظاً سعيداً يا عبد الوهاب . اعادك الله سالماً .

وخرجت « الضو » بابهة عظيمة ذلك المساء بهدوء ودون ضوضاء وجرت الى البحر بواسطة زورق بخاري الى مرساها . وابحرت في ليل ٢١ ايلول .

وعادت في أواسط حزيران متعبة بعد رحلة طويلة وقد نفذ اليها الماء .

وضع السفينة في المرسى

بقلم فيوليت ديكسون

وكتبت في ذلك الوقت ما يلي :

ظهر اليوم عندما يرتفع المد ستنزل « الضو » الى الميناء . وهي الآن راسية على بعد ميل من الشاطىء ، وقد أنزلت صاريتها الرئيسية ويرفرف العلمان فوق مؤخرتها وعلى القوس .

« وعندما تعطى الاشارة ترفع الأشرعة وتسحب المراسي الى ما فوق الماء

ثم تبدأ السفينة بالتحرك . ويبدأ البحارة عندئذ قرع الطبول ببطء في البداية ثم تصبح قرعات الطبول أعنف وأعلى كلما اقتربت من الميناء يرافقها الغناء والتصفيق . والآن يهب نسيم عليل . ومع دخولها الميناء يبدأ البحارة واحداً تلو الآخر يقفزون منها الى البحر ويسبحون الى « النقعة » (جدار الميناء) حيث يشدون الحبال . وتنزل الأشرعة فتتهادى ببطء في مكانها « بالنقعة » ، وتسكت الطبول برهة ريثما يفرغ البحارة من فك الأشرعة . ويتوقف الغناء أيضاً ليحل محله نشيد « هيلا هولا » الذي يطلقه البحارة وهم يشدون الحبال لطرح المراسي في الماء .

« وتوافد الأولاد بزوارقهم من كل مكان للاستمتاع بالمشهد وهم يحومون حول مؤخرة السفينة . المد لا يزال يرتفع . وقبل ان تدار ستوضع في المكان الذي ستقضي فيه أشهر الصيف من كل سنة . كل شيء هادىء الآن على ظهر السفينة وقد انشغل البحارة في تثبيت « الفرمان » (العصا التي تحمل الشراع) في وسط السفينة ، وفي ارخاء الحبال استعداداً لخفض الصارية . وتحنى الصارية بهدوء نحو المؤخرة ففي البداية تجر بحبال تعمل من مؤخرة السفينة ثم تخفض بواسطة حبال تعمل من القوس الى ان تستريح على سطح الغرفة . ومن هناك توضع في وضعها الأخير بأن تلقى على طول السفينة – قاعدتها على القوس ورأسها على سطح الغرفة – وتبقى هناك . ثم تطلى بزيت السمك .

« ان الاهتمام الزائد الذي تلقاه هذه المراكب لحمايتها من أشعة الشمس الحامية طيلة شهرين لأكبر دليل على مدى حب أصحابها لها بنفس الطريقة التي يحب فيها البدوي جمله . انها ضمانة حياته ومصدر عيشه . وتنصب على ارتفاع اربعة خيمة فوق ظهر السفينة من حصر مصنوعة من أوراق البردي تمتد من مقدمة السفينة الى مؤخرتها . أما الصواري والفرمان فتلف بحصر مماثلة وتوضع على الشاطىء . وتطلى السلاسل والمراسي بالقار وتوضع في مكانها بدقة . وتعلق حصر مصنوعة من الياف جوز الهند حول جوانب السفينة لحمايتها من حرارة الشمس الشديدة .

وتسند السفينة بأربع دعامات قوية من كل جهة لمنعها من التأرجح والاهتزاز اثناء انحسار المد .

وقد صادرت حكومة الهند « الضو » سنة ١٩٤٣ لانها تعاطت التهريب . ويسرني ان أذكر هنا ان عبد الوهاب لم يعد قبطانها .

وأخبر الشيخ أحمد حاكم الكويت مرة زوجي ان كلمة « الضو » لم تكن معروفة للعرب وقد اكتسبت معنى تاريخيـــاً بسبب الهجوم الذي تعرضت له الكويت من قبل بني كعب في أيام مريم حـين أمرت خمس « ضوى » كبيرة .

وعلم زوجي من الحاكم الحالي سمـــو الشيخ عبدالله السالم بعد استفسارات أخرى ان الكلمة لم تكن معروفة في الخليج الفارسي ولكنه اكتشف ان الذين يركبون البحر من أهالي اليمن كانوا يستخدمونها أحياناً . وقد حصل سموه على هذه المعلومات من بعض اليمنيين الذين كانوا في الكويت . وأخبره زوجي أن هنالك لفظة فارسية تنطق « ضويد » ومعناها سريع ، وانه من المحتمل ان يكون بنو كعب قد اشتقوا كلمة « ضو » منها دلالة على سرعة الزورق . وقال سموه إنه ربما كان ذلك صحيحاً .

والى جانب السفن الكويتية تشاهد احياناً بعض السفن الأجنبية راسية في الميناء خلال الصيف ومنها مثلاً :

١ ــ « عبري » من صيبوت في حضرموت وهي سفينة ذات صاريتين بارزة المقدمة والمؤخرة .

٢ ــ « الزروق » او « الزروقة » من جيزان او قيزان في اليمن وهي سفينة ذات صاريتين بارزة المقدمة والمؤخرة . وتطلى مؤخرتها بألوان زاهية .

٣ ــ « السمبوق » من المكلا وعدن وهي تختلف قليلاً في جسمها ومؤخرتها عن تلك التي تصنع في الكويت لصيد اللؤلؤ ولكنها أكبر . وتطلى جوانبهـــا عادة بخطوط من الأزرق من الأبيض .

٤ ــ « النبوش » وهو زورق صغير مرفق بسمبوق المكلا ويكون لها بمثابة المشوع للبوم . ويمتاز هذا الزورق بانه يخاط بعضه البعض بالحبال ولا تستخدم

المسامير في بنائه . وله مقدمة ومؤخرة بارزتان .

٥ – « المنجي » من بومباي وهي سفينة ذات صاريتين وقوسها يشبه قوس بلم كبير كالذي يستخدم في أنهر العراق أما مؤخرتها فتشبه مؤخرة « الجليبوت » الكويتي . وتسير هذه السفن عادة بين بومباي وكراتشي وكاتياوار .

٦ – « البدن » أو « البدني » من مسقط وعمان وهي سفينة شراعية متوسطة الحجم وذات صارية واحدة .

٧ – « البقره » من الساحل الجنوبي وعمان وهي سفينة لها قوس بارز حاد وصارية واحدة .

انقاض مدينة قديمة

في أوائل نيسان سنة ١٩٤٢ دعيت وزوجتي لزيارة نائب رئيس شركة النفط العربية الأميركية ومديرها العام في الظهران . فسافرنا بسيارتين برفقة سالم المزين ومحمد بن طاهوس من عجمان . وكنت أقود سيارتي بنفسي وتصرفت كمرشد . وكان أثناء وجودي في الظهران ان اخبرني القصة التالية الأمير محمد الماضي من مدينة الخبر القريبة .

قال الأمير محمد :

– « منذ سنة أو سنتين كان الملك متوجهاً لقضاء عمل في منطقة نائية على طريق مكة – الرياض . وكانت معه سيارة واحدة اما السيارات المرافقة فقد أمرت بان تتبعه فيما بعد .

« وحدث انغرقت عجلات سيارة الملك بالرمل فنزل منها واستراح في ظل شجيرة « غرطا » فيما أخذ مرافقوه يحاولون ان يخرجوا السيارة من الرمل .

« وتوجه بدوي عابر سبيل نحو الملك المسترخي في الظل وسأله ما اذا كان الامام قد مر من هناك او انه يحتمل ان يمر في ذلك اليوم . ولما سأله الملك عن سر لهفته لمعرفة ذلك اجابه الرجل بانه يود مقابلة الامام الذي يمتدحه جميع الرجال والذي يقال عنه انه يغدق العطاء على المسلمين .

« وأضاف البدوي قائلاً ان الملك يعطي قليلاً للأشخاص الذين يقابلونه وسط جمهور من الناس ولكنه عندما يقابل الفقراء في الخلاء يعطيهم كثيراً ويقال انه يعطيهم خمسة وعشرين ريالاً وأحياناً ثلاثين ريالاً .

« وأجابه الملك قائلاً : يا صديقي اذا كنت تصر على معرفة الحقيقة فان الامام سبقنا . أما نحن الذين تراذا هنا فلسنا سوى خدامه وسنلحق به حالما نخلص من هذه الورطة .

« وقال له أيضاً انه أي الملك لكونه مسلماً تقياً يخاف الله ويرغب في عمل الصالحات فانه سيعطيه خمسة وعشرين ريالاً من جيبه ومبلغاً مماثلاً باسم الملك الذي يعمل في خدمته .

« وأشرق وجه البدوي فجأة ثم أمسك بيد الملك وانحنى وقبله في أنفه وقال : السلام عليكم يا عبدالعزيز ... الآن عرفت انني أخاطب الامام نفسه !

وبفضل نائب رئيس شركة النفط العربية الاميركية ومديرها العام تمكنا في طريق عودتنا من الظهران من زيارة جبل البحري في جبيل وأنقاض مدينة ثاج القديمة في وادي المياه بأواسط الاحساء . وقد تم ذلك بفضل خدمات مرشدهم العجماني خميس بن رمضان الذي رافقنا وأعادنا سالمين الى الكويت .

وجبل البحري هي تلة من اثنتين قرب مدينة جبيل الساحلية الصغيرة والمعروفة بين العرب باسم عينين . وللبدو هناك حكايات كثيرة عن وجود كنز ثمين مخبأ في باطن جبل البحري . ووجدنا هناك صخرة كبيرة ملساء نصبت عمودياً حفر عليها بعض الكلام . ولما تقدمنا لدراسة الكلام المحفور على الصخرة وجدنا إنه من الصعب رؤيته واستنساخه لأن صخرة كبيرة قد سقطت فوقه من الأعلى ويقال ان الكلمات الآتية محفورة على الصخرة :

من الجبل البحري
الى الجبل البري
حمّل سبعة جمال
في سبعة أيام

امانة الله واحدة .

وفوق هذا الكلام المحفور جيداً في الصخرة يوجد ثقب مربع ضلعه ثماني عشرة بوصة وينتهي بثقب بحجم قطعة نقود صغيرة. ويقولون انه يمكن الحصول على قطن أو صوف مطيب من الثقب الداخلي بواسطة قضيب حديدي رفيع أو بواسطة سلك طوله قدمان معقوف الطرف .

وبدل ان نسلك الطريق القصيرة المباشرة الى الكويت عبر أبو حدريه لدى مغادرتنا جبيل، اتجهنا غرباً وسلكنا طريق الرياض الذي يقطع صحراء الدهانه في أم عقله أو معقله كما تسمى عادة .

وأول واحدة صادفناها هي الحنات حيث تقيم هجرة للاخوان من قبيلة العوازم . والى غرب القرية كانت تبدو آثار انقاض وكانت الآبار مبنية من حجارة كبيرة مقطوعة جيدة تدل على حضارة قديمة . ولاحت لنا في البعيد باتجاه الجنوب الغربي تلة غريبة مسطحة الرأس ومربعة الشكل تقريباً ، اخبرنا مرشدنا بأنها تدعى القويديات وهي تبعد أربعة اميال الى شمال غربي ثاج .

كان الوقت قصيراً فلم نمكث طويلاً في الحنات . ووصلنا الى ثاج في الخامسة والربع مساء فكان لدينا ثلاثة أرباع الساعة نشاهد فيها المكان قبل غروب الشمس . وفيما كان الخدام والسواقون ينصبون الخيام بالقرب من بئر في حقل من الشعير ، تجولنا نحن بين الأنقاض .

وفي ثاج أيضاً تقيم هجرة للاخوان من العوازم . وكانت غالبية البيوت التي شيد بعضها بحجارة من الانقاض والقسم الآخر بني من الطين مهجورة في ذلك الوقت من السنة لأن أصحابها لا يقطنونها إلا في الصيف. ولكن بعض المزارعين يقيمون هناك بصورة دائمة ويزرعون بعض المواسم .

لقد بنيت القرية على حافة سبخة كبيرة ولكن الانقاض تتعدى القرية الى الشرق وتغطي مساحة قدرها ميل مربع . وعلى سلسلة تلال واطئة الى الجنوب الشرقي عبر منخفض فيه بئر أو بئران كانت هناك عدة مرتفعات صغيرة قال مرشدنا انها تضم مزيداً من الانقاض ولكننا لم نزرها .

كانت الاواني الخزفية المحطمة في كل مكان . وكانت كميات من هـذا الحطام تغطي أربعة تلال الى الشمال الشرقي من المدينة . ويبلغ ارتفاع هذه التلال حوالي اربعين قدماً وربما كانت قبوراً لشخصيات مهمة أو أماكن لتقديم التضحيات .

وكان واضحاً ان بعض اجزاء القرية هي بقايا مدينة قديمة . امـا البعض الآخر فقد شيد بحجارة جمعت من الانقاض . كانت الاطارات المقلقة والعارية تشكل جدران المنازل اما الجدران التي يبلغ ارتفاعها أربعة اقدام عند طرف القرية فكانت بقايا جدران اساسية . ومن الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وفي خط يشكل زاوية قائمة ليسير في محاذاة وادي المياه توجد اساسات سور طويل قديم سماكته ٢٠ قدماً وحوله بقايا خنادق للتحصين . وداخل هـذه الحدود الاصلية للمدينة توجد اساسات عـدة منازل انتثرت حولها حطام أوعيـة خزفية .

والى جنوب القرية كان هناك مـا يبدو انـه قبور . وكانت تظهر قرب السطح مداميك سميكة من الحجارة المنحوتة تشكل كل ثلاثة منها قبراً في بعض الاحيان . وفي اماكن أخرى شاهدنا حجرين فقط . وهناك ايضاً رأينا اطاراً كبيرا طوله خمسة اقدام نحت جيداً ووضع في مكانـه بطريقة هندسية . ومن احدى الجهات وعلى مسافة قدم من القمة حفر فيه ثقب عرضه ثلاث بوصات مما يدل ان الاطار وضع في مكانه بواسطة حبال ادخلت في هذا الثقب . ولم تكن عليه اية نقوش كما اننا لم نجد نقوشاً على أي حجر آخر .

وشاهدنا في جدران المنازل قطعاً رائعة من الحجارة وضعت افقياً ممـا يعني ان اية نقوش عليها اصبحت مغطاة . وكانت جدران الحدائـق وحجارة الآبار في شمال شرقي القرية منحوتة في معظمها . وتجر المـياه من الآبار بواسطة الحمير وكانت هنالك مقبرة صغيرة في الوادي الى شمال شرقي القرية .

ولم نلتقط اية ادوات صوانية من بين الانقاض . وكانت الاواني الخزفيـة المحطمة المنثورة هنا وهناك ذات الوان مختلفة منها الأحمر القاتم المائل الى السواد والرمادي القاتم والاحمر الفاتح والاحمر مع لمعة من الداخل بلون الزبدة او لمعة

سوداء من جهة واحـــدة فقط . وكانت هنالـــك قطع من قوارير كبيرة ذات زخارف مماثلة عند الرأس . واسترعى انتباهنا شيئان مربعا الشكل لكل منهما اربعة قوائم قصيرة اظن انها كانت تستخدم لحرق البخور فيهــــا . وقد عثرنا عليهما على مرتفعين بجانب خيامنا . وكان احدهما من الخزف الاحمر المـائل إلى الســواد ابيض اللون من الداخل ولا توجد عليه أية زخـارف . اما الآخر فكان محطماً وهو من الخزف الأحمر عليه رسوم حول الرأس وعلى القوائم . وعثرنا بين الانقاض ايضاً على عدة قطع صغيرة من المعدن اصبحت خضراء اللون مــع مرور الزمن . ووجدنا على مرتفع بجـــانب خيمتنا رأس فـأس من الحجر ومخرزاً حجريا .

ولم نحاول دخول القرية لأن أهليها قوم متطرفون . ونظراً لضيق الوقت لم نتمكن من تفحص الأماكن المحيطة بها بدقة . وعلى كل حال لا يستطيع أحـد الحصول على ترخيص للقيام بحفريات بين الانقاض في المملكة السعوديـة ولكن مجرد حفر بسيط بين المرتفعات من شأنه ان يكشف اسرار تاج .

وبعد مغادرتنا المكان توقفنا قليلاً عند التلة المسطحة المسماة التوبيـــديات ولكننا لم نتسلق الى قمتها . ويبلغ ارتفاعها تقريباً ثلاثمائة قدم ويبلغ طولهـــا حوالي اربعمائة ياردة . والانقاض الوحيـدة الظاهرة هناك هي بقايا سور ارتفاعه اربعة او خمسة اقــدام شيد عند منتصف الطريق في جانب التلة . ويبدو ان التلة نفسها كانت في يوم من الأيام مركزاً للمراقبة يحمي المسالـــك الشمالية الى مدينة تاج ، وان المكان المحاط بالسور كان ملجأ محصناً تقاد اليه قطعان الغنم والماعز عندما يحدق بها الخطر .

جزر العصافير

بقلم فيوليت ديكسون

سألت ابراهيم الفوداري وهو صياد سمك يعمل حارساً للمنـارة في جزيرة مـكان عن أفضل وقت لزيارة جزيرة عوحـه[1] لأنني كنت أريد ان أرى الطيور

تمعشش هناك . فأخبرني ان اولاده زاروا عوحه في السنة الماضية (١٩٤١) في الثالث والعشرين من ربيع ثني – وهو الشهر الرابع في السنة الهجرية – وجمعوا حوالي ١٥٠ بيضة باعوها في اسواق الكويت .

وقال لي : ان الثريا تظهر في الخامس والعشرين من الشهر ، فإذا قدمت في الواحد والعشرين يكون الطقس مناسباً .

وطلبت منه ان يأتي إليّ مرة ثانية قبل عدة أيام من موعد الرحلة لكي نضع الترتيبات الأخيرة . وجاء الرجل في الخامس من أيار وقال انه سمع ان أولاده سيتوجهون الى عوحه لجمع البيوض ولكنه منعهم من ذلك حتى يتسنى للخاتون (أي السيدة ويقصدني أنا) ان تذهب معهم . ولذلك اقترح القيام بالرحلة في وقت مبكر .

ووضعنا الخطة على أساس أن نغادر الكويت في ساعة مبكرة من صباح الخميس في السابع من أيار . وقررت أن أصطحب معي خادمنا البدوي مسلم المزين الذي كان صياد لؤلؤ في وقت من الأوقات ، وابنة أخيه مشا بنت ابراهيم المزين .

كان كل المتاع الذي حملته معي عبارة عن خيمة وزنها ثلاثون رطلاً وفراش ولحاف وسجادتين من الصنع المحلي ووسادتين . ولأنني كنت سأحل في ضيافة عائلة الفوداري فقد أخذت لهم معي هدية تتألف من نصف كيس من أرز كراتشي ونصف كيس من الطحين وأوقية من الدهن وأوقية من القهوة ومند من الحطب .

وفي ساعة مبكرة من صباح الخميس جاء بلم ابراهيم الى الميناء أمام منزلنا . وكان المد عالياً فسهل علينا ذلك تحميل أمتعتنا وسرنا مع نسيم عليل يهب من الغرب . وبقينا في نفس الاتجاه ساعتين اتجهنا بعدها إلى شمال غربي مكان . ووصلنا بالتالي في الساعة الحادية عشرة والنصف وكان الجو حاراً شديد الرطوبة . وكان منزل ابراهيم يقوم على الشاطىء الغربي وهو عبارة عن مجموعة أكواخ صغيرة واطئة مبنية من الحجر . وبالقرب منه تقوم المنارة البيضاء التي

ترفع على صارية كل مساء بعد غروب الشمس . وعلى بعد مايتي ياردة كانت هنالك شجرة تحتمي أبقاره وأغنامه في ظلها من شمس الظهر الشديدة الحرارة .

تغطي الجزيرة مساحة من الأرض تبلغ ثلاثين فداناً فيها خزانان للماء من الاسمنت تملأ بماء المطر كل سنة . وفيها أيضاً مراع جيدة وأجمة على شكل شنان يغطي الجزيرة . وهذه الشجيرات تقطع – ولا تقتلع من جذورها – كل خريف عندما تيبس ، لتستخدم حطباً للنار . وتنمو هذه الشجيرات من جديد كل ربيع وصيف فتعطي الجزيرة مشهداً أخضر رائعاً .

يكسب ابراهيم معيشته من الاسماك التي يصطادها مع اولاده ويبيعونها في اسواق الكويت . وتتألف عائلته من زوجته وثلاثة اولاد متزوجين ، وزوجاتهم واطفالهم ، وابنة متزوجة وثلاث بنات اخريات أعمارهن عشر سنوات وثماني سنوات وخمس سنوات . وللنساء مكان خاص يقضون اوقاتهم فيه ويدعى العريش يقع على الشاطىء تماماً قرب المنزل. وقد بني العريش من صواري سفن قديمة وسقف بشباك صيد غير ذات فائدة وصفت فوقها حصر مصنوعة في اهوار العراق. ونصبت خيمتي وراءه وكنت في النهار استلقي في ظل العريش على فراش ووسائد .

وباستثناء ساعة واحدة قبل الظهر كانت تهب رياح جنوبية او غربية فكان الطقس بارداً منعشاً في هذا الوقت من السنة . وجاءت بقرتان لتحلبا عند الظهر ثم استراحتا في ظل الشجرة حتى الساعة الثالثة حين حلبتا مرة ثانية قبل ان تتوجها الى المرعى . وعند الغروب كانت تربط كل واحدة منها وتعطى علفة من نوى التمر او التمر . وعند الغسق جاء عدد من الاغنام والماعز لا يتجاوز الحادية عشرة وارتموا تحت الشجرة لقضاء الليل هناك .

وطهى لي النساء غداء لذيذاً من الارز طيباً وبسيطاً ، ومجموعة من الأسماك طهيت بطرق مختلفة ، وتموراً طهيت بالعسل ، وقدراً من اللبن . وعلى العشاء تناولنا مزيداً من الأرز والسمك وعجة من بيض الحمام مقلية بالزبدة . ومساعدة للهضم احضرت لي كأس من الماء معطرة بلقاح ذكر النخل .

وبعد منتصف الليل هبت ريح جنوبية حملت معهـا كثيراً من الندى . ولم يكن بالامكان الابحار الى عوجه في الصباح التالي كما كنت آمل فقضينا يوماً كسولاً آخر في مكان . وذهبت مع الأطفال أبحث عن أعشاش العصافير كما قضيت بعض الوقت أراقب الرجال وهم يصنعون شباك صيد جديدة من أوراق البردي المستحضر من العراق ، بينما كان آخرون يقشرون الياف النخيل ليصنعوا منها حبالاً يربطون بها شباكهم . وهذه الألياف تسمى « عسو » . وتجدد الشباك باستمرار لأن العواصف تمزقها بسهولة . أما أنواع الأسماك التي اصطيدت اثناء زيارتي فهي الزبيدي والسبيتي والشعم . وقد علق بالشباك عدد من اللخمه* مع صغارها .

هنالك نوعان من اللخمة التي يخشاها الناس في تلك المياه . نوع له جوانب مستديرة ويعرف في الكويت باسم « سفيني » ، ونوع آخر جوانبه بارزة تشبه الأجنحة وذيله أطول بكثير وأرفع ويشبه السوط . ويدعى هذا النوع « انصيفي » . وقد ذاق ابراهيم وأولاده لسع هذه المخلوقات الشريرة في وقت أو في آخر مما أقعدهم أياماً وشهوراً على بعضها . ويبدو ان لسعة صغار اللخمة ليست أقل سمّاً من كبارها . ولسعتها عبارة عن شوكة شبيهة بالعظم طولها بوصتان ونصف تتكسر داخل الجرح . ولا يمكن ازالتها إلا بشق لحم الملدوغ في مكان بموازاة نقطة دخول الشوكة من الجهة الاخرى وسحبها .

كانت « القوبا » اي القنبرة المتوجة ، تعشش . ووجدت انا والأطفال عشاً صغيراً منها تحت شجيرة حمض . وكان العش مصنوعاً بكامله وبصورة رائعة من اعشاب السمه الجافة ، وفيه ثلاثة بيوض . ووجدنا عشاً مماثلاً تحت شجيرة أخرى لكنه كان صغيراً جداً اذ لم يكن يتجاوز قطره بوصة ونصف البوصة ولم تكن فيه بيوض .

« الخضري » ـــ أو الوروار وهو طير أخضر اللون . وقد وجدنا منه حوالي خمسة عشر أو عشرين عشاً كلها ضمن جحور حفرت في الارض بصورة منحنية

---

* ـــ اللخمه وتدعى أحياناً الدابة وهي اسماك تلسع من يقترب منها .

على عمق عشرة أقدام . وقد وجدنا من بيوضها بيضة كروية الشكل عند مدخل أحد الجحور .

« القراوي » أو الزقزاق كان يبني أعشاشه في الأراضي الجافة بعيداً عـن الشاطيء. وكانت هذه الأعشاش عبارة عن حفرة دائرية الشكل غطيت جوانبها بطين يابس وقطع من الأصداف البحرية . وعثرت على اثنـين فيها ثلاثة بيوض وآخر فيه بيضة واحدة . وشاهدنا واحدة من هـذه الطيور تتدرج أمامنا وهي تجرجر جناحيها وتسير في خط متعرج باتجاه الشاطيء . وربما كان ثمـة صغار ولكنني لم أستطع ان اعثر عليها .

« الجويبده » او خطاف البحر » وهـذه الطيور كانت تعشش أيضاً وتطير فوق رؤوسنا وهي تصرخ . ووجدنا أحد اعشاشها تحت شجيرة حمض وكان يحتوي بيضة واحدة أطول بقليل من تلك التي عثرنا عليها في أعشاش «القراوي» وقد تكون هذه البيضة بيضة خطاف مع ان العش الذي وجدت فيه يشبه عش « القراوي » .

كانت هنالك أيضاً بقايا حباري وسنونو ميتة أغلب الظن انها هلكت بسبب العطش والاعياء أثناء هجرتها . وقد التقط الأولاد عدداً من الخضري برتقاليـة وبنية اللون وهي على وشك الهلاك . ولم تكن تلك الطيور معششة هنـاك . ولاحظت أنواعـاً أخرى من الطيور المهاجرة شمالاً ولكنني لم استطع التعرف عليها . وشوهدت على الشاطيء ست طيور من الكروان كما شوهدت بعض طيور المازجة في الصباح الباكر وهي تشرب الندى من على أوراق شجيرات الثنان .

وبعد العشاء في اليومين الأول والثاني من زيارتي جلست مع ربة البيت وعمشا خارج خيمة حيث اخذا يخبرنني قصصاً عن الصحراء .

وقالت ربة البيت انها في لأصل فتـاة بدوية والدها من قبيلة شمر وأمها من عنيزه وانها نشأت وترعرعت في قرية عيون قرب حايل .

واخبرتني ان الرجال في تلك الأيام المضطربة كانوا يحملون البنادق اينما ذهبوا حتى الى الصلاة في المسجد . وحـتى النساء كن يدربن على اطلاق النـار وعلى

ركوب الخيل . وقالت ان المنطقة المحيطة بحـــايل منطقة جبلية فيها كهوف عميقة . وكان الخطر يحدق بالقطعان والاغنام لأن الضباع والنمور كانت تـــأتي في الليل لافتراس الماعز والأغنام .

ومضت تقول : « واخـــبرتني أمي انني عندما كنت لا أزال رضيعـــة ولم يتجاوز عمري شهرين كاد أحد النمور يفترسني . وكان والدي في المسجد يؤدي صلاة الغروب وكانت والدتي تحملني عائدة مع القطيع الى المنزل . وكان والدي لدى مغادرته المنزل قد نسي ان يحكم اغلاق الباب فلما حملتني والدتي إلى المراح كان هنالك نمر قفز علينا قفزة واحدة وحاول اختطافي من بين يديها . وقد تركت انيابه جروحاً بالغة في معصمي وأصابعي ولكن والدتي اطلقت صراخـــاً حاداً بحيث هرع الرجال من المسجد مع بنـــادقهم في ايديهم على استعداد لمواجهة أي غزو أو عدو . ولما أبلغتهم والدتي انه نمر بدأوا مطاردته فوراً ولكنهم تأخروا اذ استطاع الحيوان ان يختفي بين التلال . ولا تزال الندب التي تركتها أنيـــابه ظاهرة في يدي وسأريك إياها في الصباح عندما يطلع النهار .

واخبرتني مضيفتي ايضاً انه في مكان ما بين تلال وكهوف طفولتها تلـــك ، كانت تعيش امرأة متوحشة يعتقد انها تأكل لحم الانسان . وقد اختفى عـــدد من الأشخاص في أوقات مختلفة وفي ظروف غامضة وسرت شائعـــات ان هناك ساحرة تظهر بعد حلول الظلام وتقتل التائهين لتأكلهم .

وقد صمم ابن رشيد امير حايل على وضع حد لهذه الشائعات فـــإذا ثبتت صحتها سير حراسه للقبض على تلك المرأة . وانطلق الخيالة ليلة بعد ليلة وشهراً بعد شهر للبحث عن المرأة في الظلام بين التلال . وأخيراً جاء من يقول ان المرأة ظهرت وهي تتسلل من كهف عميـــق . وفي الحال ارسلت قوة من الخيـــالة المسلحين وأحاطوا بالكهف . وعندما كانت المرأة المتوحشة عائدة الى مخبأهـــا قبل الفجر ، قبض عليها وأحضرت امام ابن رشيد .

كانت امرأة مرعبـــة الشكل ذات راس كبير وشعر اشعث طويل وأسنان كأنياب الوحوش الكاسرة . وكانت تتكلم بلغة غريبة لم يفهمها الحاضرون الا

بعد جهد ، واعترفت انها في وقت من الأوقات أكلت لحماً بشرياً وشربت دماً بشرياً أيضاً . ولكنها لم تستطع ان تقول من أين أتت أو من أين هي ولكنها شرحت انهـا خنثى – اي نصف امرأة ونصف رجل .

وقبل أن يصدر عليها ابن رشيد الحكم بالموت اراد ان يطلع على بينات واثباتات انها قتلت رجالاً واكلت لحومهم . ولهذا الغرض أمرها ان ترشد رجاله الى مخبأها في التلال . ولكن الحراس عندما وصلوا الى ضواحي المدينة قتلوها ودفنوها حسب اتفاق سابق .

في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت التاسع من أيار استيقظت على صوت ابراهيم يناديني من خارج الخيمة قائلاً :

– الريح تهب من الغرب .. استعدي للذهاب .

وفي الساعة الرابعة كنا نركب البلم متوجهين نحو سعد وسعيد المزارين القديمين في الجهة الجنوبية الغربية من جزيرة فيلكا .

تقع عوحا بعد الزاوية الجنوبية الشرقية من فيلكا حيث يوجد لسان من الرمل يدعى « اللوان » . أما القناة التي تفصل فيلكا عن عوحا فتدعى « خور عوحا » وهي قناة عميقة عرضها ميل ونصف الميل وتبلغ مساحتها عشرة فدادين ولها شاطىء رملي من جهتها الشمالية . وقد نزلنا هناك في الساعة التاسعة .

ولما اقتربنا من الشاطىء طار رف من الطيور كان يحط هناك . وإذا صدق ظني فان معظم تلك الطيور هي من نوع خطاف البحر والنورس الذي تبينت منه اثنين من النوع الكبير ذات رؤوس واجنحة سوداء ورمادية مائلة الى السواد .

ويبدو ان هذه الطيور اطلقت النذير بوصولنا فما هي إلا لحظة حتى طار رف آخر كبير من طيور الخنكور في وسط الجزيرة يتجاوز عددها المئة طير . وبعد لحظة أخرى تبعها رف آخر . وقد لفت هذا الطيور ودارت مرة او مرتين في الفضاء فوق الجزيرة قبل أن تطير فوق البحر وتتفرق الى أسراب صغيرة كل منها من عشرة طيور . وقد عادت هذه الأسراب الصغيرة الى الجزيرة

وأخذت تطير وتحط بعد كل فترة وأخرى .

وبعد ان نزلنا الى الشاطىء وجدنا بيضتين كبيرتين قرب بعضها البعض فوق خط الماء مباشرة . وكانت كل منها داخل حفرة صغيرة غير ذات عمق . وكانت احداهما وردية اللون ذات خطوط زرقاء رمادية ملطخة بنقاط سوداء وحمراء بنية . أما قياساتها فكانت ٢٫٥٨ بوصة × ١٫٦٩ بوصة . وقياسات الأخرى كانت ٢٫٥٧ بوصة × ١٫٧٧ بوصة . بيضاء اللون تميل الى الصفار فيها لطخ زرقاء رمادية باهتة وعدد من النقاط والخطوط واللطخ البنية اللون . ويسمي العرب هذه البيوض بيوض « التراتشي » وربما كانت هي بيوض الطيرين الكبيرين اللذين طارا عندما وصلنا الى الشاطىء .

وعندما توغلنا داخل الجزيرة واقتربنا من المكان الذي يعشش فيه الخنكور خرجت بعض الطيور بمفردها من جحورها وتراكضت عدة ياردات وهي تمد أعناقها قبل أن تحلق في الفضاء . ويطلق العرب على هذه الطيور اسم « كوبري » وتلفظ « تشوبري » . ويقولون انها لا تأكل الأسماك بل تعيش على الديدان الصغيرة وعلى السرطان الذي تلتقطه على الشاطىء . ولذلك فان بيوض هذه الطيور مرغوبة لانه ليس لها طعم السمك . وبدأ البحارة يجمعون تلك البيوض وهي مهمة شاقة . اما الجحور فيبلغ طول قطر الواحد منها ست بوصات وهي محفورة بصورة منحنية في الأرض . وهنالك جحور بلغ قطر الواحد منها أربعة أقدام ونصف القدم . وتوجد البيوض عادة في الطرف البعيد منها . وكان يتم العثور على البيض في واحد من كل ثلاثة جحور فقط . ان بيوض الخنكور البيضاء اللون تبدو كبيرة بالنسبة لحجم الطير الذي يبيضها . وهذه الطيور متفاوتة الحجم قليلاً كما يبدو من القياسات التي أخذتها في ذلك اليوم وهي بالبوصات كما يلي :

٢٫٥٧ × ١٫٨٢ .

٢٫٦٢ × ١٫٨٨ .

٢٫٦٤ × ١٫٧٩ .

٢٫٥٣ × ١٫٥٥ .

وتوجد عادة في الجحر الواحد بيضة واحدة ولكن أحياناً قليلة جداً يعثر على اثنتين .

وحاولت ان اصطاد واحداً من هذه الطيور لأتأكد من هويتها ولكنني فشلت في ذلك لأن طلقات بندقيتي كانت قديمة وزادت الحرارة الشديدة الأمر سوءاً . والطير الوحيد الذي رميته سقط في البحر ولم نتمكن من الحصول عليه . اما رفاقه فقد تفرقوا في الحال وعادوا فاجتمعوا فوقه وأخذوا يحومون حوله بعض الوقت وهم يطلقون صرخات محزنة الى ان جرفه البحر .

وتركت الرجال الثلاثة يجمعون البيض بينما توجهت مع ابراهيم للتجول عبر الجهة الجنوبية من الجزيرة . وهناك وجدنا اعشاش ثلاثة طيور يعرفها العرب « بالزرقي » و « ابو الخصايف » و « السلطاني » . وكانت جميع هذه الاعشاش متشابهة فهي مسطحة تقريباً ومبنية من اغصان يابسة ويبلغ طول قطر كل عش منها تسع او عشر بوصات .

وقد اقيمت هذه الاعشاش فوق شجيرات واطئة من الحمض على ارتفاع ١٢ أو ١٤ بوصة عن الأرض . أما البيوض فكانت زرقاء تميل الى الاخضرار مشحة احياناً بالأبيض بلون الكلس . وقد وجدنا بيضة واحدة في أربعة أعشاش وعثرنا على ثلاثة بيوض دفعة واحدة في العش الخامس . وكان هنالك عش آخر فوق الاحجار عند أقدام رجمة حجارة ، وآخر فوق عمود حديدي قديم للملاحة كان مطروحاً على الأرض بعد ان أكله الصدأ عبر السنين فسقط وظل قسماً منه واقفاً على ارتفاع عشرة أقدام .

وعلى طول الشاطىء شاهدنا على الصخور الطيور صاحبة هذه الاعشاش يبدو ان بعضها من نوع مالك الحزين أسود اللون . وبعضها الآخر أبيض اللون من نفس النوع او من نوع البلشون . ويقول ابراهيم ان البيضاء منها هي ذكور وإناث « ابو الخصايف » والسوداء هي ما يسمى بالزرقي . اما الذي يسميه « السلطاني » فله شوشة من الريش الطويل عند الرأس والرقبة . ووجدنا بيضة مكسورة على

الأرض قرب احد الأعشاش وقال ابراهيم ان الطيور تكسرها عن عمد عندما ترى شخصاً قادماً اليها .

ويمكن مشاهدة اعشاش الخنكور المهجورة من السنة الماضية والتي قبلها في مكانين آخرين من الجزيرة . ويقول ابراهيم ان هذه الطيور تبني لنفسها اعشاشاً جديدة كل سنة على مسافة ليست بعيدة من الاعشاش القديمة . ووجدنا الأعشاش القديمة مطمورة وربما كان ذلك بفعل الرياح او الأحوال الجوية . ولم تنبت عليها أية نباتات أو شجيرات مع ان حولها توجد شجيرات الحمض والطها والشنان .

وفي داخل الجزيرة كانت هنالك طيور ميتة من السنونو وبقايا طيور صغيرة تشبه الخطاف وهي ذات صدر أبيض واجزاؤها العليا بنية رمادية .

غادرنا الجزيرة حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف بعد أن جمعنا سبعين بيضة من بيوض الخنكور وسبعة من بيوض « الذرقي » وبيضتا « التراتشي » التي سبق ذكرها . وعندما انتقلنا الى السفينة عادت الطيور الى مكان قريب من الشاطىء وتجمعت هناك ثم نزلت دفعة واحدة نحو الشاطىء . ثم طار رف منها يزيد على المئة نحو الأعشاش وتبعها الآخرون . ووصفها ابراهيم لي بقوله ان لهـا قوائم سوداء طولها سبع بوصات ، وان جسدها أبيض باستثناء خط أسود عند الرقبة ومؤخرة الرأس . ولكنني لاحظت ان هناك لوناً قاتماً على أجنحتها عندما تكون طائرة وإن أرجلها تمتد خلفها . وأخبرني ابراهيم انه وأولاده التقطوا في السنة الماضية سبعاً منها وإن احداها وضعت بيضة لدى وصولها الى منزله في مسكان . وهذا الطير بحجم طير الحمام ولكن لحمه طيب للأكل . ووجدت ان البيوض لذيذة عندما تطبخ مع ان بياضها قاسياً . وكانت بعض البيوض التي جمعناها قد قعد عليها فترة وجيزة .

وقال ابراهيم انه في السنة الماضية كان « أحمر المنقار » و « أحمر المرايخ » و « الكويري » اكثر منه في هذه السنة على الشاطىء .

وفي طريق عودتنا الى مسكان كانت تطير حول البلم طيور من « الجويده » سوداء الرأس وتغطس في البحر لالتقاط الأسماك الصغيرة الهاربة من طريـــق

الزورق . ولم يحالفهم الحظ إلا في غطسات قليلة وفيما عدا ذلــك كانت الطيور تخرج من الماء فارغة الفم .

وفجأة شاهدنا فوق رؤوسنا طيرين من « الجويده » يطاردهما طير كبير من جنسهما في محاولة للامساك بهمـا وقتلهما . وكانا يلفـان ويدوران وتصدر عنهما أصوات اشبه بالصراخ والطير الكبير يلاحقهما . ويبدو ان الطير المهاجم يئس من العملية فانقطع عن ملاحقتهما فجأة وطار بعيداً عنهما وحط في مكان بعيد .

وشرح لي ابراهيم ان هذا الطير الغريب يعيش على الطيور التي تسقط بـين يديه . فهو يلاحقها ويهاجمها ويخيفها الى أن تنهار فيلتقطها ويـأ كلها في الهواء ويطير . ومع انني شاهدت عملية المطاردة هذه مرتين إلا ان فترة المشاهدة كانت قصيرة جداً بحيث كان من المستحيل ان أرى ما يحدث بالضبط . وهنالك نظرية أخرى تقول ان الطير الكبير يطارد بقية الطيور الى ان تتقيأ الأسماك التي تكون قد التقطتها في وقت سابق . ويقول ابراهيم ان لهـذا الطير ذيلاً متشعباً كذيل السنونو إلا انني لم استطع أن أتأكد من ذلك بنفسي .

ووصلنا الى مسكان في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وسط ريح جنوبية عاتية .

الطيور التي تهاجر عبر الكويت

بقلم فيوليت ديكسون

تتم الهجرة الشمالية في الربيع والجنوبية في الخريف . وهـذا أمر مهم يجدر بنا ان نتذكره . وقد جمعت الملاحظات التالية خلال عدة سنوات :

– السنونو . وصلت الى الكويت باعداد كبيرة في هجرتها شمالاً في السابـع عشر من شباط سنة ١٩٣٧ وقد حـاول بعضها ان يجـد لنفسه ملجأ في سقف شرفتنا . وعندما تهاجر هذه الطيور جنوباً تظهر في الكويت في العـاشر من شهر آب .

– المرعة . التقطت واحـداً ميتاً منها أمام منزلنا في الثامن والعشرين من

شباط سنة ١٩٣٧ .

– الخضري . وصلت في الثامن والعشرين من شباط سنة ١٩٣٩ وقد وصلت اعداد أخرى منها في ١٢ آذار سنة ١٩٣٩ .

– الهدهد . يشاهد دائماً في الكويت في اول يوم من مرزام (السابع من آب) اي قبل ثلاثة عشر يوماً من ارتفاع نجم سهيل في نجد الذي يصادف يوم ٢٠ آب .

وقد شاهدت واحداً منها حول مخيمنا في عريفجان على حدود الكويت الجنوبية في الرابع من آذار سنة ١٩٣٩ . وشاهدتها ايضاً في اول آذار سنة ١٩٤٠ وفي ٢٦ شباط سنة ١٩٤٩ . وشاهدت طيرين منها ايضاً في الهجرة الجنوبية في ١١ آب سنة ١٩٤٠ . وفي ربيع سنة ١٩٥١ شاهدت رفاً من حوالي مائتين يطير فوق الكويت من شباط حتى اذار . وهذا أمر غير عادي لانه لم يسبق ان شوهد مثل هذا العدد من قبل .

– هزاز الذنب . وصلت أشكال رمادية من هذا الطير في ١٥ شباط سنة ١٩٣١ ، وفي الخامس من آذار سنة ١٩٣٩ ، وفي ١٥ آب سنة ١٩٤٠ . وشوهدت اشكال صفراء منه في ١٥ آب سنة ١٩٤٠ . وفي الرابع من نيسان سنة ١٩٤١ مرت بالقرب من خيمتنا في الصحراء على بعد خمسين ميلا الى الجنوب من الكويت اعداد كبيرة من أشكال زرقاء الرأس واشكال سوداء الرأس مع اشكال منه رمادية وصفراء وبيضاء .

– السمن او السلوى (الفرّي) . شوهدت عند آبار الطويل في جنوب دولة الكويت في الخامس من آذار سنة ١٩٣٩ .

– ابو زريق او القيق . شاهدت واحداً منها في ٢٦ آذار سنة ١٩٣٩ وفي ٢٩ آذار سنة ١٩٤١ قرب المدينة وفي مخيمنا في الصحراء على بعد خمسين ميلا الى الجنوب الغربي من الكويت في الرابع من آذار سنة ١٩٥٢ .

– اللواء او ابو لوّي . شوهد في ٢٤ نيسان ١٩٣٩ وفي الرابع من نيسان ١٩٥٢ . وهذا الطير مدهش . وقد التقط صبي بدوي واحداً منها في خيمتنا

بعد ان دخل الخيمـة طلباً للظل . وبلغ طوله ست بوصات ونصف وله منقار صغير حاد وهو مزركش الألوان يغلب عليه الرمادي والبني . وعندما امسكته بيدي لوى رقبته ثم مدّها وأغلق عينيه بطريقة مدهشة . اما مخالبه الأماميـة فواحد منها قصير والآخر طويل وله رجلان في الخلف واحدة قصيرة والأخرى طويلة ولذلك تعلق باصبعي بمخلبين من كل جهة

وقال الصبي البدوي ان « ابولوّي » شيطان فهو يلوي رقبته متظاهراً بأنه ميت ويغلق عينيه وقد شاهدنا هذه العملية بالفعل. وبعد ان لوى الصبي جناحيه تركته يقفز في الخيمة ثم تفحصت اشاراته جيداً وعدت فأرخيت جناحيه وطار بعيداً بعد ان سقط « ميتاً » في يدي مدة ثلاثين ثانية .

– طائر الطيطوي الصغير . التقطنا واحداً على وشك الهلاك في ١٧ ايـــار سنـــة ١٩٤٣ . طوله ست بوصات وطول منقـاره نصف بوصة قوائمه سوداء اللون ظهره بني محروق وأسود صدره ابيض عنقه أبيض مخرش ذيـله بني اللون من فوق وابيض من تحت له مخلب في مؤخرة قدمه .

– الهازجة (طائر مغرّد) شوهد عدد كبير من هذه الطيور في السادس من شباط سنة ١٩٤٠ .

– الغراب الزيتوني . شاهدت أربعـــة منه في مطار الكويت في ٢٦ آذار سنة ١٩٤٢ كما شاهدت ثلاثة أخرى في أول آب سنة ١٩٤٠ .

– الحمام الفارسي المنقط . شوهدت في ٧ نيسان ١٩٣٩ وشوهدت أعـداد منها مع بعضها في ٢٤ نيسان من السنة ذاتها . وشوهدت اعداد كبيرة في الثامن والخامس عشر من شهر آب سنة ١٩٤٠ وهي لا تظهر عادة قبل أول أيلول .

– القطا . هذه الطيور تهاجر شمالاً وتمر فوق الكويت باعداد كبيرة جـداً بين العاشر والثلاثين من شهر نيسـان . وفي اوائل ايار سنة ١٩٣٥ عندما توقفت الهجرة العادية نحو الشمال رأيت عدداً كبيراً منها الى الغرب من سلسلة مرتفعات الظهر . وهذه الطيـــور تخلفت دون شك لتعشش هناك . وقد اكدت ذلك البيوض التي يحملها الينا البدو يومياً . وهذه البيوض تشبه في شكلها بيـــوض

الحمام لكنها أكبر منها قليلاً .

وعندما قام الخبير المشهور في علم الطيور الكولونيل ريتشارد مينارتز هاغن بزيارة الكويت في كانون الثاني عام ١٩٥١ ، تحقق معي من هوية الطيور الآتية :

– في ١٠ كانون الثاني اسراب من طائر القنبر وثلاثة من السنبلة (طائر مغرد) وجدت بين حقول الذرة والشجيرات خارج المدينة .

– في ١١ كانون الثاني أسراب صغيرة من القبّر القصيرة القوائم وجدت بين حقول الذرة . اصطاد منها ثلاثة . وفي الصحراء ما بعد صبيحية اصطاد اثنتين ذكراً وانثى . واثنتين من نوع آخر .

– في ١٢ كانون الثاني . اصطاد عن الأشجار في واحة ملح سبعة من عصافير الدوري الاسباني .

– في ١٣ كانون الثاني . اصطاد طيراً ذكراً من صقر الجراد ، وواحداً أعفر من الحشنة او العزيزاء وهو طائر يشبه القنابر في الجهراء وعلى طول الشاطىء تعرف على طائر من الدريجة أو الشرّ وهو طائر من نوع زمار الرمل ، وعلى طيور الكروان ، وعلى صياد المحار ، وعلى المدروان (من نوع الشرّ) ، وعلى غراب البحر (قاق الماء) وقد اصطاد طيراً كبيراً من القطقاط .

– في ١٥ كانون الثاني شاهدنا عدداً كبيراً من سككة الصفاف والحميراء (طائر مغرد) بين الأشجار في قرية فنطاس . ((انتهى حديث زوجة ديكسون))

الفصل الثامن عشر

الكويت

١٩٤٢ - ١٩٤٣

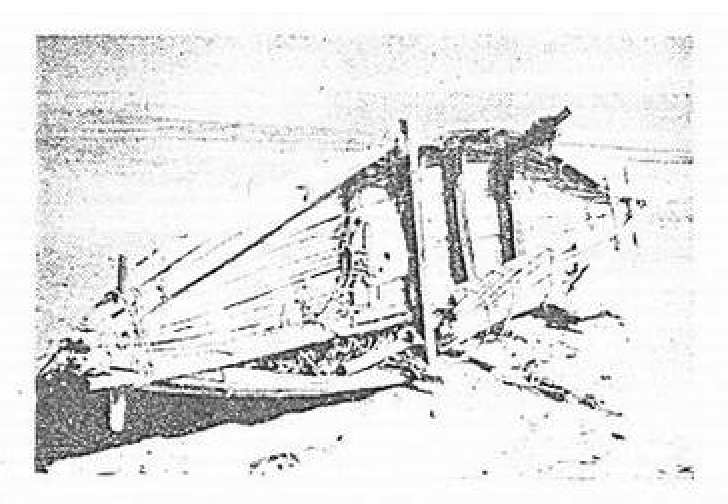
من عدالة الصحراء

علمت ان هنالك سوء تفاهم بين الأمير هايف بن هجرف رئيس فرع السلمان في عجمان وبين ابن شقيقته سعود بن شلش، فرغبت في معرفة مزيد من التفاصيل عن هذا الخلاف نظراً لأن الرجلين صديقان قديمان لي . وقد اخبرني القصة كل من سعود بن شلش وسرور بن فروان وهو مطيري بارز في خدمة الشيخ أحمد حاكم الكويت .

قالا انه في اواسط تموز سنة ١٩٤٢ حدث ان كان رجل عجماني من آل سليمان في قلب الصحراء قرب طريق الرياض على بعد مايئة ميل من الكويت . ورأى الرجل جملين شاردين فاقتادهما الى واحة الجهراء حيث كان يخيم اثناء الصيف جماعة من اتباع الأمير هايف وجماعة أخرى من اتباع سعود بن شلش . ويبدو ان الجملين شردا من قافلة للنجديين متوجهة الى الرياض ولكن ذلك لم يكن معروفاً في ذلك الوقت . وقد اصيب احد الجملين بالجرب فيما بعد وقضى نحبه .

في خيمتنا ـ زوجة المؤلف تصنع القهوة

القاطع الذي يفصل جناح الرجال عن جناح النساء في كل خيمة عربية



« الوارجية » وهي سفينة صيد بدائية تستخدم في جزيرة فيلكا



صخور جبل قارا في الهفوف بالاحساء خارج مدخل كهف ابراهيم

مزار الخضر في جزيرة فيلكا

وبعد فترة من الوقت عاد أحد النجديين الى الكويت حاملاً رسالة من الملك عبد العزيز يطلب فيها مساعدة الرجل في استعادة جمليه الضائعين . وفي الجهراء تعرف الرجل على الجمل الذي بقي على قيد الحياة وقـدم شكوى ضد رجـل دوسري « قصير » سعود بن شلش (أي ان خيمته بجوار خيمة سعود بن شلش) واتهمه امام الشيخ عبدالله المبارك الصباح مدير الامن العام الكويتي ، بالسرقة . ولما أحس العجمي الأول الذي عثر على الجملين وباعهما الى الدوسري بأن طلائع مشكلة تلوح في الافق هرب الى الصحراء .

وبعد ان استمع الشيخ عبدالله المبارك تفاصيل القضية قرر تغريم الدوسري بمبلغ قدره ثلاثماية روبية : ماية وخمسون ثمن الجمل الميت ومبلغ مماثل لأنـه لم يبلغ السلطة انه عثر على الجملين شاردين . وأشار سعود بن شلش الى ان هـذا القرار غير عادل وانه لا يسمح بحال من الاحوال ان يغرم قصيره وهـو غريب الدار . وحكم الشيخ عبدالله بالتـالي ان يجمع نصف المبلـغ من سعود بن شلش والنصف الآخر من كبير مشايخ عجمان الامير هايـف بن هجرف على ان يعطى المبلغ كله بالاضافة الى الجمل الحي للتاجر النجدي .

وفي الوقت الذي كانت تسمع فيه القضية كان الامير هايف في الرياض بزيارة الملك . ولدى عودته غضب وتألم لأن سعود بن شلش كان السبب في الحكم عليه بدفع الغرامة . وكان يعتقد ان السارق الحقيقي قد تواري عـن الانظار بمشورة سعود ، وانه نظراً لأن الدوسري كان ضيفهم وجارهم ويجب ان لا يدفع شيئاً ، فان سعود يجب ان يتحمل الغرامة كلها بنفسـه .

وهكذا نشأت العداوة بين الأمير وابن شقيقته . وقلت لـسعود ان عليه ان يطيب خاطر الرجـل العجوز وإلا فلن اعـود استقبله في منزلي ليشرب من قهوتي . . فوعدني خيراً .

عطش في قلب الصحراء

كل سنة عندما تشتد الحرارة في شهري تموز وآب وتبلغ حوالي ١٨٠ درجة

فارنبيت ، تكثر حوادث الوفيات عطشاً في قلب الصحراء الى ما وراء الكويت في الداخل . ويتساءل المرء كيف أن البدوي الذي يعرف بالضبط المسافات بين آبار الماء المختلفة ويقدر على أساسها عدد قرب الماء التي يحتاجها في رحلته ، يفشل أحياناً في حساباته وينقطع من الماء قبل الوصول إلى المكان الذي يقصده .

والجواب على ذلك ليس مرده الى الجهل او الغباء بقدر ما هو ناتج عن سوء الحظ نظراً لأن الجمال في أواسط الصيف تصبح ضعيفة لعدم توفر المراعي الجيدة . وبالرغم من أنها تبدو معافاة إلا أنها معرضة لانهيار مفاجىء او أنها تفشل في السير الى المكان المقصود بالسرعة العادية فلا تصل إلى الماء ضمن الفترة المقررة لها عادة . والجدير بالذكر ان الجمل يستغرق ستة او سبعة أيام لقطع المسافة بين بئر وأخرى في الصحراء داخل الكويت . فإذا بدأ الجمل يخور عند منتصف الطريق فإنه قد يقطع المسافة في ثمانية او تسعة أيام الأمر الذي يخلق المتاعب للجمل ولصاحبه .

ولم تشذ سنة ١٩٤٢ عن غيرها من السنوات بالنسبة لدرجة الحرارة ولكن لحسن الحظ لم تحدث فيها أية وفيات بسبب العطش في الصيف . ولكن بعضهم نجوا بأعجوبة ومنهم ثلاثة أخبرني عنهم شياح الجبلي عند بئر الماء رقم ١٣ التي حفرتها شركة نفط الكويت في المنطقة المعروفة لدى البدو باسم حماتيه وهي أربعة مجاري ماء جافة الى الغرب من منخفض الشق وعلى بعد خمسين ميلاً الى الجنوب الغربي فالغرب من مدينة الكويت . وشياح الجبلي هو أحد مشايخ فرع جيلان في مطير وكان مسؤولاً عن ثلاثة قطعان من الجمال يملكها سمو الشيخ أحمد . وكان شياح ساكناً في الكويت .

وحوالي الرابع عشر من آب سنة ١٩٤٢ غادر رجل من الداهمشاه من فرع عمارات في قبيلة عنيزه آبار الصفا في المملكة العربية السعودية متوجهاً الى الكويت . وذهب معه كمرشد رجل صليبي وزوجته . وكان قصدهم الوصول الى البئر رقم ١٣ خلال مسيرة ستة أيام من الصفا . وعندما أضحوا على بعد خمسين ميلاً من المكان الذي يهدفون الوصول إليه نفد منهم الماء وبدأت تظهر

على جباههم أعراض الاعياء . ومع ذلك تابعوا سيرهم يوماً وليلة كاملين الى ان وصلوا الى نقطة تبعد عن البئر رقم ١٣ مسافة عشرة أميال فقط دون ان يعرفوا ذلك . وهناك انهارت جاهم لأنها لم تذق طعم الماء لمدة ستة أيام . ولما أشرفت الشمس على المغيب ذلك اليوم لم يكن الأشخاص الثلاثة قد شربوا الماء لمدة ثلاثين ساعة . وأخبر رجل الداهمشاه رفيقيه انه لم يعد يستطيع السير على الأقدام وانه يفضل البقاء مع الجمال والأمتعة في الوقت الذي يحاولان هما فيه الوصول الى الآبار .

وودعهما قائلاً :

- إذا تمكنتما من النجادي في الصباح فربما وجدتماني على قيد الحياة وإذا لم يكن ذلك بالامكان فإني أستودعكما الله .

وسار الصليبي وزوجته على قدميهما ببطء الى ان تخطيا البئر رقم ١٣ وخيام المطيري شياح الجبلي مسافة ثلاثة أميال . لأنهما ضلا الطريق في الظلام . وفجأة قالت المرأة لزوجها انها تعتقد أنها سمعت نباح كلاب خلفهما الى جهة اليمين . وكان الرجل في حالة من الاعياء بحيث انه لم يكن يستطيع أن يسمع او يتكلم او يعبر عن رغباته فأخذته زوجته من يده واقتادته بخطى بطيئة متقلة باتجاه النباح . وزحفا في ذلك الاتجاه الى ان وصلا في الثالثة صباحاً الى حدود خيام شياح وهما فاقدا الوعي .

ولم يستفيقا من غيبوبتهما إلا في السادسة صباحاً وبعد ان بللا بالماء البارد وأعطيا كميات قليلة منه . وبعد ان استعاد الصليبي وعيه اخبر شياح انه ترك رفيقاً له على بعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة . وطلب منه أن يعطيه فريقاً من الرجال ليذهب معهم على الجمال لانقاذه . ولسوء الحظ كانت جميع الجمال قد أرسلت الى المراعي في الباطن قبل يومين . عندئذ طلب الصليبي الشجاع قربة ماء وتوجه سيراً على الأقدام مع اثنين من رجال شياح الى حيث تخلف رفيقه . وعثرا على الرجل الداهمشاهي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر وكان لا يزال حياً ولكن على شفير الموت إذ انه لم يذق طعم الماء لمدة خمسين ساعة . وبعد ان

سقوه بعض المــاء على شكل جرعات صغيرة متقطعة أعطوه طعامــاً ليأكل وساعدوه في العودة الى الخيم على الأقدام بعد أن غابت الشمس . ووصل الجميع الى البئر رقم ١٣ حوالي الساعة الحاديــة عشرة وسط مشهد رائــع من الفرح والأهازيج .

وأخبرني شياح الجبلي انه لو لم تكن الجمال ضعيفة بعد صيف طويــل مضى لكان من السهل على الثلاثة ان يصلوا الى مخيمه عند غروب الشمس بــدلاً من ان يسقط في ايديها على مسافة عشرة أميال منه . ان الجمال هي التي خيبت آمالهم وليس خطأهم في الحساب .

والقصة الثانية تتعلق برجلين من العوازم كانا قادمين الى الكويت من الرياض عن طريق جاريه سفلى في اواسط شهر آب نفسه . وكانا يركبان جملين أحدهما استعاراه من صديق لهما في القبيلة . وبينما كانا لا يزالان على مسافة مسيرة ثلاثين ساعة من وفره نفد منهما ماء الشرب وذلك لأن أحد الجملين افلت اثناء الليـــل فاضطرا الى قضاء النهار بطوله في البحث عنه . وحاولا اكمال الرحلة بدون ماء ولكنهما بعد ان بـــذلا جهداً بطولياً في قطع ثلث المسافة شعرا بأن الاعياء والاغماء سيتغلبان عليهما فقررا ان يذبحا أحد الجملين ليشربا الماء الباقي في جوفه . وقد انقذ ذلك حياتهما بدون شك لأنهما تمكنا من الوصول الى آبار وفره وهما على آخر رمق وهناك انجدهما رجال قبيلتهما . ويقال انهما ظلا فاقدي الوعي مــدة أربع ساعات .

ووقعت حادثة مؤسفة في اعقابها شهدتها بنفسي بعد عشرة ايام في الكويت عندما كان الشيخ عبدالله المبارك جالســاً في مجلسه يحــكم في القضايا العشائرية . فقد وجد الرجلان اللذان رويت قصتيهما نفسيهما امام المحكمة متهمين بذبح الجمل الذي لم يكن ملكاً لهما . وطلب صاحب الجمل انصافه اما باعطائه جملاً جديداً أو ثمن جمل جديد . وتساءل صاحب الجمل عن سبب إقدام الرجلين على ذبـــح جمل ليس ملكهما بدل ان يذبحا جملهما . وعبثاً توسلا ان يغفر ذنبهما مدعيين انهما كانا في حالة لا تسمح لهما بالتفكير وانهما ابقيا الجمل الاقوى بدافـــع من غريزتهما

البقاء وحفظ النفس .

وحكم الشيخ عبدالله على الرجلين بدفع ثمن الجمل وقدره مائة وثلاثون روبية وهو مبلغ حدده أشخاص حياديون يعرفون الجمل الذي نشأت القضية بصدده .

وفي مثل هذه الحالات لا يتسع المجال لاظهار العواطف لأن قاعـــدة العين بالعين والسن بالسن يجب ان تطبق . وقد شعرت بالفعل واذا استمع الى القضية بكثير من الأسف للمتهمين .

ووقع حادث ذلك في شهر آب سنة ١٩٤٢ ايضاً في مكان ليس بعيداً عن بئر الماء رقم ١٣ وذلك عندما كان اثنـان من قبيلة حرب قادمين الى الكويت على ظهور الجمال من حفر البـــاطن . وكان هدفهما الوصول الى البئر رقم ١٣ ولكنهما ضلا الطريق في عاصفة رملية شديدة . وعندما كانا لا يزالان على بعـد ٢٠ ميلاً من الآبار غلبهما الاعياء فذبحا جمليهما وشربا المــاء المخزون في جوفيهما (الكرش) . ولما لم يكن الرجلان قادرين على متابعة السير مشياً ، ولم يعـد بإمكانهما معرفة الاتجاه الذي يجب ان يسيرا فيه ، بدآ يدوران في حلقة مفرغة الى أن انهارا .

وبعد يومين عثر عليهما فريق من رجال شياح الجبلي كانوا يعودون بالجمـــال الى الماء من الباطن ، فظنوهما أمواتا ونقلوهما الى المخيم . وقد استعادا وعيهمـــا بالنتيجة مع انهما بقيا أربعة أيام دون ماء في اواسط آب .

وعندما انهى شياح الجبيلي قصته قال : ان رحمة الله واسعة .

مطير تخرج من السمّن ((الصمان))

قررت شركة نفط الكويت وقف جميع عمليات التنقيب خلال فترة الحرب. وقد تم ذلك في أواخر سنة ١٩٤٢ ولم يبق للشركة سوى جهاز رمزي من الموظفين في الكويت وفي تشرين الأول من تلك السنة عينت انا مديراً عاماً مسؤولاً عن صيانة منشآت الشركة والعناية بها .

وفي آذار سنة ١٩٤٣ قررت وزوجتي القيام بزيارة الى الشق . وكانت تلك

السنة رائعة بالنسبة للمطر اذ بلغ مجموع ما هطل من الأمطار منذ الخريف أكثر من تسع بوصات وهو رقم قياسي في الكويت . وكانت الصحراء نتيجة لذلك في أحسن أحوالها فاغتنمنا هذه الفرصة للقيام بأكبر عدد ممكن من الزيارات لمعارفنا من البدو في الداخل ولأهل مخيمنا الذين كانوا يتجولون بعيداً عن الكويت . . ابعد من اي وقت مضى .

وبعد ليلة عاصفة ، كان صباح الاربعاء السابع عشر من آذار رائعاً مع أن الجو كان غائماً . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أخذ المطر يهطل يرافقه رعد وبرق وغيوم كثيفة سوداء آتية من جهة الغرب . وفي الساعة الثانية والنصف قررنا ان نخرج الى مخيمنا بالرغم من شدة المطر . ولكن السماء بدت مشرقة الى الغرب تبشر بمساء جميل .

لم يكن بالامكان مغادرة المدينة على الطريق الرئيسية الى الرياض لأنه لا يمكن تخطي أرض صبخة بالقرب من المدينة بعد مثل هذه الأمطار . ولذلك بعد وصولنا خارج أسوار المدينة سرنا في طريق جالب(1) الشيوخ ولكننا لم نصل اليها بل عرجنا عنها تاركين الآبار الى يميننا الى ان وصلنا الى طريق السيارات المؤدي من مقوى(2) الى الشدادية حيث عدنا فاتجهنا الى اليمين . وكان المطر لا يزال يهطل بشدة .

كان العشب هنالك رائعاً شديد الاخضرار وافراً يزيد ارتفاعه عن القدم . وفر من أمامنا طائر وحيد يستمتع بالمطر وعبر الطريق متجهاً الى اليسار . ومن هناك الى ان وصلنا مفرق الدرب حيث يتجه طريق الرياض الى اليسار ويبقى طريق الشق مستمراً ، كان السفر مدهشاً . فالطريق رملي بالاساس ولكن الامطار جعلته صلباً ثابتاً .

واختلفت الصورة عند كبد وكبيد اذ كانت المياه تجري عبر الطريق كأنها نهر حقيقي الى بقعة على يميننا وتصب منها في بركة تكونت حديثاً . وفي أماكن أخرى قطع السيل الطريق نهائياً . وكان هنالك خطر من الخروج عن الطريق والغرق في الوحل الأبيض اللعين على جانبي الطريق .

وأخذ المطر يهطل بشدة كما لم يهطل من قبل ولكن ذلك كان الرشق الأخير اذ انه قبل أن نصل الى التـلة الصغيرة المنحدرة بجانب الشمية العليـــا اشرقت الشمس .. وبدأت متاعبنا . فقد كانت التـلة شديدة المزالق بحيث ان السيارة لم تستطع الصعود خطوة واحدة . وبعد أن قمنـا بعدة محاولات لدفع السيارة الى اعلى ثم الى أسفل وفي كل مرة يلطخنا الوحل من اعلى الرأس الى اخمص القــدم ، تخلينا عن هذه المحاولات لأنها عديمة الفائدة. ورأينا ان الطريقة الوحيدة للخروج من هذا المـأزق هي أن نسير على طول جانب ارض النهر الى أن نلتقي بالطريق من الجهة الاخرى .

وهكذا كان وسارت الامور من هناك على ما يرام . وقد قطع المطر الطريق في عدة أمـاكن وفي أماكن أخرى كانت الأنهار لا تزال تجري عبر الطريق . والتقينا في الطريق بسيارتين واحدة ملأى بالفداويه والاخرى تقل الشيخ فهـد السالم الصباح الشقيق الأصغر للحاكم الحالي وهو صديق لنا. وبعد التحيات المعتادة تابعنا سيرنا . وعلمنا فيما بعد أنه لجأ الى خيمتنا منذ الصباح اتقاء للمطر .

وصلنا الشق في الساعة الخامسة بعـد الظهر وكان المشهد رائعاً بعد المطر . كانت برك الماء في كل مكان وقد اصطفت على جوانبها قرب للبدو ملأى بالماء . وكانت أعشاب السمعة تميل مع النسيم وتغطي المنطقة كلها على مد النظر ، وكانت الجمال سارحة ترعى بعشرات الآلاف . وقبـــل اسبوع فقط لم يكن هناك أثر لشيء حي باستثناء سالم المزين الذي كان ينتظرنا في خيمتنا الصغيرة . أما الآن فالجمال تمـــلأ المكان في الشمال الغربي وفي الغرب وفي الجنوب الشرقي . وكانت تأتي من الجنوب الشرقي باتجاه الشق جمال ثقيلة الأحمال تنقل الخيــــام والأمتعة تتهادى بينها الضعف التي تقل نساء شيوخ مطير. انها الهجرة الشمالية الغربية الكبرى لقبيلة مطير الخارجة من السمّن بعد ان وصلت اليها أخبار المراعي الجيدة وبرك الماء الكثيرة . فالذين رأيناهم هم الطليعة المتقدمة ولا بد ان يكون بندر الدويش وأتباعه خلفهم ان لم يكونوا بينهم . ان لمطير كلمة شرف ان لا تفصح في المجالس عن مكان شيخها الدويش . ولهذا السبب يصعب على المرء معرفة مكانه .

ولم يكن من السهل علينا إيجاد مخيمنا ولكن كلانا تراكضت وراء السيارة مؤكدة صدق افتراضنا بأن الخيام الخمسة البعيدة الى اليمين هي تلك التي ينتظرنا فيها سالم المزين والربع. وقبل غروب الشمس وصلت عائلة كاملة من مطير وحطت رحالها بالقرب من خيمتنا . وأنيخت الجمال الى الأرض محدثة أصواتاً مزعجة ثم أزيلت عنها الحمال وراحت الضد الى جهة وتفرقت بقية الجمال ترعى بين الأعشاب النضرة بينما راحت العائلة تدبر المكان الذي ستقضي فيه الليل على شكل دائرة . ولكنهم لم ينصبوا خيمة لأنهم كانوا سيرحلون الى الشمال الغربي عنـــد الفجر . وعندما حل الليل ظهرت حولنا آلاف الأضواء المنبعثة من نيران الخيمات وكأنها أعين حيوانات بعيدة انعكست عليها أضواء السيارات في الليل .

وبعد فترة نبحت الكلاب وترجل راكب عنـــد خيمة سالم وربط فرسه بعمود الخيمة . والقادم هو مطلق الاسقي الدويش وهو شيخ شاب من الدوشان جاء للزيارة . وأدخل الى خيمتنا حيث قدمت له القهوة. وقال إن خيامه قريبة منا وانهم وصلوا الى المكان عند الظهر تحت المطر . وقد شاهد سيارتنا قادمةمن خلال منظاره فأتى بعد حلول الظلام ليقدم احترامـاته . وتحدث الشيخ مطلق معنا ساعة ونصف الساعة اخبرنا خلالهـــا كل اخبار مطير ومكان وجود بندر الذي كان لا يزال جنوب الشق ويتوقع وصوله في اليوم التالي . وبعد أن شرب مزيداً من القهوة استأذن بالذهاب . ونادى ولداً ليأتيـه بفرسه وهي فرس جميلة سمينة تبدو كأحلى مـــا تكون عليه الخيول الأصيلة في الربيع . وعلق مطلق بندقيته على ظهره وتوجه نحو فرسه .

وسألته قائلا :

– هل تشرفنا بالغداء معنا غداً يا مطلق ؟ ان لدينا خروفاً ممتازاً .

ولم يجبني على سؤالي بل قال :

– هل اعجبتك فرسي ؟ سأعطيها لك انها حمدانية .

كانت فرساً رائعة ولا شك ولكننا لم نستطع قبولها. وقفز مطلق علىالسرج وانطلق نحو خيمته في الظلام .

كنت أبحث ونحن حول النار كيف ان الأرض مدورة فيكون في انكلترا شتاء في الوقت الذي يكون فيه باستراليا الصيف . وفي هذه الأثناء وصل لزيارتنا زنيفر بن حويله من قبيلة عجمان وبعد ان شرب القهوة اشترك في الحديث الذي تحول من البحث في ألغاز الكون الى ألغاز من نوع آخر .

قال زنيفر ان احد الشيوخ ترك سبعة عشر جملا لتقسم بين أولاده بعد وفاته . بحيث يأخذ الابن الأكبر نصف حصة من الجمال ويأخذ الثاني ثلث حصة وينال الثالث تسع حصة . ووضع مع الوصية شرط يقضي بان لا يستبعد من القسمة جمل واحد او يباع أو يقتل تسهيلا لعملية القسمة .

وتوفي الشيخ ولكن أحداً لم يكن يجيد معرفة كيفية تقسيم الجمال السبعة عشر حسب النسب الموضوعة . وتبع ذلك شجار عنيف كاد يتحول الى صراع دموي بين الاشقاء الثلاثة ومؤيديهم الى ان مر من هناك رجل غريب يركب جملا فترجل وسأل عن أسباب العراك فأخبروه .

وبعد ان فكر برهة من الزمن سألهم ما اذا كانوا يسمحون له بحل المسألة فوافق الاشقاء الثلاثة وطلب الغريب منهم ان يحضروا الجمال أمامه ففعلوا . وضم الرجل جمله الى الجمال فاصبح عددها ثماني عشرة اعطى منها للابن الأكبر تسعة (نصف حصة) واعطى الثاني ستة (ثلث حصة) واعطى اثنين للأصغر (تسع حصة) وبقي جمله فركبه وانصرف . ورضي الجميع بهذا الحل .

عندما بزغ ضوء النهار في الصباح التالي بدأت الجمال تتحرك بعيداً عن الخيام التي قضت الليل بجانبها وقد سار الرعاة في طليعتها ودعوها تتبعهم . وكانت بعض تلك القطعان تخص الملك وكان لتلك التي أخذت ترعى أمام خيمتنا في وقت لاحق من الصباح وسمه الخاص على افخاذها اليسرى . وكان بعض تلك الجمال بحالة جيدة والبعض الآخر لم يكن نظراً لرداءة الصيف الماضي . وقد فصل عدد كبير منها عن بقية الجمال لمعالجته من الجرب بالكلس والقطران . ويظهر هذا الجرب في الجمال عادة في السنين العجاف عندما تهزل بسبب قلة المراعي . اما القطيع الذي أهداه عبدالله بك الفالح السعدون للملك منذ

عدة سنوات فكان يرعى بجوار خيمتنا طول النهار .

وبعد الغداء رأينا أحد الرعاة يجمع عظام جمل ميت ويصفها بعناية على شكل هيكل عظمي وضع فوقه باقة من الزهور البرية . ولما سألناه عن القصد من هذه العملية قال انها لتخويف الجمال . وعلمنا السبب الحقيقي فيما بعد . فالجمل يلتقط اية عظمة تصادفه ويمضغها فيمنعه ذلك من التغذي على الأعشاب وبذلك يفوت على نفسه فرصة السمنة والاكتناز . ولكن عندما تجمع العظام بالطريقة التي شاهدناها يخاف الجمل ويعف عن أكل العظام .

شهد ذلك اليوم تحركات مستمرة فيما كان مختلف الشيوخ ينتقلون الى الشق ليأتي غيرهم من الجنوب الشرقي فيحلوا محلهم . وكان من الصعب جداً على الرعاة منع قطعانهم من الاختلاط بقطعان جيرانهم . وكانت ذكور الجمال تربط بحبل من أقصى الخلف الى المقدمة لأن موسم التناسل قد انقضى وكانت الجمال الصغيرة البالغة من العمر شهرين او ثلاثة تسير مع أمهاتها ..

خرج الشيخ مطلق باكراً صقره على معصمه ومعه كلبه وخادمه . والتقينا به عندما كنا متوجهين لزيارة شياح الجبلي . ولما لم يكن هنالك صيد يذكر جاء مطلق معنا وشرب القهوة في خيمة شياح الذي سر كثيراً لأنه وجد نفسه في وسط الهجرة الكبرى لقبيلة مطير . وتعددت الزيارات بين السيدات في مختلف فروع مطير وقام عدد كبير منهن بزيارة طفالة زوجة شياح وهي سيدة بدوية خارقة من عائلة عريقة ، إذ انها كانت بعيدة عن صديقتها عدة أشهر . وكان واضحاً انهن يعرنها كثيراً من الاهتمام . وقد ساعدتها هدية من الشاي والسكر قدمناها لها في تكريم ضيوفها . وقد وعدتنا بأن تأتي لتناول الشاي مع زوجتي ولكنها لم تتمكن من ذلك . واستغرق مرور الهجرة من أمام خيمتنا أسبوعاً . ومن هناك اتجهت نحو اليسار ثم بدأت تسير نحو الجنوب الشرقي ثانية ولكن بطريق أكثر انحرافاً نحو الغرب عبر منطقتي الدبدبة وقرعة وذلك للعودة الى الصمّان — أرض مطير — مرة أخرى .

ولم يتسنَّ لنا مقابلة بندر الدويش الشيخ الأعلى في مطير إلا بعد عودتنا الى

الكويت عندما نقل الى مستشفى الارسالية الأميركية لمعالجته من لبطة جمل في معدته عندما كان يعالجه من الجرب . أما والدة بندر فهي سيدة من سبيع تدعى « البيضا » نسبة الى لون بشرتها .

العم الشرير

قبل عودتنا الى الكويت ذهبت وزوجتي الى الصيد في سيارتنا . وقد قمنا برياضة جيدة وبدأنا السير في منطقة الى الجنوب من سلسلة المسناة في المملكة السعودية . كانت المنطقة مهجورة تماماً وقد شاهدنا آخر بدوي في منخفض الشق حيث تركنا خيمتنا مع سالم المزين وجماعته على بعد ثلاثين ميلاً .

ولاح لنا في البعيد شخصان يسيران بين شجيرات الحمض. ان وجود شخصين يسيران على الاقدام في تلك المنطقة المقفرة أوحى لنا بأن جمليهما قد ماتا فاتجهنا نحوهما لمساعدتهما قدر ما نستطيع . ولما اقتربنا منهما أدهشنا أن نرى ان الشخصين ليسا إلا امرأة عجوز تجر بيدها فتاة لا تتجاوز الثامنة من العمر . وكان التعب والاعياء باديين عليهما . ولما وصلنا إليهما قالت العجوز انها من الجوازين من قبائل المنتفق وان خيمتها تقع عند الجهة الشمالية من سلسلة المسناة . وقالت انها قبل خمسة أيام عثرت على تلك الفتاة البدوية الضائعة تموت عطشاً في البرية فنقلتها الى خيمتها وأنقذتها . ولما كانت العجوز وولداها مهاجرين نحو حفر الباطن فإنها لم تكن تعرف ماذا تفعل بالفتاة . وعندما شاهدت سيارتنا من بعيد استغلت غياب ولديها وشقت طريقها نحونا مع الفتاة على أمل أن نأخذها منها ونتمكن من معرفة أهلها وتسليمها لهم .

ووافقنا على ذلك وأتينا بالفتاة الى خيمتنا في الشق مع حلول الظلام . لقد كانت جميلة رائعة واسمها ثريا . ولم تكن خجولة أبداً ويبدو انها كانت شديدة الامتنان عندما علمت اننا قادمون من الكويت وسنأخذها معنا الى هناك ونسلمها الى والدتها . وفي تلك الليلة أخبرتنا قصتها .

قالت انها ابنة جزاع (1) وهي أرملة مطيرية تعيش في الشامية خارج الكويت ،

وان لها شقيقة أصغر منها تدعى وسمية وأخ صغير يدعى محمد . ولثريا عم يدعى الشقيحي كان يلقي نظره على العائلة الصغيرة ولكنه لم يكن رجلاً طيباً . فهو يعيش لوحده في الصحراء مع أغنامه وجماله القليلة ولذلك أصر على ان يأخذ ثريا من والدتها لتطهي له الطعام وتعتني بخيمته في غيابه . ولم تجرؤ والدتها على رفض طلبه لأن الشقيحي شقيق زوجها الراحل ومسؤولاً عن عائلتها . وقبل ستة أيام أرسلها عمها لترعى الجمال في بلاد الحمض وهناك غلبها النعاس فنامت تحت احدى الشجيرات . ولما أفاقت لم تجد اثراً للجمال . وظلت تبحث عن الجمال الضائعة يوماً كاملاً وبعد ان أعياها البحث سقطت الى الأرض بسبب العطش . وقد عثر عليها رعاة مهاجرون من الجوارين فنقلوها الى خيمتهم واعتنوا بها . ولكن هؤلاء الرعاة انفسهم كانوا في أرض لا ماء فيها ويستعجلون الخروج منها . وقد اعتنوا بها خمسة أيام وسرهم الآن ان تخلصوا منها .

واعتنينا بثريا قدر الامكان لأنها كانت من اطيب وأحلى البدويات اللواتي صادفناهن اثناء السنوات الطويلة التي قضيناها في الكويت . وقد تصرفت فوراً معنا على أساس اننا والداها فكانت تهرع الينا عندما نعود من رحلةصيد وتطوقنا بذراعيها وتقبلنا . وكانت تلتصق بنا في الخيمة بالليل لتدفأ تحت معاطفنا المصنوعة من جلد الخروف .

وعندما عدنا الى الكويت لم نتمكن من العثور على والدتها إلا بعد مضي فترة من الوقت . وظلت ثريا تقيم الثلاثة أيام مع احدى صديقاتنا في المدينة وهي عمشا بنت ابراهيم المزين . وقد ساعدنا في البحث عن جزع حارس مطيري على دروازة نايف يدعى رجمان . وبواسطته تمكنا من معرفة مكانها ففرحت فرحاً عظيماً باستعادة ابنتها ثريا . وتصادقنا مع ام ثريا وتعرفنا على وسميه ومحمد . وكنا طوال سنة كاملة نقوم بزيارات منتظمة لهم . ولما كانت ظروفهم صعبة نظراً لعدم وجود معيل لهم ، فقد تمكنا من مساعدتهم كثيراً .

وبين ليلة وضحاها اختفت الأم واطفالها الثلاثة في ظروف غامضة . وقال جيرانها انها ذهبت الى الزبير في العراق خوفاً من ان يأتي الشقيحي – العم

الشرير – ويجبرهم على الذهاب معه الى الصحراء لخدمته . وقال غيرهم ان لجزع صديقاً قرب الزبير اراد ان يتزوجها فبعث لها ان تأتي الى الزبير سراً دون ان تترك خلفها اثراً .

لقد افتقدنا ثريا كثيراً لاننا احببناها وتولعنا بها كثيراً . ولكن غريزة حب الوطن قوية في نفوس البدو ولذلك كنا نشعر بثقة اننا سنلتقي بها مرة ثانية .. ربما عندما يزول العم الشرير ..

مدينة تحت الرمال

لقد اشرنا سابقاً الى محمـــد بن سالم بن دراشم المرّي الذي زار الكويت سنة ١٩٤٣ وأخبرنا قصصاً ذات أهمية . وتتعلق واحدة من هذه القصص بعـــاد بن جنعاد ملك أوبار (او أبار)* الاسطوري . وقـــد اخبرنيها محمد في الثاني من نيسان من تلك السنة بعد وقت قصير من عودتنا من الشق .

قال محمد ان أهل المدينة يعرفون هذا الملك الاسطوري الوحش باسم عـاد ولكن آل مرّة يعرفونه دائماً باسم عاد بن جنعاد. وكان هذا الملك يعيش في أوبار في وسط الربع الخالي . وهذه المدينة العجيبة التي اطلقت عليها قبيلة آل رشيد وأهل جنوب الجزيرة العربية اسم أوبار وجدت في اواسط جنوب الجزيرة منذ مئات السنين . ويقال ان أعالي قلاعها مغطاة بالذهب وقصورها مغطاة بالفضة المزدانة بالاحجار الكريمة. وفيها حدائق تعرف باسم جنات عاد تضم حوريات اجسادهن نقية كالبلور . والحوريات المذكورات لا يأكلن طعاماً بل يشربن الماء أو الحليب فقط وعندما يشربن من الانهار الجارية يمكن مشاهدة المـــاء وهي تنحدر في حنـاجرهن . ولم تدنس أجسادهن ايـــة أعمال غير نظيفة بل كن طاهرات طوال الأزمان . هذا هو الجزء السماوي من المدينة .. اما الجزء الآخر

---

* – هذا الاسم هو المعروف لدى آل مرة والعوازم وغيرهم من القبائل الجنوبية . اما أهل الاحساء ونجد فيسمونه وبار .

ففيه الجحيم حيث أقيمت أفران تتأجج فيها نيران دائمة . والأرواح التي يكتب لها ان تقيم هناك تظل دائماً عطشى تطلب الماء البارد .

وقرر الملك عاد يوماً، وهو الذي يستطيع الحصول على كل ما يتمناه في الأرض ، ان يركب ظهر طائر ويتوجه الى الله في السماء ليقتله . فاستدعى جميع النسور واختار اكبرها وأقواها . وبعد ان علق قطعة من اللحم النيء على عصاه امتطى ظهر النسر وطار به . واستمر صعداً يوماً بعد يوم لمدة طويلة . وبعد شهرين التقى ببعض الملائكة الذين سألوه عن المكان الذي يقصده وعن مبتغاه . فقال :

ـ انني ابحث عن الله لأقتله .

وكذب عليه الملائكة بقولهم :

ـ ليس الله هنا .. انه تحت في الأسفل .

وعندما انحنى الملك عاد قليلاً الى الامام انحرفت العصا وعليها قطعة اللحم الى أسفل امام النسر الذي انقض عليها فجأة وبسرعة فسقط عاد عن ظهره .

كان نزوله تدريجياً اذ استغرق عشرين سنة انحل جسده خلالها ولم يصل منه الى الأرض إلا جمجمته الضخمة . وغضب الله فأمر الرياح ان تدفن مدينة أوبار الرائعة وتغطيها بالرمال .

وحدث ان كان ذئب يتجول في الصحراء فعثر على جمجمة عاد . ولكي يحتمي من حرارة الشمس دخل الذئب في فجوة العين اليسرى وكأنه داخل الى كهف . ومر غزال من هناك ايضاً فدخل في فجوة العين اليمنى ليتفيأ في داخلها . ثم جاء بدوي يركب جملاً كان قد رأى هذه الكتلة الكبيرة البيضاء من مسافة بعيدة واراد ان يعرف ما هي . فلما اقترب منها هرب الذئب . ولما اتجه البدوي الى الجانب الآخر هرب منها الغزال . كانت الجمجمة كبيرة بحيث ان الذئب والغزال لم ير أحدهما الآخر في داخلها . وزاد فضول البدوي لمعرفة ما هي تلك الكتلة .. أهي صخر أم عظم .. فقرع الجمجمة بعصاه وعلى الفور خرج منها صوت يقول :

- لا تدع الشكوك تساورك .. لا تضحك . (او كما يقول آل مره : كب الفاقه عنك .. لا تمزح) .

وارتعد البدوي وركب رأساً الى سليمان بن داود وأخبره بما رأى : كيف انه مر في الصحـــراء على القسم الأعلى من جمجمـــة ضخمة ، وكيف انه عندما اقترب خرج من فجوة العـــين اليسرى ذئب ومن فجوة العين اليمنى غزال .. واخبره انها كبيرة الى درجة لم ير واحدهما الآخر . وقال :

- قرعتها بعصاي فخرج منها صوت يقول « كب الفاقه عنك .. لا تمزح » .

وسأله الملك سليمان اذا كان يستطيع ان يرشده الى المكان فأجابه :

- بالطبع .. افلست انا بدوياً من تلك الانحاء ؟

ووعده الملك سليمان بانه اذا صدر عن الجمجمة صوت حـين يقرعها فسيعطيه وزنه ذهباً أما إذا لم تنطق فسيقطع رأسه .

وتوجه الملك سليمان ورفاقه بصحبة البدوي الى حيث ترقـد الجمجمة العظيمة في الصحراء المجهولة . ولما وصلوا إليها قرعها الملك سليمان بعصاه فلم تنطق وأعاد الكرة مرة ثانية وثالثة ولكن دون جدوى . فأمر خدامه أن يقطعوا رأس البدوي . وعندما فعلوا ذلك طاعة لأمره بدأت الجمجمة تخاطب الرجل المقطوع الرأس بقولها : « كب الفاقه عنك .. أنا مـــا قلتلك « كب الفاقه عنك » ؟ لا تمزح عليّ » .

ولمـــا نطقت الجمجمة حزن الملك سليمان كثيراً لقطعه رأس البدوي ووقف يتأمل لمعرفة ما سيفعله . وقرر أن يستدعي جميع طيور السماء ليسألها مـــا إذا كانت تعرف ملكاً عجيباً يدعى عاد بن جنعاد . ولبت الطيور طلبـه ولكنها جميعها أبلغته أنها لم تسمع بملك يدعى عاد بن جنعاد . وجاء نسر قديم بالغ القدم يزحف .. أكل الدهر عليه وشرب بحيث لم تعد هنالك على جسده ريشة واحدة . وسأله الملك سليمان إذا كان قد سمع بعاد بن جنعاد الذي كان يعيش في مدينـــة عظيمة بنيت بالذهب والفضة تدعى أوبار . وقال له الملك :

- إذا كنت تستطيع أن تخبرني عنه فسأمر بيدي فوق جسدك العـــاري

فينبت فيه الريش من جديد وتعود وكأنك طير شاب .

وأجابه النسر بقوله :

– نعم أيها الملك . لقد سمعت بعاد بن جنعاد وبإمكاني أن أدلك على مدينته العظيمة المبنية من ذهب وفضة ومن مرمر وياقوت .

ورفع الملك يده فوق ظهر النسر فنبت ريشه في الحال وعـــاد إليه شبابه فاقتاد الملك سليمان ورفاقه الى المكان حيث تقوم فيه أوبار تحت الرمال . وطار النسر فوق المكان وقال للملك سليمان : « هنا تحت الرمال ترقد أوبار » .

واستدعى سليمان الشمال (الرياح الشمالية – الغربيـــة) لتهب وتحدث عاصفة شديدة من الغبـــار . ثم استدعى القوس (الرياح الجنوبيــة الشرقية) لتحدث عاصفة مماثلة . وبعـــد استدعى الرياح الغربية فالشرقية . وبعد أن هدأت العواصف انكشفت مدينة أوبار أمامـــه فدخل إليها سليمان ورأى بأم عينه بنيانها المشيد بالذهب والفضة والمرمر والياقوت . ورأى كذلك الحدائق التي كانت تعرف بجنات عاد ، والجحيم الذي لا تنطفىء ناره أبداً .

دب الهلع في قلب الملك سليمان عندما رأى كل ذلك لأنــه خشي أن يغضب الله عليه ويعاقبه فيما لو بقي هناك . فخرج من مدينة أوبار ودعا الرياح الأربــع فهبت بكل قواها وغطت المدينة من جديد . وهي الى اليوم مدفونة تحت رمال الربع الخالي .

وعاد الملك سليمان الى بلاده . حدث ذلك في أيام الملك سليمان بن داود .

هذه هي القصة كما رواهـــا لي محمد بن سالم دراهم المرّي . عندما انتهى من الكلام سألته مـــا إذا كان هو او أي فرد آخر من قبيلته يعرف بالضبط موقع أوبار اليوم . فأجاب انهم بالتأكيد يستطيعون القول إنها تقع في مربع من الأرض ضلعه عشرة أميال ولكن الموقع بالضبط لم يكتشف بعد، ذلك لأن كثافة الرمال تجعل من المستحيل القيام بحفريات هناك . ولكنه قـــال إن البدو في تلك المنطقة يلتقطون أحياناً قطعاً من الخزف وقوارير مكسورة عندما تكشف الرياح عنها الرمل . إن الرمال هنـــاك حمراء اللون وتشع في نور الشمس وكأنها ممزوجة

بالذهب . أما كثبان الرمل الرئيسية في الربع الخالي فهي بيضاء اللون وتتحرك باتجاه الشمال سبعة أذرع سنوياً .

وتذكرت أن فيلبي يظن – كما جاء في كتابه « الربع الخالي » – ان أوبار أو وبار كما يلفظها وكما حددها على خريطته ، ربما كان قد دمرها نيزك وان أم الحديده حيث يبدو واضحاً أن نيزكاً قد اصطدم بالأرض هناك تقوم مكانها . وسألت محمد ما إذا كانت لآل مرّه أية تقاليد تقول بأن أوبار قد دمرت بفعل نجم سقط من السماء ، فأجاب :

– لا .. لقد طغت عليها الرمال .

واستوضحته بقولي :

– كيف إذن تمكن آل مرّه من تحديد موقعها التقريبي ؟

وكان جوابه ان آثاراً قديمة لا تزال موجودة في الصحراء لا سيما فوق الاجزاء الصخرية المكشوفة وكل تلك الآثار تشير الى مكان واحد وهو المدينة المدفونة تحت الرمال . ووصف لي موقعها العام حسب تقاليد آل مرّه بقوله :

– بين بلاد آل رشيد وبين وادي دواسر ، وبين ام الحديده وبين الدكاكه .

وقال ان آل مرّه يعرفون المنطقة اليوم باسم « محل الصيد » لأنها يكثر فيها الوعل والغزال والنعام . ويوجد في رمالها الكثير من « الداموسه » (نوع من الزحافات التي تشبه التمساح) .

وسألته :

– كم تبعد أوبار هذه عن أم الحديده ؟

– خمسة أيام على الجمال في الاتجاه الذي يغيب فيه نجم سهيل .

وذلك يعني ان تقع جنوب ام الحديده .

واضاف محمد قائلاً :

– ونحن آل مرّه لدينا خرافات واعتقادات تقول انه اذا حاول أحد كشف هذه المدينة يعاقب الله العالم .. وتكون النهاية .

وسألته ايضاً :
- اصحيح ان المرشدين المرّيين الذين رافقوا فيلبي خافوا عندما اقتربوا من المكان واقنعوه بأن ام الحديده هي المكان الذي توجد فيه أوبار ؟
وقال محمد بن سالم : لا شك في ذلك أبداً .

اغنية غريهبان[1]

قال محمد بن سالم انه كان يعيش في جوار نجران رجـــل من مرّه وزوجته وولداهما . وكان الولد الأكبر مختل العقل فكان أخوه ، وهـــو بحالة طبيعية ، يضحك عليه ويسخر منه .
مرض الأب ومات تاركاً ارملة وولدين . وتزوجت هي مرة أخرى وانجبت ستة أولاد من زوجها الثاني . كان ابنها الأكبر يدعى غريهبان وكانت حياته قد اصبحت تعيسة بسبب اضطهاد اخوانه له . فقـد كان له طريقه الخاص على كل حال ولم يكن ليخرج بدون قطعة من الخشب يركب عليها متظاهراً بأنـه شيخ يركب فرسه . وعندما بدأ يبلغ سن الرشد كان يقول لأخوانه دائماً انه سيقتلهم في يوم من الايام ولكن ذلك زاد في سخريتهم منه .
وذات يوم ذهب غريهبان الى زوج أمه وطلب منـــه ان يعطيه حصته من الاغنام والجمال وان يسمح له بالزواج . فسخر منه الرجل في البداية ولكنه عندما رأى ان الشاب جاد في كلامه وان نظرات الحقد والكراهية تنبعث من عينيه ، ارتعد وخاف .. ولكن بعد فوات الاوان . فقد استل غريهبان خنجره وبطعنة سريعة واحدة ارداه قتيلاً .
واصبحت ثروة العائلة كلها لغريهبان وبدل الخشبة أصبح يركب فرساً أصيلاً .
ثم تزوج فتاة في القبيلة اشتهرت بجمالها لها شعر طويل يتدلى حتى قدميها .
كان غريهبان كل ربيع وشتاء يطوف الصحراء مع زوجته وقطعانه . وذات يوم كان عليه ان يقوم برحلة الى طويبع في نجران لشراء المؤن . واثناء غيابه جاء غزاة من قبيلة معادية فاقتادوا قطعانه ونهبوا خيمته واثاثها وأخذوا ثياب وحلي

زوجته وتركوها عارية في الشمس .

ولدى عودته من المدينة حزن غريبان كثيراً لما حــــدث واتجهت افكاره بالدرجة الأولى الى زوجته العارية . وفي الوقت نفسه صعقه لون بشرتها البيضاء وشعرها الجميل الطويل فدعاها ان تأتي اليه ولكنها خجلت من التحرك من مكانها فخلع كوفيته الحريرية عن رأسه وغطاها بها . ثم حملها وراءه على فرسه وامرع بها الى خيمة مجاورة لاصدقائـــه حيث تركهـــا هناك وامرع ليلحق بالغزاة لاستعادة ممتلكاته منهم .

ولم تكن فرسه مجربة بعد فيما يختص بالسرعة ولكنها اثبتت انهـــا جديرة بسمعتها . ولحق بالغزاة في الليـــل فيما كانت القطعان ترعى فقتل شيخهم وسبعة عشر رجلا آخرين ولاذ الباقون بالفرار .. فأعاد ماشيته المسروقة الى منزله .

وبعد هذا النصر المبين أعلن غريبان شيخا على فرع قوي من فروع آل مرّه ولا يزال اسمه شهيراً في القبيلة الى اليوم . وعندما يسير آل مرّه عبر رمال الربع الخالي المقفر يدندنون وينشدون اغنيات تتغنى بغريبان وفرسه وشجاعته وقدرته على قتل الغزاة بمفرده ، وتتغنى بخيمة غريبان وكل شيء يخصه .

وهذه هي اغنية غريبان كما نقلتها على لسان محمد بن سالم بن دراهم المرّي .

الي سبق ما يتقط راكبها (١)

إلا لنهار وربدها على الطويبع

قد ما الرجال القصير عنها

إلا بعرضها شبوى الصندايع

* * *

لما جيت القى بها مسلوبه

تدري من دمعة عينها انا جميله

بيضا وقت البياض بصفاره

مثل لون الذهب والفضه البياضا

* * *

لامي بنت قصيره .. قصيره شاينه
لامي بنت طويله وباي
وان كان خفت البلا ورديتها
فين الرقايد مال سوداي

* * *

خفت شيخ القوم ثم ذبحته
غدا الجمال ليلة السدرا في ظامه
ذبحت منهم تسعة وثمانيه
ورديت هزهم على جزلاي

* * *

وكما ذكرت اي. س. ستيفنز في كتابها «حكايات شعبية من العراق» فان كثيراً من المقاطع مقلوبة في اغاني آل مرّة الذين لهم لهجة خاصة بهم . ويصعب ترجمة اغنية غريبة هذه بأمانة ودقة لأن بعض الكلمات فيها ليست مفهومة حتى باللغة العربية . ولكن المعنى الاجمالي لهذه الاغنية هو كما يلي :

لم أجرب خطواتها من قبل
إلا عندما ركبتها الى آبار الطويبع
ان الرجل القصير لا يستطيع ان يضع اللجام في فمها
إلا عندما يقف اعلى منها على ارض مرتفعة .

* * *

وعندما عدت وجدت زوجتي عاربة
والدموع تنحدر من عينيها الجميلتين
كان جسدها ابيض لدغته الشمس بالصفار
فأصبح بلون الذهب والفضة التي بيدها .

* * *

لم تكن قصيرة .. بشعه

ولم تكن طويلة غير لائقة
فاذا لم الحق بالجمال واعيدها
فسأنام مع امرأة سوداء

* * *

لحقت بشيخ القوم وقتلته
وكانت الجمال ليلة السدرا ترعى بهدوء في الظلام
وقتلت تسعة وثمانية من الغزاة
واعدت كل شيء الى عائلتي

ابن تعذاب المري

استطاع محمد بن سالم ان يؤكد لي حقيقة قصة رواها لي في السنة ذاتها محمد بن عبداللطيف المانع من أعيان قطر .

قال انه منذ عدة سنوات كان يعيش في صحراء الجفوره (١) (الى جنوب — غربي قطر) شيخ شهير من فرع البهيته (٢) في آل مرة اسمه تعذاب وينتمي الى عائلة ابن ديلا . وقد تزوج تعذاب من امرأة شابة لكنها لم تعجبه . وبعد ان قضى معها سنة لم تنجب له خلافها ولذا قرر ان يطلقها ليتزوج غيرها .. ولم يكن يعرف انها حامل .

ولا يجيز القانون في الجزيرة العربية للمرأة المطلقة ان تتزوج قبل مرور ثلاثة أشهر قمرية (أي بعد مرور ثلاث دورات طمثية) وذلك للتأكد من انها ليست حاملاً من زوجها الأول . ولكن في تلك الأيام لم تكن تلك القبيلة البدائية تتبع الشريعة الاسلامية بحذافيرها ، فبعد مرور خمسة عشر يوماً تزوجت زوجة تعذاب السابقة من رجل آخر يدعى جابر من فرع آل جابر في قبيلة مرة . وفي الوقت المناسب انجبت ولداً فرح به الجميع .

وبعد خمس أو ست سنوات انتشرت شائعات بين قبيلة البهيه ان لتعذاب ولداً يعيش مع آل جابر . ان لآل مرة مهارة عجيبة بحيث انهم اذا شاهدوا آثار

اقدام الأب ، حيواناً كان أم انساناً ، يستطيعون معرفة هوية نسله . وقد أكد عدد من الرجال الذين شاهدوا آثار أقدام الصبي انها تشبه تماماً آثار اقدام تعذاب.

ولما سمع تعذاب بهذه الشائعات أجرى مزيداً من التحقيقات فلما اقتنع بحقيقتها أرسل يطلب اعادة ابنه له . ولم يعترف آل جابر بادعائه في البداية مما أدى الى نزاع طويل الأمد تخلله قتال وغزو بين العشيرتين . وفي النهاية – وكان الصبي قد بلغ سن الرشد يعرف باسم هادي – حدثت معركة انزلت فيها قوة ابن ديلا الهزيمة بآل جابر . وبذلك انتهى النزاع لأن هادي عرف حقيقة نسبه فوافق ان ينضم الى والده الحقيقي تعذاب .

واشتهر هادي بن تعذاب المرّي بشجاعته وكرمه للجميع . وتروى عنه قصص انه كان يحتفظ بالنار مشتعلة طوال الليل امام خيمته في الصحراء يرشد المسافرين الى خيمته حيث كانت تحسن وفادتهم ويحضر لهم الطعام . وعندما توفي والده تعذاب اصبح هو شيخاً على العشيرة وخلفه بعد مماته شيخان آخران هما رشيد بن ديلا المرّي ومحمد بن جادالله المرّي .

المعركة مع شويعر اليمني

هذه قصة خرافية أخرى رواها لي محمد بن عبداللطيف المانع وتتعلق بعلي بن مرّه جد قبيلة آل مرّه .

كان علي بن مرّه يعيش في نجران في جنوب غربي الجزيرة العربية . ولم يكن قومه على علاقة ودية مع أهل اليمن . وبعد منازعات ومناوشات صغيرة قرر ان يخوض معهم معركة حاسمة . فسار مع قومه لمجابهة شويعر اليمني الذي يقال انه من قبيلة قحطان ، وقاتله يوماً كاملاً سقط خلاله عدد كبير من القتلى بين قوات الطرفين . وتجدد القتال سبع مرات بحيث لم يبق على قيد الحياة سوى القائدين علي وشويعر اللذين اوقفا القتال وعاد كل منهما الى أهله .

كان وقف القتال موقتاً اذ ان علياً عاد لتجديد النزاع آخذاً ابنه معه هذه المرة . وحدث ان فعل شويعر نفس الشيء . واشتبك الطرفان فكان ابن علي

يقاتل شويعرَ وابن شويعر يقاتل علياً . وتغلب علي على ابن شويعر وقتله بطعنة من خنجره ولكنه في هذه الاثناء سمع ابنه يستغيث طالبـاً النجدة فهرع اليه قائلاً :

– لبيك يا صبي .. قبل ان تضحك صرخت !

وقبل ان يسدد طعنة نجلاء إلى قلب شويعر خاطب ابنه بصوت عال قائلاً :

– والله قمت مثل العير أصلي حيي على الفلاح .

واهتزت الأرض وانفتحت عند أقدامهـا هوّة سحيقة ابتلعت شويعر .. فخاف علي وابنه وقال :

– والله قلت للقصير لا تزح .. والله كانت اباعيرهم جربى واباعيري أصحا .

وانسدت الهوة السحيقه ورأى الله ان علياً بن مرّد رجـل طيب فباركه ووعده بأن نسله سيتكاثر الى أن يصبح بعدد رمال الصحراء .

كلب الهفوف الأسود

وهذه قصة من عجمان رواها لي في ١٣ نيسان سنة ١٩٤٣ زعيم شاب في تلك القبيلة اسمه سعد بن منيف الحبيشي .

في قديم الزمان كان أحـد أجدادهم وهو رجل يدعى عجيم بن علي مسافراً على ذلوله من نجران حيث كان يقيم قاصداً الهفوف . وبعد أن سار قرابة خمسة وعشرين يوماً مرّ في بقعة موحشة من الصحراء حيث التقى بشخص ظنه وحيداً ولكنه كان في الحقيقة من الجن . فحياه الغريب وسأله عن وجهة سيره فأجابـه عجيم بقوله :

– الى الهفوف في الاحساء .. لدي شغل هناك .

وقال الغريب :

– وأنا أيضاً لدي شغل مهـم في الاحساء ولست أعرف كيف سأصل الى هناك سيراً على الأقدام لأنها بعيدة .

– تعال واركب معي .. أهلاً بك .

قال عجيم: ذلك وأركب الغريب وراءه على ذلوله . وسارا عدة أيام الى أن ذا الذلول بحمله فسقط من الاعياء . وأصبح عجيم الآن رفيق الغريب (او خويه) ولم يعد بإمكانه ان يتركه في الصحراء . ولذلك اقترح أن يبقى مع الأمتعة ويذهب الرجل الآخر لوحده وحثه على ذلك بقوله :

- خذ الذلول واذهب لقضاء شغلك في الاحساء وعد إليّ بأسرع وقت ممكن .

ورفض الغريب هذا الاقتراح علماً منه بالخطر المحدق برجل وحيد في الصحراء . لا سيما خطر ان يأكله الذئاب . وقال :

- إذا كنت تقضي لي شغلي فلا حاجة لي بمتابعة السفر بل سأعود من حيث أتيت .

ووافق عجيم أن يفعل كل ما يطلب منه مقسماً بالله وبوجهه .

قال الغريب :

- عندما تصل الى الهفوف اذهب بعد الظهر قبل الغروب الى البوابة الشرقية للمدينة وهناك تجد راقداً في الظل كلباً كبيراً أسود اللون تماماً ليست فيه شعرة واحدة بيضاء . إذهب إليه وارفسه ثم ربت على رقبته . وعندما يهب اسأله : « أأنت السيد نوري » فيجيبك : « نعم أنا هو » . عندئذ تقول له : « محمد نوري مرصيني عليك أقول لك أخوك انذبح في نجران وانا مضيم وأنت لا تخليني » . ويجب أن تكون حذراً لئلا يسمع أحد الحديث .. ثم افعل ما يأمرك به .

وركب عجيم ذلوله الذي استعاد نشاطه تاركاً الغريب هناك ووصل الى الهفوف . وفي المساء توجه الى البوابة الشرقية كما طلب منه وهناك وجد بالفعل كلباً أسود اللون في ظل برج البوابة . ولكن كان هناك عدد كبير من الناس . وعند مساء اليوم الثاني فوجد الكلب في مكانه ولكنه وجد بعض الناس أيضاً . وفي اليوم الثالث عاد في ساعة متأخرة فلم يجد أحداً سوى الكلب النائم فرفسه وربت على رقبته ولما هموم الكلب عليه بضراوة سأله بقوله : « أأنت السيد

نوري ؟ » .

فتحول الكلب فجأة الى انسان وأجابه : « نعم أنا هو » .

فقرأ عجيم على مسامعه الرسالة التي كلف بأدائها .. ورد عليه الرجل بقوله :

ــ لا أستطيع ان أساعده بشيء حتى يزول مني ذلك السحر الذي يحولني الى كلب أسود كل مساء. ولن يزول السحر إلا عندما أتزوج ابنة عيسى القصيبي. ان الشياطين تسكنني الآن . يجب أن تصادق العائلة ثم تقتل الديك الأصفر عندئذ يصبح بإمكاني ان آتي وأتزوج الفتاة الجميلة.. في هذه الحالة فقط أستطيع أن أتحرر من هذا الكابوس .

وبعد ان أنهى كلامه عاد الرجل فتحول الى كلب أسود .

دهش عجيم لما رأى وراح يبحث عن منزل عيسى القصيبي . وأرشد الى المنزل حيث تعرف على عيسى الذي دعاه ليعين وقتاً يأتي فيه لتناول القهوة معه . ووعده عجيم ان يأتي في المساء قبل الغروب .

وعندما عاد الى المنزل أدخل الى الديوانية المفروشة بالسجاد وقدمت له القهوة .

وصاح مضيفه قائلاً : « هات قدوه » (أي حلوى) فدخلت الى الغرفة صبية حسناء تحمل صينية ملأى بالتمر ووعاء ماء .

هذه هي ابنة عيسى القصيبي . فبعد ان شغلت نفسها بعض الوقت في الغرفة خرجت حاملة الصينية معها . وجلس عجيم بعض الوقت بعد تناول القهوة ثم لاحظ ديكاً أصفر اللون يتمايل خارج الغرفة ولما حان وقت مغادرته أنقد عجيم مضيفه ثلاث قطع ذهبية فسأله عيسى :

ــ متى ستشرفنا مرة ثانية .. البيت بيتك ويسرنا ان نراك دائماً .

وفي اليوم التالي ذهب عجيم الى هناك لتناول القهوة فقدمت له الصبية الحسناء التمر كما فعلت في اليوم السابق . وفي هذه المرة دخل الديك الأصفر الى الغرفة . وقبل مغادرته انقد عجيم مضيفه ثلاث قطع ذهبية . فقال عيسى :

ــ نريدك أن تأتي لتناول الطعام في المرة القادمة وليس فقط لشرب القهوة..

متى تأتي ؟

وعده عجيم ان يأتي عند الغروب في اليوم التالي لتناول طعام العشاء . وتم ذلك في الوقت المحدد وكالعادة وضع عجيم ثلاث قطع ذهبية في يد عيسى الذي قال له :

– هذا البيت بيتك .. تعال لزيارتنا في أي وقت تشاء .

وقام عجيم بزيارة عيسى عدة مرات شرب خلالها القهوة ولم ينس ان ينقد مضيفه قطعتين او ثلاثاً من الذهب في كل مرة . وذات صباح ذهب الى المنزل الذي يبدو انه لم يكن فيه أحد فجلس ينتظر في الديوانيه . وبينما هو جالس دخل الديك الأصفر فوجد عجيم ان الفرصة مناسبة لقتله فهجم عليه بعصاه وانهال عليه ضرباً حتى الموت .

ولم يكد يزيل بقع الدم عن الأرض حتى دخل عيسى الغرفة فوجد الديك ملقى على الأرض خامد الأنفاس . وشرح له عجيم كيف ان الديك هاجمه وهو داخل فقتله دفاعاً عن النفس فأمر عيسى بنقل الديك وطرحه بعيداً . وظن عجيم وهو يغادر المنزل انه سمع صوت فتاة تبكي وتنتحب في غرفة بعيدة .

مات الديك وزال السحر فأصبح الكلب الأسود تلك الليلة رجلاً دخل الى منزل عيسى خلسة وتوجه الى غرفة الصبية الحسناء وأجبرها على مضاجعته . حدث ذلك في الليلة الثانية والثالثة فخرجت الأرواح الشريرة من الرجل ودخلت الى الفتاة التي أصبحت وكأنها تسيطر عليها الشياطين .

وقلق والدها قلقاً شديداً ، وهو الذي لم يكن يعرف ما حدث ، فعرض خمسماية قطعة ذهبية لمن يستطيع شفاءها . وجاء السيد نوري الى عجيم وأبلغه ان عليه ان يتظاهر بأنه طبيب فيذهب الى الفتاة ويقرأ لها ويعطيها دواء سلمه له فيحصل بذلك على الذهب .

وتوجه عجيم الى المنزل مرة أخرى وأخبر عيسى انه يعتقد ان بامكانه شفاء ابنته ، وانه احضر معه دواء لهذه الغاية .

وبعد ان قرأ فوقها اعطاها الدواء لتشربه فهدأت في الحال وغطت في نوم

عميق . وفي الصباح نهضت وكأن شيئاً لم يحدث لها . وأخذ عجيم خمسماية قطعة من الذهب من عيسى . . وبعد أن شكره السيد نوري على كل ما فعله من أجله ، قرر العودة الى نجران .

ولكونه من الجن استطاع السيد نوري ان يسافر بسرعة أكبر . فذهب الى نجدان وقتل قاتل شقيقه وانضم الى شقيقه الآخر محمد نوري في الصحراء قبل ان يصل عجيم الى هناك . فوصل عجيم ليجدهما في انتظاره وقد أقاما وليمة عامرة واخبراه انها رداً لجميله قررا ان يزوجاه شقيقتهما بشرط ان يعاملها بالحسن ولا يغضبها . فوعدهما بذلك وتزوج الجنية التي تدعى يامية .

وحملها معه الى نجران حيث عاش معها في غمرة من السعادة . وبعد سنة رزق منها ولداً ولكن حدث ان دخل كلب أسود الى الخيمة دون ان يلاحظه أحد فحمل الصبي وهرب به . وحزن عجيم كثيراً لكنه لم يقل شيئاً ولم يغضب من زوجته .

وبعد سنة حدث الشي ذاته : رزق ولداً فجاء الكلب الأسود وحمله واختفى به . وكظم عجيم غيظه وتحمل حزنه بصمت ولم يقل شيئاً لزوجته . ولكنه عندما تكرر الأمر مرة ثالثة انفجر غاضباً ولعن زوجته لعدم اهتمامها ودرايتها . عندئذ اختفت الزوجة في الحال وعادت الى اشقائها اللذين نقلاها معهما الى تحت الأرض لتعود الى أهلها الجن .

ونقل عجيم ايضاً الى العالم السفلي ليعيش مع الجن لكنه لم يعرف ان اولاده الثلاثة كانوا هناك تعتني بهم جدة زوجته . وبعد ان قضى عدة سنوات مع الجن تحت الأرض أعطاه اشقاء زوجته ذلولاً وفرساً وسمحوا له بالصعود الى الصحراء والعودة الى قومه . وقالوا له :

– بعد أن تسير ساعة من الزمان سيلحق بك أولادك الثلاثة وستسمع خلفك وقع حوافر الخيل. فيجب عليك أن لا تلتفت الى الخلف لأن كل ما تراه أمامك خير وكل ما ستراه خلفك سيكون شراً .

ونقل عجيم الى الصحراء مرة ثانية وتابع سيره . وبعد ان سار مدة ساعة

سمع خلفه وقع حوافر الخيل . وما هي إلا لحظات حتى رأى شاباً وسيماً على فرس عظيمة يتخطاه ثم يلتف لمواجهته ويترجل عن فرسه ليقول له بعد ان قبله :

– يا والدي . . انا ابنك الأكبر .

وفي تلك اللحظة اندفع بقربه فارس آخر أخذ يلتف ويقوم بحركات مدهشة عن حصانه ثم ترجل امام عجيم وقال له بعد ان قبله :

– يا والدي .. انا ابنك الثاني .

وسمع عجيم من بعيد اصوات خيال آخر فهاجه الشوق لـــيرى ابنه الاصغر بحيث انـــه نسي وصية الجن فتطلع الى الخلف . ولم يكد يلتفت حتى انشقت الارض محدثة صوتاً رهيباً وابتلعت الشاب وحصانه ولم يعد يراهما .

كان ابنه الأكبر يدعى مرزوق بن عجيم ويدعى ابنه الثاني مرّه بن عجيم . وقال سعد بن منيف ان هذين الشابين هـــما جدا قبيلتي عجمان وآل مرّه . وعاد عجيم مع ولديه الى نجران وعاشوا هناك .

اكلته الذئاب حياً

ان الجن تدعو محمد نوري لم يذهب لوحده الى الاحساء لأنه يخاف الذئاب . وهذا الأمر اعاد الى ذهني حادثة حقيقية رواها لي شقيق سيّنا (1) وهي صديقة لنا من عجمان .

وقعت هذه الحادثة في سنة ١٩٤٨ بشمال الاحساء حيث تكثر الذئاب نظراً لكثرة الينابيع التي تنمو حولها أشجار النخيل حيث تختبىء الذئاب في النهار . وكان فريق من عجمان يتوقف جنوباً فتوقف في الليل عند إحدى الآبار لـــكي تشرب الجمـــال . وعندما نهضوا ليستأنفوا السير في الصباح الباكر تخلف رجل وعائلته وبقوا بعيدين عن رفاقهم مسافة خمـــة أميـــال . ولم يكن في نية الرجل ان يرافق زوجته وأطفاله الى الجنـــوب بل رافقهم حتى يلتحقوا برفاقهم عند البئر الأخرى . ومن هناك عاد الرجل بمفرده .

وبعد يومين عثر عليه رجال من عجمان ، احدهم شقيق سيتا ، كانوا متوجهين شمالاً . وكان لحم يديه ورجليه قد أكلته الذئاب تمـــاماً ولم يبق سوى العظم . ولكن وجهـــه ورقبته وصدره وبطنه لم تمس . . وكان لا يزال واعيــاً يتكلم فتوسل الى هؤلاء الرجال ان يأخذوه معهم حتى لا يظل فريسة للذئاب . وقالوا له انهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً من أجـــله ، ولكنه الح في الرجاء فخلع احدهم رداءه ولفه به وحمله معه الى خيمته . وقالت سيتا ان منظر الرجل كان مرعباً . ولكنه كان واعياً يعرف الناس. وقد رش أهل المنزل الرماد على رجليه وذراعيه ولكنه توفي بعد يومين فدفنوه .

البدوي اللص

هذه قصة أخرى تظهر شجاعة البدوي وتخاذل ابن المدينـــة وقد رواها لي سعد بن منيف الحبيشي من قبيلة عجمان .

كان هنالك رجل شهير بين بدو الجزيرة العربية . ومع انه كان لصاً ، لكنه كان ذكياً بحيث ان احداً لم يستطع ان يمسك به فيتخلص دائماً من شباك العدالة التي تنصب للصوص . وسرى همس بين الناس انه يستطيع ان يفتح اي قفـــل ويدخل اي منزل في الليل دون ان يقبض عليه .

وحدث ذات ليلة ان تسلق سطح منزل تاجر ثري في مدينة مشهورة ودخل الى الغرفة العليا . وتلفت حوله فرأى صندوقاً كبيراً فخماً ظن انه لا بد ان يحتوي كنزاً ثميناً . ولكي لا يتأخر حمل الصندوق على ظهره ونزل عن السطح وخرج الى الصحراء عبر طريق ضيق .

وعندما وصل الى مكان يبعد عدة أميال عن المدينة توقف وفتح الصندوق بكل اعتناء ، فوجد داخله صبية حسناء قفزت فجأة وخرجت من الصندوق . وصعق محمد الحرامي (هذا هو الاسم الذي كان يعرف به) بحيث انه وقف مشدوهاً يحدق بالفتاة وقد أدهشه فرط جمالها .

ولما أفاق من دهشته تقدم نحو الفتاة ليضمها بين ذراعيه ، فظهرت من خلفها

ساحرة على شكل أسد هصور هجم عليه . واندفع محمد نحو الاسد خنجره بيده وقتله .

واصراراً منه على امتلاك الفتاة ، اعاد الكرة فحدث الشيء ذاته : استل خنجره مرة ثانية وقتل الاسد . ومرة ثالثة جاءت الساحرة على شكل أسد حماية الفتاة ، ومرة ثالثة قتلها محمد .

وهنا تحدثت اليه الفتاة قائلة انها بنت بيت (اي من عائلة عريقة) . . فإذا كان يعدها بوجهه انه لا يلحق بها اي أذى ، فستخبره قصتها. ووعدها محمد بذلك فجلست الى جانبه وقالت :

– انا ابنة الملك وقد عقد قراني على ابن عمي الذي لم أكن أحبه ولا أرغب في الزواج منه . وهربت ليلة الزفاف الى منزل جارة طلباً للحماية فاقتادتني ربة البيت وهي صديقتي الى الطابق العلوي وخبأتني في الصندوق . ثم أتيت أنت فسرقت الصندوق اثناء الليل وجئت بي الى هنا . والآن اتوسل اليك ان تعيدني داخل الصندوق الى حيث وجدتني .

ولما كان محمد قد وعدها بان لا يلحق بها اي أذى ، فقد حملها وعاد بها قبل طلوع الصباح ووضع الصندوق في المكان الذي وجده فيه .

وحدث قلق عظيم في القصر عندما اختفت الأميرة فجرى البحث عنها في كل مكان دون نتيجة مما أدى الى تأجيل الزفاف . وفي صباح اليوم التالي تسللت الى القصر لتجد والدها في حالة يرثى لها اذ لم يكن أحد يعرف ما حل بها . اما هي فلم تقل شيئاً إلا انها قضت الليل في منزل احدى صديقاتها لأنها لم تكن ترغب في الزواج من ابن عمها .

وصرخ بها الملك مزمجراً :

– لن تبرحي هذا المكان . . وسنحتفل بالزفاف هذه الليلة .

وامتلأ قلب الأميرة حزناً ولكنها رضخت اكراماً لوالدها. وجرى الزفاف تلك الليلة وادخل العريس غرفة الزوجية حسب العادات لينتظر عروسه هناك . ثم جاءت العروس مع صديقاتها اللواتي تركنها لوحدها واغلقن الباب . وجلس

العروسان صامتين لفترة من الزمن . . ولما تحرك العريس نحـو زوجته قفز من السقف فجأة جرذ كبير وسقط على العروس . ولشدة الرعب لم يحاول العريس ان يقتل الجرذ بل انزوى في زاوية الغرفة وقبع هناك طول الليـل . وفرحت الاميرة فرحاً لا يضاهى وضحكت في سرها على قلق زوجها وخوفه .

وتكرر الحادث في الليلة التالية إلا ان الجرذ في تلك الليلة كان أكـبر من الجرذ الأول بحيث ان العريس ارتعب وهرب الى غرفـة أخرى وقضى فيها بقية الليل .

وحدث الشيء ذاته في الليلة الثالثة . . . فـلم تعد أعصاب العريس تتحمل وبلغ به القلق والخوف حداً حمله إلى اللجوء للملك ليشرح له ما حدث بالضبط . وقد حز في نفسه ان تظهره الاميرة بمظهر الجبان الغبي فأعرب الملك عن دهشته كيف ان صبية عزباء تضحك عليه في محنته في الوقت الذي يجب عليها فيه ان تخجل وتخاف . وقال للملك :

– والآن اطلب منك ان تسمح لي بطلاقها .

وخجل الملك وانزعج كثيراً لسماع هذه القصة فأرسل في طلب ابنته .

وقالت له :

– يا والدي . . اذا وعدتني بأن لا يصيبني اي أذى فسأخبرك كل شيء .

واخبرت الأميرة والدهـا كيف هربت ليلة زفافهـا الى منزل جارتها التي خبأتها في صندوق جـاء لص فسرقه وهي في داخله وذهب بها الى الصحراء ، وكيف ان اللص الذي اعجب بجمالها حاول ان يقترب منها فخرجت اليه ساحرة على شكل أسد فقتلها ثلاث مرات قبـل ان تطلب اليه ان يعدها بوجهه ان لا يصيبها بأذى وان يعيدها الى المكان الذي وجدها فيه .

وتابعت الأميرة قصتها بقولها :

– وعندما رأيت ابن عمي الذي زوجتـني إياه يرتعد لمرأى جرذ ويصبح كامرأة بائسة ضحكت وخطر ببالي الرجل الذي قتل ثـلاث حيوانات كاسرة ولم يرف له جفن .

وبعد ان سمع الملك بهذا اللص الذي لم يمكن القبض عليه أقسم على الفور ان يجده اينما كان .

وسأل الملك ابنته :

– هل تعرفين الرجل اذا شاهدته مرة ثانية .

فأكدت له ابنته ذلك .

وبعد ان فكر عدة أيام في افضل السبل للوصول الى هـــذه الغاية خطرت للملك فكرة . فقد أرسل دعوات في طول البلاد وعرضها لحضور مأدبة كبيرة تقرر ان تذبح خلالها عشرة جمال وعدد من الخراف والدجاج . وفي اليوم المحدد مدت الموائد في ممر طويل له مدخل من كل جهة احدهما يقود الى ممر جانبي وهو الذي سيصل منه المدعورون ، والآخر يقود الى فسحة من الارض تصب فيهـــا مجاري مياه مطابخ البيوت المجاورة ولذلك كانت دائماً موحلة رطبة .

وأمر الملك بوضع طير كبير شرس على المدخل الرئيسي لارهاب الضيوف الذين بدأوا يفدون الواحد بعد الآخر . ولمــا كانوا يشاهدون الطائر المخيف لم يعودوا يتجرأون على الدخول الى القاعة بل استفسروا عما اذا كان هنالــك مدخل آخر للقاعة .. فلما كان الجواب بالايجاب داروا الى خلف القصر ومروا عبر الأرض الموحلة الى المدخل حيث تركوا احذيتهم ملوثة بالوحل .

واخيراً جاء بدوي في يده عصا ويبدو بسيط المظهر . ولما شاهد الطير على الباب نهره بصوت عال فانزوى الطائر وكأنه غط في النوم فدخل البدوي الى القاعة تاركاً حذاءه على المدخل الرئيسي .

وقدم الطعام فكان الارز واللحم على درجة كبيرة من الحرارة اذ احترقت بها اصابع الضيوف الذين لم يعد بامكانهم تناول الطعام إلا بعـــد برود الأكل . ولكن محمد الحرامي .. وهو البدوي الذي دخل .. أخذ سكينه من حزامه واخذ يقطع اللحم ويأكل حتى شبع ولم يأكل حبة واحدة من الارز .

وكان الملك يراقب هذا البدوي الغريب الذي كان الوحيد بـــين الضيوف الذي دخل من الباب الرئيسي ولما انتهت الوليمة وكان الضيوف قـــد بـدأوا

يغادرون القصر توجه الملك الى محمد وسأله عن اسمه واشاد بالطريقة الذكية التي اكل فيها اللحم وسأله لماذا لم يأكل الأرز فكان جوابه :

– انا لست سوى بدوي بسيط تعرفني قبيلتي باسم محمد .. وانا آكل الارز دائماً ولكن قلما اذوق طعم اللحم ولذلك فقد اكلت اللحم هذا اليوم وتركت الارز . وبعد تقديم القهوة والطواف بالبخور حسب العادات المتبعة غادر الضيوف القصر واحداً واحداً من الباب الذي دخلوا منه . واستعد محمد لكي يغادر القصر هو ايضاً واتجه نحو الباب الرئيسي ولكن الملك الذي ثارت شكوكه استوقفه وطلب منه ان يتبعه الى الداخل . وهناك كانت الاميرة تنتظر وراء الستار فلما رأت محمد عرفته في الحال . واستدعى الملك ابنته وسألها اذا كان هو الرجل الذي حملها في الليل . فأكدت له ذلك وعادت الى شقتها .

ونجحت خطة الملك ولكن حزن ودهش لكون جميع رعاياه من الجبناء وبينهم ابن شقيقه .

وقال الملك :

– في الحقيقة لا يوجد في مملكتي سوى رجل واحد جريء جدير بأن يكون زوجاً لابنتي . واطلب منه ان يقبل منصب الوزير في حكومتي وسأزوجه ابنتي .

وقبل محمد عرض الملك لأنه لم ينس جمال الاميرة الفتان . واحتفل في الزفاف بالحال وسط مظاهر من الفرح والابهة . ونفي ابن عم الاميرة خارج المملكة وعاش محمد مع عروسه حياة طويلة سعيدة .

اقتل الرجل الذي ذبح الكلب

هذه قصة أخيرة من قصص القبائل سأرويها هنا بقصد اظهار اهمية انزال عقوبة سريعة لابسط المخالفات ، لان البدو عندما تميع السلطة يفقدون الانضباط وتصعب السيطرة عليهم . وهذه ميزة عامة للعرب . وقد سمعت

وجهين لهذه الرواية . سمعت الوجه الاول منها على لسان خان بهادور[*] ملا صالح وهو سياسي قديم عمل وزيراً لآخر أربعة من حكام الكويت وقد تخلى عن الحياة العامة لابنه القدير عبدالله الملا صالح الذي يعمل حالياً سكرتيراً سياسياً لسمو الشيخ عبدالله السالم الحاكم الحالي ، ويبدو انه سيسير على خطى والده الشهير .

قال الملا صالح :

ـ كان لبدوي من مطير ثلاثة اولاد بالغين يعيشون في خيمة واحدة مع والدهم ويهتمون باغنام وجمال والدهم . وحدث ان كانت هذه العائلة مخيمة اثناء الصيف عند مجموعة من الآبار كما هي العادة في الجزيرة العربية . وكان يقيم الى جانبهم راع فقير من نفس القبيلة كل ما يملكه في هذه الدنيا عشر غنمات وجملان.

ومن المعروف ان اقدم قوانين الصحراء هو ان واجب الانسان الأقدس حماية جاره لأن محمداً رسول الله أجاب عندما سُئل عن واجبات الانسان الأولى في الحياة « جارهم ثم جارهم وجارهم » .

وذات يوم جاء أحد أفراد القبيلة لزيارة ذلك الراعي الفقير . وعندما اقترب من الخيمة خرج اليه الكلب وأخذ ينبح ويزمجر . ولما فشل في طرده شهر الزائر بندقيته واطلق النار على الكلب عمداً فأرداه قتيلاً .

وعم الاستياء البدو القاطنين هناك لهذا الحادث الغريب وحدثت موجة من الغضب لأن الكلب شيء أساسي بالنسبة لساكن الخيمة ليس فقط لأنه يمنع الذئاب من مهاجمة الاغنام في الليل وسرقتها بل لأنه يبعد اللصوص والمشبوهين ويحذر منهم . وذهب اولاد المطيري العجوز الثلاثة الى والدهم وأخبروه بما حدث طالبين نصيحته وقالوا :

ـ لقد قتل احدهم كلب جارنا عمداً .. فماذا نفعل ؟

وفكر الرجل قليلاً ثم قال لاولاده :

ـ يا اولادي اقتلوا ذابح الكلب .

---

* ـ خان بهادور لقب تمنحه حكومة الهند .

وخرج الشبان الثلاثة وتشاوروا فيما بينهم وقرروا ان والدهم اما ان يكون قد خرف او أنه ضرب لهم مثلاً ، لأنه من غير المعقول قتل انسان مقابل كلب . وبدلاً من ان يعملوا بنصيحته والدهم ذهبوا الى صاحب الكلب القتيل ليطيبوا خاطره . وبعد أن حاولوا تهدئته وتعزيته أخذوا يشجبون الحادث ويعربون عن استيائهم منه بين الخيام المجاورة فاثاروا المشاعر والعطف على الراعي المسكين .

وانحاز الرأي العام بصورة قاطعة الى جانب الراعي وتلقى القاتل شتائم وتوبيخات مقذعة . وبدا ان القضية انتهت عند هذا الحد . ولكنه بعد اسبوعين من الحادث تعرضت قواعد الحياة الصحراوية لخرق فاضح اكثر خطورة من الأول . فعندما كان الراعي المسكين يسقي أغنامه من أحد الآبار نزل عليه عدد من الشبان ابناء الأشرار وهم من القادمين الجدد من نفس القبيلة وقادوا جمالهم الى البئر التي كان يسقي منها أغنامه وارادوا ان يسقوا جمالهم قبله . واعتدى هؤلاء الشبان عليه بالضرب وكسروا الحوض الذي كان يسقي منه قطيعه الصغير .. وهذه قضية الخطيرة من قضايا الاعتداء على الضعفاء الذين لا حول لهم ولا طول وجريمة لا تغتفر بين افراد القبيلة ذاتها .

وعاد الراعي البائس الى خيمته يندب حظه ويصرخ : الى متى يضطهد الاقوياء الضعفاء .. اين انتم يا أهل مطير .. كيف تسمحون بهذا الظلم .. إن الله لا يوافق على هذه الأعمال .

ولما سمع اولاد المطيري العجوز الثلاثة بالحادث ذهبوا الى والدهم يطلبون نصيحته فيما يتوجب عمله لمنع تكرار مثل هذه الأعمال . وكان جواب والدهم لهم : « اقتلوا ذابح الكلب » .

وقال الاولاد الثلاثة فيما بينهم : « لا بد ان والدنا قد شاخ وخرف فنحن لم نستشره في قضية مقتل الكلب بل في قضية تعدي بعض الشبان على حقوق جارنا » .

وبالرغم من نصيحة والدهم لم يفعلوا شيئاً سوى التنديد بالمعاملة السيئة لواحد

من أفراد القبيلة. أما الشبان المعتدون فكانوا يقولون لكل من تجرأ على توبيخهم : « الى الجحيم ايها الثرثارون ! ألستم تعرفون ان القوي يجب ان يسيطر على الضعيف ؟ هذه هي قوانين الصحراء .. هكذا كانت منذ الأزل . »

ومر شهر من الزمان .. وأراد أحد صغار مشايخ القبيلة ، وهو شخص لم يكن محبوباً لشدة بخله ، ان يحصل على خروف ليقيم مأدبة دعا اليها . ولما لم يكن لديه خروف مناسب بعث رجاله ليروا ما إذا كان هنالك خروف للبيع في الخيام المجاورة . وصدف ان مر هؤلاء بجانب قطيع الراعي الذي قتل كلبه فخطرت لهم فكرة وهي ان يأخذوا احد خرافه بالقوة مبررين ذلك بقولهم : أو ليس هذا الراعي هو الذي تجرأ على القول بان خرافه الحق ان تشرب قبل جمال العرب ؟

وأسكت هؤلاء الراعي المحتج بقولهم ان شيخهم يريد ان يقيم مأدبة وهو بحاجة الى خروف .. والافضل له إذن ان يخلد الى الراحة وإلا تعرض للأذى .

وقد أثارت هذه المخالفة الكبرى موجة من السخط كما أثارت شعوراً بالشفقة على الراعي المسكين. ولكن إجراء حازماً لم يتخذ لأن الشيخ الذي سرق رجاله الخروف لديه جماعة أقوياء ، والناس عادة يتجنبون الخصومات التي تؤدي الى سفك الدماء لا سيما إذا كانت تتعلق بفرد فقير لا أهمية له في القبيلة .

وقال له الجميع : « أمرك لله .. هو يدبر كل شيء » .

وذهب الأولاد الثلاثة الى والدهم حانقين ، فالتفت اليهم والدهم وقال :

– لا تطلبوا نصيحتي .فكما قلت لكم من قبل أقول لكم الآن. اذهبوا واقتلوا الرجل الذي ذبح الكلب فتتوقف هذه الأعمال العدوانية ويتوقف معها استضعاف الفقراء المساكين .

وأثار هذا الكلام عواطف الأولاد الثلاثة فقرروا ان يعملوا بنصيحة والدهم. وأخذ هؤلاء يبحثون عن قاتل الكلب فعثروا عليه وذبحوه .. واستقبل العرب جميعهم هذا الحادث على انه عادل وله ما يبرره ؛ وكان الرأي العام الى جانب الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ حكم العدالة . وجاء أقارب الرجل القتيل

والشبان الذين طردوا أغنام الراعي من البئر والشيخ الذي سرق رجاله الخروف.. جاء هؤلاء وطلبوا الصفح والمعذرة من الراعي المطيري الفقير، وأصروا على أن لا تدفع دية الرجل القتيل، وقدموا له بعد ذلك كله تعويضاً عن كلبه الذي قتل واشتروا له حوضاً جديداً عوضاً عن الذي كسره الشبان الأشرار.

وساد السلام والهدوء بين البدو المخيمين حول الآبار وامتلأت نفوس الذين يميلون الى اضطهاد الضعفاء بالخوف والاحترام .. هذه هي العدالة التي تروق لرجل الصحراء.

ولما اخبرت هذه الرواية للقصة لعثمان بن حميد العتيبي وهو من الزعماء البارزين في قبيلة عتيبه قال إن هذه الرواية ليست التي تنطبق على عتيبه. وكانت روايته لها كما يلي:

– منذ سنوات كان هنالك رجل ثري معروف من عتيبه يملك قطعاناً كبيرة من الجمال وقطعاناً كثيرة من الأغنام، فكان مرموقاً ومحترماً من الجميع. ولكنه كان ضريراً طاعناً في السن.. وكان اولاده الثلاثة الذين رزقه الله بهم يهتمون بماشيته.

وكانت والدة الشبان الثلاثة قد توفيت فاتخذ الرجل الشيخ لنفسه زوجة شابة حسناء ذكية من عائلة عريقة كانت تدبر أمر الخيمة .. وقد تزوج هذا الفتاة ليستأنس بها في أيام شيخوخته. وكان في الحقيقة سعيداً معها. ولم يكن الاولاد ليهتموا بشؤون والدهم الخاصة فكانت الزوجة الشابة اول من لاحظ ذلك.

وكان للزوجة الشابة عشيق يقطن في خيمة مجاورة ويقوم بزيارة الشيخ الضرير دائماً بدافع من الصداقة في الظاهر ولكن في الواقع ليحظى بمقابلة الزوجة الشابة الحسناء. ولكن العلاقات بينهما كانت ضمن نصابها الصحيح.

وذات يوم كان الشاب يغادر خيمة جاره العجوز فتبعه الكلب الذي لامسه وكأنه يبغي عضه. فشهر الشاب بندقيته واطلق النار على الكلب فقتله.

ولما سمع الشيخ صوت الرصاص صرخ قائلاً:

ـ ما هذه الرمية ؟

فهرع اليه أولاده قائلين :

ـ لقد قتل زائرك الكلب .

وقال الرجل العجوز :

ـ ماذا ! إذن اذهبوا واقتلوا قاتل الكلب .

وقال الأولاد فيما بينهم :

ـ امر عجيب ، يبدو ان والدنا قد فقد عقله .. أنقتل رجلاً مقابل كلب مهما بلغت قيمته ؟

ولما رأت الزوجة الشابة ان اولاد زوجها لم يفعلوا شيئاً تمادت في غيها . فبعد اسبوع عندما كان الشبان يسقون جمال والدهم وجدوها عند البئر تمازح حبيبها الذي بلغ به غروره واعتداده بنفسه حداً دفعه الى ضرب أحد « الحيران »(*) فكسر رجله إذ كان يعرف ان هذا الجمل سيذبح وهو يريد بعض اللحم للأكل .

وهرع الاولاد الى والدهم الأعمى يخبرونه بما حدث وهم يقولون :

ـ ماذا نفعل ؟ ماذا نفعل ؟

وكان جواب الوالد العجوز :

ـ ماذا تفعلون ؟! اذهبوا واقتلوا قاتل الكلب .

ورأت الزوجة الشابة كل شيء ، وعرفت ان الأولاد لن يفعلوا شيئاً فبعثت برسالة الى عشيقها تطلب منه فيها ان يقابلها بعد حلول الظلام في مجرى رملي جاف للماء ليس بعيداً عن الخيام . وجاء الشاب في الموعد المحدد وقضى مع حبيبته وقتاً ممتعاً . وكانت الزوجة الشابة تعلم أنه إذا افتضح أمرها ونقل الخبر الى زوجها فلن تتعرض لأي عقاب .

وبعد فترة من الزمن اكتشفت الزوجة الشابة انها حامل فذهبت الى زوجها

* ـ حيران جمع حوار وهو طفل الجمل ويطلق هذا الاسم على الجمل منذ ولادته وحتى يبلغ عمره سنة كاملة .

العجوز واخبرته انها تحمل منه طفلاً ففرح فرحـــاً عظيماً . وبعد تسعة أشهر رزقت ولداً فاقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة .

وبعد مضي ستة عشر عاماً أرسلت الزوجة في طلب اولاد زوجها وقالت لهم :

– ان ولدي الاول اصبح رجلاً الآن .. اعطوه بندقية ليتعلم الرماية .

واعطي الصبي بندقية فأصبح في وقت قصير ماهراً بالرماية . وكان الصبي قد أبلغ كيف ان إخوته الثلاثة تخاذلوا عندما طلب منهم والدهم ان يقتلوا قاتل الكلب منذ عدة سنوات .. فقالت له امه :

– يا بني .. انت فخري واعتزازي . اذهب واقتل الرجل الذي قتل الكلب .

ولما كان الصبي شجاعاً يحب أمـــه فقد ذهب على الفور يبحث عن الرجل وقتله .. وعاد مرفوع الرأس لكنه لم يعرف ان الرجل الذي قتل على يديه هو والده الحقيقي .

وعندما سمع الرجل العجوز الضرير صوت الرصاص صرخ قائلاً :

– ما هذه الرمية ؟

فلما أبلغ بما حدث فرح كثيراً وقال لزوجته باعتزاز :

– يا زوجتي .. لم تلدي لي صبياً جميلاً فحسب ، بل ورجلاً قوياً أيضاً .

وأمسك بالصبي فضمه الى صدره ومنحه بركته . واصبحت هذه العائلة بعد الحادث موضع احترام الجميع وجاء القاصي والداني ليروا الصبي الذي قتل رجلاً خرق جميع الأعراف العربية بقتله كلب جاره .

أما الزوجة الذكية فقد أسعدت زوجها من جهة وأعـادت الى البيت شرفه واسمه الطيب ، ومن جهة ثانية انجبت شاباً رائعاً .. ثم تخلصت من عشيقها .

الفصل التاسع عشر

الكويت

١٩٤٣ - ١٩٤٥

ضب للغداء

بقلم فيوليت ديكسون

كان حمد المكراد زعيماً بارزاً في قبيلة عجمان وصديقاً عزيزاً للشيخ أحمد . وقد توفي حمد في الكويت سنة ١٩٢٨ بسبب حمى شديدة انتابته . وتوفي شقيقه ركان في نفس السنة بالمرض ذاته في الرياض . وكان ابناهما خالد بن حمد المكراد وحمد بن ركان طفلين في ذلك الوقت .. ولكنهما اليوم شابان وسيمان يتزعمان فرع آل محفوظ في قبيلة عجمان .

وفي حزيران سنة ١٩٤٣ كان الشابان مخيمين في سلسلة الظهر التي تشرف على قرية فحاحيل الساحلية الصغيرة على بعد ٢٤ ميلا الى الجنوب الشرقي من الكويت . وقد دعيت انا وزوجي لزيارتهما هناك .

وكان حمد بن ركان قد قدم الى المدينة في ٨ حزيران لشراء بعض الحاجيات لعائلته قبيل سفره الى الرياض في الزيارة السنوية للملك ابن سعود . وقد نقلناه معنا في سيارتنا . وكان ذلك الصباح شديد الحرارة ولكن الرياح الشمالية —

الغربية المعروفة بالبارح جعلت الطقس بعد الظهر يميـل الى البرودة . ولكننا ونحن في طريقنا الى السلسلة باتجاه الجنوب الشرقي . وكانت حرارة هـذه الرياح تزداد كلما ابتعدنا عن البحر بحيث ان محرك السيارة اشتدت حرارته مما اضطرنا الى التوقف مرتين لادارة المحرك باتجاه الريح وتغيير مائه لتبريده .

ولما كان ذلك الربيع استثنائياً فان الكثير من طيور القطا لم تهاجر شمالاً بل عششت في أماكن مختلفة من سلسلة الظهر . وقد صادفنا عدة أسراب منها في طريقنا واخبرنا حمد ان رجاله عثروا على عدد من البيوض .

ووصلنا الى خيمة حمـد في الساعة الخامسة والنصف . وكانت خيام القبيلة منتشرة حولها هنا وهناك بمجموعات صغيرة تتألف الواحدة منها من خيمتين او ثلاث انتشرت حولها في كل مكان قطعان الجمال . وكانت خيمة حمد قد نقلت من مكانها اثناء غيابه في الكويت ولكنه على كل حال عرف مكانها بالضبط مع انها كانت مختبئة وراء تلة صغيرة الى جانب الطريق . ولم يكن على التلة سوى امرأة لوحدها شاهدناها وهي تؤشر لسيارتنا بالاتجاه نحوها ثم أشرت لنا بأن لفت عباءتها حول رأسها ثم الى الأرض مرة او مرتين .

تلك المرأة هي ميثا زوجة حمـد . وكانت قد نقلت خيمتها ذلك اليـوم ووصلت الى هناك قبل ساعات فقط من وصولنا . ولما كانوا في طريقهم الى المخيم الصيفي قرب ابو حليفا ، فان خيمته الكبيرة لم تنصب بل اكتفوا بمد ستارتها الخلفية على عمودين وباسدال قطعة قماش من الخلف لمنع الرياح الحارة والرمال من دخول الخيمة . واسرعت السيدة فسحبت القاطع من بين امتعتها ونصبت عموداً في الأرض مدته عليه قاطعة بذلك المأوى الصغير الى قسمين لتشكل لنـا مكاناً ظليلاً نجلس فيه .

وخلع حمد رداءه ومد بساطـاً على الأرض في الظل ثم احضر سرج فرسه وعدداً من المساند لنتكيء عليها . وحفر حفرة صغيرة في الأرض أمامنا ليشعل فيها النار وأحضر أباريق القهوة والمواد اللازمة لها . ثم جاء ببعض العرفج والجلا (براز الجمال) وأشعل فيها النار . وزاد وهج النار الجو حرارة ولكن ذلـك

كان افضل من الانتقال خارج المكان نظراً لكثرة الرمال المتطايرة مع الريح .

أما ركان ونهار ولدا حمد الصغيران فقد لبسا الثياب القطنية البيضاء الجديدة التي احضرناها لها وجلسا معنا يأكلان الجوز والحلويات التي قدمناها لهما. وانضم الينا بعد ذلك خالد ابن عم حمد . وكان خالد قد نقل خيمته ذلك اليوم وأخذ عائلته الى آبار الطويل بالقرب من وارا حيث يخيم والد زوجته واخوتها . وزوجته ساره هي الأبنة الكبرى لأحد اعز أصدقائنا زنيفر بن حويلة . وكانت سارة قد تزوجت مرتين من قبل : مرة من فهد الهذلان ومرة من غليفس احد افراد حرس الملك ابن سعود في الرياض . ولها ابنة لطيفة من زوجها الثاني تدعى حزنة وتبلغ من العمر سبع سنوات . ولها الآن من خالد ولد صغير يدعى حمد . وكانت سعيدة في حياتها مع زوجها الثالث الذي كان يحبها كثيراً . وقد جاء من وارا لمعالجة بعض جماله التي اصيبت بالجرب .

كانت القهوة جاهزة تغلي على حافة النار عندما ظهر فجأة على بعد عدة ياردات جمل رائع محمل بأكياس المؤونة يسير بأقصى سرعته وتعلقت بمؤخرته سيدة بدوية شابة ترتدي لباساً أنيقاً اسود اللون يرفرف بفعل الرياح . وبعد ان قامت البدوية بجهود جبار لإيقاف الجمل اضطرت لتركه خوفاً من ان يجرها وراءه . . وانطلق الجمل بعيداً . وعلى مسافة خمسين ياردة خلف خيمتنا سقط سرج الجمل ولكن الجمل تابع سيره مسرعاً متجهاً نحو الجنوب .

ولما شاهد خالد ما حدث قفز من مكانه وانطلق بأقصى سرعته ليلحق بالجمل لكنه توقف عاجزاً بعد ان قطع مسافة نصف ميل . عندئذ ترك حمد موقد القهوة ولحق بخالد على جمله لمتابعة ملاحقة الجمل الهارب .

ودعته المرأة لينزع السرج قبل ان يركب الجمل ففعل بسرعة متناهية وركب الجمل عاري الظهر .

وكانت وراء التلة عدة خيام اخرى للقبيلة فما بان حمد عليها اندفع نحوه بدوي شاب وأشر له ان يتوقف . ونزل حمد عن جمله وأخذ البدوي الآخر مكانه وقال له وهو يتابع المطاردة :

- يجب ان تعتني بضيوفك يا حمد .

ويبدو أن حمد قبل أن يغادرنا طلب من الرجل في الخيمة المجاورة أن يعتني بنا ويقدم لنا القهوة . وعرفنا أنـــه الرجل العجوز الذي صادفناه في طريقنا ومعه ابنته .. وكانا يشتريان المؤن من المدينة . ويظهر أن الجمل قد شرد بعد أن نزل عن ظهره لدى وصوله الى الخيمة ، ولم تتمكن ابنته من الامسـاك به . وقال الرجل إن جمله حاد المزاج مع أنه أصيل وثمين . وقبل ان يغادر بوابة المدينة في الصباح رفسه وأصابه بأذى . فقد كشف لنا ركبته المصابة بخدوش وقـال انه يشعر بألم شديد بسبب كسر في أحد ضلوعه . وكـان الكيس الذي سقط عن ظهر الجمل يحتوي على التمر ، أما الثاني فكان فيه بعض القهوة والثياب وغيرها من المؤن . وتناسى الرجـل المسكين جروحه في غمرة تفكيره باحتمال فقد كل تلك الأشياء واحتل مكان حمد أمام النار التي تغلي عليها القهوة .

وهنا فكر زوجي أن الواجب يقضي بالاشتراك في المطاردة فركب السيارة وذهب ليأخذ خالد معه ثم سار في الاتجاه الذي سلكه الجمل الهارب . وانطلق الدعاء والشكر من أفواه النسوة الجالسات هنـاك لهذه البادرة وساد شعور بأن كل شيء سيكون على مـا يرام وأن الجمل الضائع سيعود الى أصحابه . وقدمت لي القهوة ولكنها لم تكن قوية الأمر الذي لم يرق لحمد .

وجـــاء ركان الابن الأكبر الذي يبلغ من العمر خمس سنوات وأراني ضباً أعطاه إياه الرجل الذي يرعى الجمـال . لم يكن الضب كبيراً إذ لم يتجاوز طوله الثماني عشرة بوصة ، مع انه كان يبدو سميناً . وقال أهل الخيمة انها أنثى ويمكن تحسس البيوض في جوفها . ولما أعلنت عن عدم رغبتي فيه قرروا أن يشوى على النار ليأكلوه . فأخذه حمد وذبحه فلم يأت بأية حركة أو صوت ولكنه نزف منه قليل من الدم . ثم شق حمد برأس سكينه بطن الضب مسافة ست بوصات ونزع أحشاءه وطرحها بعيداً . ولم يبق منهـا سوى الكبد والبيوض التي بلغ عددها خمس عشرة بيضة . أما حجم الواحدة منها فلم يكن يتجاوز حجم رأس إصبع اليد الوسطى وتشبه بيضة الدجاج قبل اكتمال نموها . ونزعها حمد بكل عنايـــة

ووضعها مع الكبد في محمص للقهوة .

وجاء دور ميثا فبدأت طهي البيض على النار بتحريكها باستمرار الى أن كسر الصفار وشكل قرصاً من العجـــة أضافت عليه قليلاً من الزبدة . وبعد دقائق معدودات قلبت القرص في صحن خشبي وضعته أمـامي . وكان الولدان يرقصان فرحـاً على أمل ان يحصلا على بعض ذلك الطعـــام . وأكلت لقمة أو لقمتين فكانت جيدة في الواقع مع أن لهـا طعماً كطعم الجراد ولكن مزيداً من الملح عليها يحسن حالها قليلاً .

وجاء زائر تتبعه غنمة سمينة سوداء باتجاه الخيمة فاندفع الكلب حجلان نحوه ينبح نباحاً شديداً غاضباً . ونهض حمد لتحيته وتبادل الرجلان القبلات . وبعد ان حياني الزائر جلس بجانب النـار . وذهبت ميثا لاحضار مزيد من العرفج والجلا وضعته فوق النار حيث أحدث لهباً عالياً ثم جلست الى جانبي . وأعجبني ان أرى انها لم تغادر المكان بالرغم من وجود الرجـل ولكن يبدو ان الرجل ينتمي الى نفس القبيلة وربما كان من الأقرباء .

ووضع حمد الضب على النار بحيث ارتفع بطنه الى أعلى . وظل ذيله يتحرك فترة وكأنه لا يزال حياً على شكل أفعى تتلوى أثر مقتلها . ثم انصرف يحمص مزيداً من القهوة لأن التي صنعت في البداية كانت ضعيفة . وقال انه يريد أن تكون القهوة جيدة لدى عودة زوجي .

وعندما اختفت الشمس وراء الأفق عند الغروب بدت لنـا السيارة العائدة من بعيد . وبعد دقائق معدودات كانت تقف وراء الخيمة فنزل منها خالد وهو يصرخ : طرحناه .

وأشرقت وجوه الجميع لهذه الأنباء السارة لا سيما وجوه النسوة اللواتي كن بجانبي . وبالرغم من أن الوقت كان متأخراً فقد أصر حمد على زوجي أن يشرب فنجاناً من القهوة.. وهكذا عدنا للجلوس مرة أخرى. ودار على الجالسين صحن فيه تمر وآخر فيه بقية من عجـة بيض الضب . وفيما كان الحاضرون يحتسون القهوة قص عليهم زوجي حكاية مطاردة الجمل الهائج وطرحه .

قال زوجي :

– لحسن الحظ ان الأرض كانت جامدة وليست رملية كثيراً ، الأمر الذي مكنني من اللحاق به على بعد اثني عشر ميلاً من هنا . وكان المطارد الأول قد ترك بعيداً خلفه ولكننا أتينا على الجمــــل الهارب وهو واقف بدون حراك في مجرى جاف . وعندما اقتربنا منه أطلق ساقيه للريح مرة ثانيـــة وأخذ يعدو بأقصى سرعته . وحاولت ان أتقدمه لأرده الى الوراء ولكنه لم يخف من السيارة وظل يندفع راكضاً بمحاذاتنا في مكان لم يكن بالامكان السير بسرعة أكبر .

« وكان امامنا على بعد ثلاثة أميال قطيع من الجمال الحلوب يملكها الشيخ صباح الناصر الصباح . وتوجه الجمل الهارب نحو القطيع واندس بينه فاسرعنا نحن واقتربنا اكبر مسافة ممكنة من القطيع ونزل خالد وتتبع الجمل بكل حذر الى ان وصل اليه من الخلف وامسك ببقية الحبل المشدود في رقبته وجعله يركع على الأرض بخفــة متناهية ثم هرع وسط اصوات مزمجرة صادرة عن الجمل يربط قوائمه الأربع بالحبال التي كانت لا تزال على السرج المشدود على ظهره .

وبعد ان شد وثاقه جيداً وضع السرج في السيارة ورجعنا تاركين الجمل الهائج يتخبط عبثاً محاولاً الإفلات من قيوده . وكان راكبان من عجمان قادمين من اتجاه آخر فأشر لهما خالد فترفقا وركبنا السيارة نحوهما . ودلهما خالد على الجمل المقيد وطلب منهما ان يعيداه الى خيمة حمد .

وفي هذه الاثناء كانت عملية طهي الضب قد أشرفت على نهايتها وكان قد مضى على دفنه في الرمـــاد اكثر من ربع ساعة . فامسك به حمد ونفض عنه الرماد وقص ذيله وناولني قطعة منه . وأخذ خالد بقية الضب منــه واخذ يقتطع قطعاً كبيرة منه بجلدها . واعطي الرأس لركان الصغير واعطي نهار فخذاً فهرعا الى داخل الخيمة يأكلان حصتهما بنهم . وكلما حاولت ان اقطع قليلاً من الذيل الذي اعطيته كانت تصدر منه أصوات تشبه الفحيح ! كان لحمــه خيطياً ابيض اللون يشبه الكركند وله طعم كطعم الجراد . ورفض زوجي بوقاحة ان يأكل منه ولكنه حزن لما اخبر ان المعجة التي اكل منها قبل قليل ليست سوى بيوض

الضب .

واراد خالد ان يقدم الجمل هدية لزوجي فلم يقبل . وقال خالد ان الجمل قدم له من الملك ابن سعود قبل ثلاث سنوات وانه ذلول أصيل . وقد اعطاه منذ ذلك الوقت للرجل الشيخ صاحب الضلع المكسورة .

وبعد تحيات الوداع ركبنا عائدين الى المدينة . وقد سرنا ان نشاهد كيف ان جميع اهل الخيم طفحوا بشراً لاستعادة الجمل الهارب مما يدل على مدى تعلق البدوي ببهائمه . وبموجب العادات كان يحق لزوجي المطالبة بمبلغ ثلاثة ريالات لطرحه الجمل .. وتمنينا الشفاء للرجل العجوز . ((انتهى حديث زوجة ديكسون

زوجة فهد الفاضل المريضة

في الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٤٣ التقيت وزوجتي برجل مري يدعى فهد بن عبدالرحمن الفاضل، حفيد الرجل الذي حفر بئر فاضل الشهيرة في الاطراف الشمالية للربع الخالي . ويبلغ فهد الخامسة والأربعين من العمر وهو عضو مرموق في فرع النقعان من آل مره . وكان وقت اجتماعنا به مخيماً مع حوالي اربعين خيمة من آل مره عند الآبار الأرق على بعد ثمانين ميلاً الى الجنوب من الكويت . وجاء الى منزلنا ذات صباح وعرف على نفسه بشكل غير مألوف عادة .

وقال الرجل :

– سمعت بفضلك على ابي ليلى وغيره من بني قومي، وها قد جئت من مسافة بعيدة لأطلب منك فضلاً . ان لي زوجة عزيزة مصابة بمرض وقد احضرتها ليعاينها الطبيب . ولكنني لست املك مالاً لأدفع اجرة الطبيب ، بل املك بندقية « موزر » جيدة ارجوك ان تأخذها مقابل ذلك .

وسألته :

– اين تخيم ؟

فأجاب :

– خارج دروازة نايف في خيمة صغيرة على صيهد عجيان وراء آبار الشامية بالقرب من خيمة امرأة عجمية تدعى صفيّة او ام مانع .

وكنا نعرف السيدة التي اشار اليها فوعدناه ان نذهب لزيارته ذلك المساء . وتوسل إلينا فهد ان لا نتباطأ لأن حالة زوجته سيئة للغاية وقد عانت آلاماً مبرحة خلال رحلتها من الأرق على ظهر الجمل مسافة ثمانين ميلاً .

ووجدنا خيمة صغيرة قذرة ذات عمود واحد طرح عليه رواقان تدليا على الجانبين قال فهد ان ذلك أسهل للسفر . ورأينا داخل الخيمة امرأة محزنة يبدو انها كانت في الأصل شابة جذابة ولكنها اصبحت من الضعف بحيث انها لا تستطيع الوقوف على قدميها . وحدقت المرأة بنا بعينين مشدوهتين وهي تضم الى صدرها طفلاً هزيلاً لا يتجاوز عمره عدة أشهر .

وقال فهد مخاطباً زوجته :

– قومي يا وضحى .. هذا ام سعود وابو سعود وقد جاءا لزيارتك ومحاولة شفائك .

وحاولت وضحى جهدها ان تفعل ما طلبه زوجها ولكنها لم تستطع النهوض لتحيتنا فصدرت عنها تأوهات مؤلمة . وشرح لنا فهد ان دملاً نبت في رقبتها منذ اربعة اشهر واخذ يكبر ويكبر الى ان يئست زوجته من شفائه بعد ان عانت الكثير من الآلام بسببه .

وطلبنا ان نشاهد الدمل فرأينا ورماً مخيفاً يمتد من الأذن اليسرى حتى أعلى الكتف وفي وسطه بقعة حمراء كبيرة بحجم البرتقالة . ويبدو ان شعر المرأة كان يضايقها فقص قسم كبير منه ولكنها ظلت غير قادرة على تحريك رأسها او رقبتها .

وقالت لها زوجتي :

– اطمئني .. سوف تشفين . أول شيء سنفعله في الصباح الباكر هو ان نأتي بسيارتنا لنقلك الى مستشفى الارسالية الأميركية المسؤولة عنه احدى السيدات والذي يعمل فيه طبيب ماهر .

واشربت وضحى المسكينة عن شكرها بعينيها الكبيرتين اللتين تفصحان لنا وتحركا من يديها .

وطوال ذلك الوقت تجمهر عدد من النسوة والأطفال حولنا كانت صفية من بينهم طبعاً ، واخذوا يتدافعون ليلقوا نظرة على المرأة الطريحة . وظل فهـــد مشغولاً طوال الوقت في منعهم من التدافع حتى لا تسقط علينا الخيمة الصغيرة .

وغادرنا المكان لنعود في الصباح الباكر كما وعدنا ونقلنـــا المرأة وزوجها ووالدته والأولاد الثلاثة الى المستشفى حيث أجريت لوضحى عملية مستعجلة . واخبرنا الدكتور سكادر وزوجتـــه النشيطة اللذان اجريا العملية ان سطولاً من القيح أزيلت من الدمل . وظلت سيارتنا تنقل المرأة المريضة مـــدة اسبوع الى المستشفى لتغيير رباط الجـــرح . وفي السادس من آب كانت وضحى تسير في طريق الشفاء العاجل واصبح بامكانها ان تمشي لزيارتنا يومياً وتخبرنا عن حياتها في الجنوب البعيد . وكان فهد أيضاً يأتي لزيارتنـــا يومياً ويقول انه لا ينوي من مشاهدتنا وان شعبه سيعرفون بكل فضل أم سعود على زوجته ، وان الملك عبد العزيز سيعرف بذلك ويكون شاكراً .

وردت عليه زوجتي بقولها :

ــ في الحقيقة اذا اصبح لنا شرف الحصول على امتداح ابن سعود لنا يكون ذلك بمثابة مكافأة قيمة .. ونرجو ان تأتي لزيارتنا قبل ان ترحل .

ان آل مره قوم طيبون ولهم طريقة رائعة في تقديم الشكر والاعجاب . . ولم نأخذ بندقية فهد لقاء العملية بل سددنا القيمة من جيبنا .

مهارة الدكتور دايم

كان الدكتور لويس دايم الشهير الذي توفي في الولايات المتحدة عـام ١٩٥٣ عضواً بارزاً رفيع الشأن في الارسالية الاميركية في البحرين . وعمل فيما بعد مع شركة النفط العربية ــ الأميركيـــة في الظهران الى ان اضطرته احواله الصحية السيئة للعودة الى بلاده . وأثناء وجوده في الجزيرة العربية كان ينظر اليه البدو

نظرة احترام ووقار في كل مكان ، وكان بين الرجال القلائل الذين كان يسمح لهم بالذهاب الى الرياض بصورة مستديمة لمعالجة أفراد العائلة المالكة والمرضى من البدو الذين كانوا ينقلون الى العاصمة للمعالجة .

كان دايم في نظر البدو ساحراً عصرياً يستحق الثناء ، والمديح الذي كان ينصب عليه من جميع انحاء عالم البدو الرحل الذين لم ينفكوا لحظة عن التحدث بمآثره وعطفه ومهارته وقدرته على الشفاء . وليس ذلك أول ما في الأمر لأن البدو الذين يتجاوبون بطبيعتهم مع العطف والاحسان ويحاولون المقابلة بإضعاف الأضعاف ، قد نشروا في القريب والبعيد قصصاً وحكايات فيها الكثير من المبالغة يقصد بها رد الجميل للرجل الذي ساعدهم وشفاهم من أمراضهم الغريبة .

ففي ٢٧ تموز سنة ١٩٤٣ جاء عبدالرحمن بن ماضي الأمير السعودي في أبرق الكبريت (او الجوف) بشمال الاحساء ليرد لنا في الكويت الزيارة التي قمت بها وزوجتي له في الاحساء في أيار من تلك السنة . وأثناء مأدبة الغداء التي اقمناها على شرفه اخبرنا من جملة الأشياء القصة الغريبة التالية عن الدكتور دايم :

ذات يوم كان الدكتور دايم في شقرا حيث جيء له ببدوي فقير بينه وبين الموت قيد شعرة . وقال رفاق البدو للطبيب : انه يريد ان يموت لكننا أردنا أن نأتي به اليك لعلك تستطيع ان تفعل شيئاً من أجله .

وقام دايم بفحص المريض من كل جانب لكنه لم يجد أثراً لأي خلل عضوي فوضعه تحت المراقبة لعدة أيام ولكن جميع الجهود التي بذلها لتحسين حالته ذهبت هباء .

وبالنتيجة وجد دايم ان المريض لم يأكل شيئاً خلال السنتين الماضيتين سوى حليب الجمال وبعض التمور ، فخطرت له فكرة بارعة . وسأل القصابين هناك عن الوقت الذي سيذبحون فيه جملاً وطلب منهم ان يقتطعوا له قطعة من الجلد الذي يغطي ركبة الجمل . واخذ قطعة من هذا الجلد بحجم قطعة النقود وربطها بخيط رفيع وأمر المريض ان يبلع القطعة نيئة ففعل واخذ هو يرقب النتائج بعد ان تأكد ان طرف الخيط لا يزال خارج فم الرجل .

وبعد مضي اكثر من يوم أخذ دايم يسحب قطعة اللحم النيء ببطء من جوف الرجل فوجد كتلة من الطفيليات التي تعيش على بدن الجمال ملتصقة بها من النوع الذي عندما يشبع من امتصاص الدم يصبح بحجم حبة العنب . وصاح الدكتور دايم وهو يشعر بنشوة النصر : هذه هي سبب علة الرجل .

ويبدو ان الرجل قد ابتلع هذه الطفيليات وهو يشرب حليب الجمال فجاءت في موضع حيوي من اعضائه الداخليـة حيث ظلت تعيش وتنمو فترة من الزمن فعندما دخلت قطعة لحم الجمـل جوف الرجل تعرفت عليها هـذه الطفيليات بالغريزة أو بحاسة الشم فـافلتت قبضتها على جسم المريض وتمسكت بغذائهـا الطبيعي .

وشفي المريض تماماً .

اني اذكر هذه الحادثة بـدون تعليق لأنني لست ادري ما اذا كانت قصة حقيقية او من نسج خيـال البدو . ولكن الشيء المؤكد هو ان القصة انتشرت وصدقها الناس بحرفيتها — وقد شدد الأمير عبدالرحمن على هذه النقطة — لاسيا البدو الذين يحفظون الود والعرفان للدكتور دايم ومهارته الخارقة والذين يريدون من اخوانهم في كل مكان ان يعرفوا ذلك .

آبار الطويل

تقع آبار الطويل على بعد اثنين وثلاثـين ميلاً الى الجنوب فالجنوب الغربي من الكويت . وهي تشكل مع صبيحيه التي تبعد عنها اثني عشر ميـلاً الى الجنوب ومع جهرا ثلاثة من أهم الأماكن التي يعرفها البدو جيداً للتخييم الصيفي في شمال شرق الجزيرة العربية . والأماكن الثلاثة تضم عدداً كبيراً من الآبار يرجع تاريخها الى اقدم الأزمان ويجدر بالمرء زيارة أحدها عند اشتداد الحر والتجول بين خيام مطير وعجمان المتلاصقة المكتظة ورؤية قطعان الجمال وهي تنتظر دورها لعب الماء حول الآبار .

كان ذلك في السادس والعشرين من آب سنة ١٩٤٣ . وكان نجم سهيل الذي

يدل ظهوره على انتهاء الصيف قد ارتفع في نجد قبل ثلاثة أيام وأصبحت الليالي اكثر برودة والجمال ترد الآبار كل ثلاثة أيام . ويقال ايضاً ان الانسان في هـــذا الوقت يشرب كميات أقل من الماء عند ظهور هذا النجم.. او ليس يشعر الانسان في داخله كبقية افراد عالم الحيوان ؟

وفي تلك السنة صادف رمضان اليوم الأول من أيلول ولم يبق سوى بضعة أيام يمكن فيها للمرء ان يأكل ويشرب كما يشاء في النهـار · وكان الشيخ خالد بن حمد المكراد الذي اشترك معي في مطاردة الجمل الهارب ينتظر في الكويت سيارة تقله الى الرياض .

ولم يكن خالد يريد الذهاب لكن أوامر الملك يجب ان لا يقلل من شأنها . فقد أبلغه ابن سعود قبل شهر ان عليـه أن يحضر الى العاصمة لقضاء شهر الصوم عنده . لان الملك كان يحب دائماً ان يجمع حوله مجموعة من الشيوخ الشبان اللطيفي المعشر ليرافقوه وافراد عائلته أثناء الصوم . وكان خالد مقرباً الى الملك ويأمل ان يصحبه الى الحج في مكة بعد سبعين يوماً من عيد الفطر . وذلـــك يعني « الخرجيه » و « الكسوة » لأن الملك لا يبخل على المقربـــين اليه او على شيوخ القبائل الذين يصحبونه للحج .

ولما كان خالد يرغب في رؤية زوجته وأولاده قبل ان يسافر الى الجنوب ، فقد طلب مني ان انقله بسيارتي الى الطويل . وكان عليّ ان أقوم بعمل تفتيشي في مركز وارا فوافقت أن آخذ خالد معي الى الطويل أولاً . وتوجهنا الى هناك في الساعة الخامسة والنصف من صباح الثامن والعشرين من آب . وعندما اقتربنا من الطويل سألني خالد ما اذا كنت استطيع ان أحمل له في سيارتي الى الكويت شداده المفضل (الشداد يعني سرج الجمل) لأنه قـد يضطر الى القيام بالرحلة الى الرياض على ظهر الجمل ، فوافقت .

كان منظر الطويل رائعاً . . فقد انتقل فرعا محفوظ ومسرى في قبيلة عجمان الى صبيحيه وجهرا فكان عدد الخيام أقل مما كان عليه عندما شاهدتها آخر مرة ومع ذلك كان عددها لا يزال يزيـد عن خمساية خيمة . وكانت الآبار مكتظة

بجمال الدياهين . (الدياهين فرع من مطير شيخه الأعلى أياد المترقى) وقد تجمعت الجمال حول حياض دائرية كبيرة بالقرب من أفواه الآبار فيما كان غيرهـا ينتظر دوره على شكل صفوف بين الخيام بمواجهة شمس الصباح الباكر كعادتها .

وهناك أيضاً كانت جمال زنيفر بن حويله وابنائه ولكن اصحاب تلك الجمال كانوا منهمكين في اصلاح فوهة أحد الآبار بعد ان قاموا بتنظيفه وتغطيته بالعرفج الممدود على عظام الجمال لتقويته .

وتوجهنا رأساً الى خيمة زنيفر والد زوجـة خالد ، حيث كانت تقيم ساره وولداها خزنه وحمد . ولم يمض وقت طويل حتى تجمع حولنـا عدد من النساء والأطفال في حين ذهب آخرون لاحضار زنيفر وولديه عبدالله ومعضد الذين كانوا يعملون في البئر . وفرشت لنـا ساره بساطاً في قطاع الرجال من الخيمة يعرف بالربعه وجعلتنا نشعر وكأننا في بيتنا . والتف حولي على الفور حمد الصغير ونورية وهمـا أولاد عبدالله ومعضد وقدموا لي خدودهم لأقبلها دون خجل أو وجل .

وجاء زنيفر وولداه تبدو على وجوههـم السعادة وعلى ثيـابهم الأوساخ والوحول من جراء حفر البئر .. وجلسوا معنا . وأتت ساره بحليب الجمال في وعاء خشبي ثم تبعته القهوة التي كانت تغلي على النار استمداداً لتقديمها الى العاملين في البئر .

ولقي خالد ترحيباً حاراً نظراً لكونـه زعيم آل محفوظ ثم انسل بهـدوء ليجري حديثاً خاصاً مع زوجته ساره التي احتلت مكانها على الفور فمشا العجوز زوجة زنيفر التي كانت تبدو اكثر تهدلاً من المعتاد . وكانت كلماتها الاولى لي :

– هل احضرت لي معك كسوة ؟ دائمـاً تحضر معك الهدايا لساره والاولاد وتنساني .

وأجبتها بقولي :

– زنيفر سيعطيك الكسوة لا أنا .. اذهبي وأحضري شفي .

وشفي التي تبلغ من العمر ستةعشر عاماً هي ابنة عبدالله من زوجته السابقة

سنوى التي طلقها . ولشفى معزة خاصة في قلوبنا .

وبعد القهوة أصر الرجال على ان أقوم بتفقد الجمال والبئر الجديدة التي وهبهم إياها سمو الشيخ أحمد قبل عدة أيام . وابلغت ان البئر قد امتلأت خلال سنوات طويلة ولكن مياهها كانت شديدة العذوبة مع انها كانت في ذلك الوقت معكرة قليلاً . واعطيت قليلاً من تلك الماء لأتذوقها ثم تفقدت التغطية المكونـــة من العرفج حول فوهة البئر وقد كسي سطحها بالطين . وهذا العمل استحق اعجابي وتقديري بالفعل لأنه متقن للغاية . وكانت القامة الخاصة بجر المياه قد اقيمت في مكانها مما جعل الجميع في حـــالة من السعادة والرضا . فتمنيت لهم وللبئر حظاً سعيداً قائلاً : مبروكه .. مبروكه . ورد علي الجميع وكأنهم فرقة موسيقية : « الله يطول عمرك » .

واقتادني زنيفر الذي لاحظت انه كان ثرثاراً أكثر من عادته لأرى قطيـــع جماله الحلوب المؤلف من ثلاثة وخمسين رأساً تجمعت في مكان قريب من الخيمة . وهذه الجمال كلها تزاوجت من فحول عمانية أصيلة قال انه تلقاها هدية قبل أربع سنوات من محمد أبو ليلى شيخ النقدان في آل مرّه . وبكل فخر واعتزاز اشار زنيفر الى ثلاثة من بنات العمانية اعمارها ثلاث سنوات وسنتان وسنة على التوالي. اما الذكر الكبير فكان أصيلاً معافى وسميناً له سنام كبير .

وعندما عاد زنيفر ليعمل في البئر انضم الى خـــالد وعدنا سوياً الى الخيمة لنجد جمهوراً أكبر من الشيوخ والشبان والأطفـــال الذين تغطي اجسادهم اسمال بالية قذرة دفعهم الفضول لتسقط الاخبار الى الاستماع لاحاديثنا . وكان اول سؤال ألقي علي: « متى ستنتهي الحرب؟ » و« لماذا تحجز الحكومة المواد الغذائية والأرز ؟ » وهـــذا السؤال يشير الى النقص الكبير الذي كانت تعـــاني منه الكويت .

ومن أطرف الأسئلة التي سمعتها : « ماذا ستفعل الحكومة بهتلر عندما تلقي عليه القبض ؟ »

واجبت على هذا السؤال بقولي :

- « انها ستضعه في قفص وتسلمه لعجمان . . أليس هو حفيد ركان الهذلان الذي كان شيخكم في يوم من الأيام ؟ »

وفي هذه التورية اشارة الى مزاح كان يطلقه ابن سعود الذي كان يحب دائماً ان يداعب العجمان بقوله ان ركان الهذلان عندما كان سجيناً في الآستانة تزوج امرأة تركية وانجب منها اطفالاً ينحـــدر من أحدهم الفشار الكذاب ادولف هتلر .

وهنا صاحت الجوقة :

« نعم .. نعم سلموه لنـا ونحن نعرف كيف نتصرف معه .. ابن الكلاب »

ولم يكن بإمكاني البقاء هناك مدة اطول فودعت الرجال واستأذنت بالذهاب من خلف القاطع نمشا وساره وشفي وريقا زوجة عبدالله اللواتي انسحبن الى قطاع النساء من الخيمة عندما تجمهر حولنا الرجال .

وكان الوداع الأخير الذي لقيته انا وخالد اشبه بتظاهرة قام بها جمهور من الأطفال . كما انني تلقيت قبلة في الأنف من زنيفر الذي دعـاني لزيارته مرة ثانية على ان احضر ام سعود معي .

وبعد ان أخذنا شداد خالد سرنا نحو برقان ومن هناك الى مركز وارا عـبر طريق دائرية . وفي وارا سرني ان ألتقي بخميس بن رمضان[1] رئيس المرشدين في شركة النفط العربية الأميركية . وكان خميس قد قدم من الاحساء ليرى زوجته الجديدة نورا شقيقة محمد بن طاهوس رئيس حراس شركة نفط الكويت في منطقة آبار برقان .

وبعد ان شربنا القهوة في كوخ الحارس اخذني خميس ومحمـد لنسلم على نورا وامها . وكانت نورا قــد هيأت شقة نظيفة لزوجها في منزل محمد بينما انتقلت ساره الى خيمة منفصلة لتفسح لهم المجال . وكنت انا وزوجـــتي نعرف نورا ووالدتها منذ أربعة عشر عاماً ولذلك سرني ان أحصل على شرف المعاملة وكأنني احد أفراد العائلة .. فدخلت شقة نورا دون أي مانع بسبب عدم وجود زوجتي معي .. وهذه عادة تتميز بها عجمان .

قضيت نصف ساعة اتحدث الى خميس ونورا اللذين كانا في أحسن أحوالها .
ولم تنس نورا ان تسألني عن كيس الأرز الذي كانت له قيمة تذكر في تلك الأيام العصيبة فوعدتها ان افعل ما بوسعي للحصول على كيس اقدمه لها . وكانت لا تزال طفلة في طريقة حديثها وليس عجباً انها استأثرت بقلب حمو الشيخ احمد الذي تزوجها سنة ١٩٣١ ومن المؤسف ان ذلك الزواج قد انتهى بعد سنتين لأن نورا لم تنجب أطفالاً .

وأخبرني خميس اشياء كثيرة عن اصدقائي الأميركيين والعرب في الظهران ، وتحدثنا عن الأيام السالفة وعن الرحلة التي قمت وزوجتي بها برفقته الى الظهران والى آثار مدينة ثاج . وفي الحقيقة ان هؤلاء البدو الذين ينتمون الى اصل رفيع يكرمون المرء عندما يزورهم في ديارهم .. ولم استمتع في حياتي قط برحلة كتلك التي قمت بها ذلك اليوم مع خالد المكراد .

عدنا الى الكويت في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً قبل اشتداد الحر . وقد وفيت بوعدي وعدت لزيارة هؤلاء القوم في السابع من تشرين الأول بصحبة زوجتي . وكانت هديتنا لسارة حجري رحا لطحن القمح لاننا علمنا انها بحاجة ماسة اليها . اما الأطفال فقد أعطينا كلا منهم دشداشة وغطاء للرأس .
ولم تنس نورا في وارا فقد حملنا لها كيساً من الأرز لاقينا صعوبة كبيرة في الحصول عليه .

عودة الحجاج

عودة الحجاج من مكة تكون دائماً حدثاً سعيداً اذ يتوجه أقارب الحجاج العائدين مسافة مئة ميل احياناً لملاقاتهم وقضاء ليلة معهم في مخيم على الطريق ويستقبلونهم بعد هذا الغياب الطويل بالطعام الشهي والماء العذب وغيرها من المغريات .. أو لم يكن هؤلاء في بيت الله الحرام ؟ الم تغفر ذنوبهم فعادوا اتقياء انقياء ؟

ان استقبال الاصدقاء للعائدين له دلالة خاصة لا سيما اذا كانوا قد ذهبوا الى

الحج على ظهور الجمال (مسافة الفي ميل) مما يعني انهم تغيبوا عن منازلهم مدة ثمانين يوماً ناهيك عن المدة التي يقضونها في المدينة ومكة المكرمة . ان فرحة الحجاج العائدين لا توصف وهي تفتح القلب لا سيما عندما يوزعون الهدايا الصغيرة التي حملوها معهم الى اعزائهم .. وفوق كل شيء الحج الى مكة هو الذي يحفظ وحدة الاسلام .

لا زلت أذكر جيداً عودة سالم المزين من الحج في الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٤٥ ذلك اليوم الذي كان بمثابة عيد له ولعائلته . فقد أعطيته اجازة ليذهب الى الحج مع بعض أفراد اسرته وهم : زوجته ممشا ، وشقيقته منيره ، ومزيد الظافري ، وسليمان زوج شيخه ابنة ابراهيم المزين شقيق سالم ، وولد عبد اسمه مبارك . لقد افتقدناهم كثيراً طيلة الأشهر الثلاثة التي تغيبوا فيها ولذلك سررنا كثيراً لدى سماعنا انهم وصلوا رجم الجهتان على بعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من وارا حيث كان الاتفاق ان تنقل مواشيهم لترعى هناك .

ولم تكد الأخبار تصلنا حتى قررت وزوجتي وولدنا سعود الذي كان يقيم عندنا لعدة ايام ان نخرج الى مخيم سالم لاستقبال العائدين . وقد حملنا في السيارة معنا من الطعام والأمتعة ما يكفي لقضاء ليلة معهم في خيامهم السوداء. ووصلنا المخيم الساعة الحادية عشرة صباحاً . وكان المخيم يقع في منخفض صغير على مسافة قصيرة الى الجنوب من رجم الجهتان . ولما وصلنا الى هناك أخذت الكلاب تنبح واستقبلنا الرجال والنساء والأطفال وعلى رأسهم سالم بالترحاب والأهازيج . لقد كنا نحب عائلتنا العربية الصغيرة وقد سررنا كثيراً انهم عادوا الينا من جديد .

وبعد التحيات المعهودة قام سالم ليصنع القهوة التي بعد ان شربناها تجمهر حولنا الجميع لينقلوا إلينا اخبارهم وليستعلموا منا عما يحدث في الكويت . كان يبدو عليهم النحول والتعب لأن رحلة طولها الفا كيلومتر على ظهر الجمال ليس أمراً هيناً خاصة بالنسبة للنساء . وكانوا العائدون قد قابلوا محمد وحمود أولاد ابراهيم المزين وهيا ابنة سالم التي جاءت مع اغنامها . وقد فرحت كثيراً

لمقابلتنا .

وسألتنا عمشا عن صحتنا وصحة اصدقائها الكثر في الكويت ثم اخرجت لنا هداياها الصغيرة التي تدل على عاطفتها نحونا . فقد أعطت زوجتي زجاجة صغيرة فيها ماء من زمزم البئر المقدسة بجوار المسجد الكبير في مكة . ويعرف عن هذا الماء بأنه من نفس المصدر الذي أحضر منه الملاك جبرائيل الماء باعجوبة لينقذ هاجر وابنها اسماعيل من الموت عندما تاها في البراري المقفرة منذ عدة قرون .

واعطيت زوجتي ايضاً بعض ثمار الدوم الذي له اساطير تتعلق به اخبرنا اياها زوجها فيما بعد . وقدمت عمشا لولدنا سعود جوارب رخيصة اشترتها من سوق مكة .. فكانت هدية مؤثرة . اما هديتي فكانت عبارة عن قطعة من الحجر الناري عليها علامات كتلك الموجودة على الحجر الأسود المقدس في الكعبة القائمة وسط الباحة الواسعة للمسجد الكبير .

وقالت عمشا : « لقد وجدت هذه القطعة على مسافة مسيرة يوم كامل من مكة فخطر لي انك تود ان ترى كيف هو الحجر الأسود .

كان الحجر اخضر الى درجة السواد فيه خطوط بيضاء ربما كانت تشبه احرف هجاء قديمة . ولا زلت احتفظ بهذه القطعة بين التحف الثمينة التي أملكها . ويزن هذا الحجر خمسة أرطال وقد حملته عمشا وحافظت عليه في سرج جملها مسافة تزيد عن الف ميل .

وبعد ذلك بدأ سالم يقص علينا تفاصيل رحلته الى الحج فوصف لنا الاشياء المدهشة التي رآها والواجبات الدينية المختلفة التي قام بها .

ولم يكن قد زار مكة من قبل فأثرت فيه هذه الزيارة تأثيراً كبيراً لانه كان يصف مفاتنها بنوع من اللذة العارمة . ومن هذا الوصف البسيط الممزوج بالانفعال علمنا مقدار تأثير زيارة بيت الله وغفران الخطايا في جبل عرفات ، على سالم وعمشا .

تمتد الاماكن المقدسة على طول مساحة كبيرة حول مكة محددة بعدد من

الاعمدة اقيمت على مسافة من المدينة . ولدى وصولهم الى الحدود الشرقية نصب سالم وصحبه خيامهم هناك وغسلوا وطهروا انفسهم ولبس كل منهم رداء الاحرام – ابيض اللون للرجال وأخضر قاتماً للنساء – الذي يحتفظ به الزائر الى يوم التضحية الكبرى الذي يصادف اليوم العاشر من ذي الحجة وهو شهر الحج .

وقبل الدخول الى مكة قص كل من الرجال ثلاث خصل من شعره واحدة من كل جهة من الوجه وأخرى من وسط الرأس فوق الجبهة . وقصت كل واحدة من النساء قطعة من مؤخرة ضفائرها طولها بوصتان . اذ يمنع قص الشعر وتقليم الاظافر للجنسين من اليوم الاول حتى اليوم العاشر من ذي الحجة .

وسار الجميع نحو مكة حفاة الأقدام – وكان الرجال حاسري الرأس – فوصلوها قبل الوقت المناسب بستة أيام فقاموا بالطواف خلال هذه المدة اي انهم طافوا سبع مرات حول الكعبة ملجأ الحمام المقدس ، واخذوا دورهم في تقبيل الحجر الأسود ، وزاروا قبر ابراهيم وغيره من المزارات ، وشربوا من ماء زمزم . ويمكن للذين يصلون قبل الوقت كما فعل سالم وعائلته ان يقوموا بهذه الواجبات مرات عديدة .

ان الجزء الأهم من الاحتفالات هو الشهادة على عرفات . فاذا فشل المرء ان يفعل ذلك تبطل حجته ولو كان قد أدى جميع الفروض الأخرى . ان الوقوف على عرفات هو روح فريضة الحج ويجب ان يؤدى مع الجموع في اليوم التاسع من ذي الحجة وهو آخر يوم في السنة الهجرية .

وفي صباح ذلك اليوم حمّل سالم وصحبه جمالهم بالخيام والطعام والأواني وتوجهوا عبر قرية منى الى جبل عرفات وهو عبارة عن تلة مخروطية الشكل من الغرانيت على بعد ثمانية عشر ميلاً من مكة على طريق الطائف .

وهناك شهدوا أمام الجبل المقدس من الظهر حتى الغروب بين عشرات الالوف من الحجاج اللابسين أثوابهم البيضاء والجالسين بوقار يقولون « لبّيك » ويشاركون في الصلوات والتأملات .

وفور غياب الشمس اندفعت الجموع عائدة نحو منى التي تبعد ثمانية أميال

باتجاه مكة ، حيث يتوجب على الحاج ان يقضي ثلاثة أيام . وبالقرب من هناك يوجد مكان الرجم بالحجارة وهو عبارة عن ثلاثة أعمدة يحيط بها جدار منخفض وتعرف باسم الشيطان الكبير ، وجمرة الوسطي ، والشيطان الصغير . ففي الصباح الأول يلقون سبعة أحجار على الشيطان الكبير ، وفي الصباح التالي سبعة أخرى على جمرة الوسطي ، ويلقون سبعة أخرى على الشيطان الصغير في اليوم الثالث .

ومع انه من المفروض على الحاج ان يلقي الحجارة كل صباح أثناء اقامته في منى لكنه في الحقيقة تنتهي مراسم الحج رسمياً في اليوم الأول من تلك الأيام الذي يصادف العاشر من ذي الحجة . ويسمى هذا اليوم عيد الأضحى او عيد الضحية . وبعد أن القى سالم حجارته على الشيطان الكبير قام بما يسمى التضحية الكبرى بأن ذبح خروفاً . وفي نهاية الأيام الثلاثة التي قضوها في سهل منى عادوا فلبسوا ثيابهم الأصلية ورجعوا الى مكة حيث حلق الرجال رؤوسهم اما عمشا ومنيره فقد قصتا قطعة صغيرة من طرف ضفائرهما . وقضى سالم وصحبه اربعة أيام في مكة حيث زاروا الأماكن المقدسة مرة أخرى .. وفي اليوم الخامس غادروا المدينة المقدسة عائدين الى الكويت . وقد استغرقت رحلتهم من مكة الى حيث يخيمون في رجم الجهتان شهراً كاملاً من السير المتواصل .

وقد احضرنا معنا من الكويت خروفين سمينين مع بعض الضروريات الأخرى كالقهوة والأرز والدهن والزبيب والنخي ، فأقمنا للحجاج العائدين تلك الليلة وليمة عامرة لم يذوقوا مثلها منذ زمن فأكل الجميع مريئاً حول النار وشكروا الله .

وأخبرنا سالم حكاية نخيل الدوم الذي ينمو في بساتين مرّان التي تقع على طريق الحج المؤدية من العراق والكويت الى مكة والتي تبعد حوالي مئة وخمسين ميلاً الى الشمال الشرقي من المدينة المقدسة . وثمر الدوم ذو لون بني قاتم شديد اللمعان في حجم إجاصة صغيرة . وبلغ طول إحدى الاثمار التي اهدتها عمشا لزوجتي ٦٥ مليمتراً وبلغ عرضها ٥٩ مليمتراً ، ولم يكن في داخلها نواة ولكنها قاسية جليدية الملمس وغير ذات طعم . وقد اسماها العرب « دوم » أي الحجر .

وقال محمد ان اسطورة هذا التمر تعود الى زمن رسول الله محمد بن عبدالله. اذ حدث ان كان الرسول يسير مع بعض صحبه على الطريق الى مكة فوصلوا ضواحي مرّان وهم في حالة من التعب والاعياء فتوقفوا للاستراحة في واحة وارفة الظلال فيها أشجار نخيل محملة بتمور شهية . وكان صاحب البستان مشغولاً بجر الماء لري حديقته فاقترب منه الرسول وسأله اذا كان بامكانه الاستغناء عن عدة حبات من التمر لمسافرين متعبين تمكنهم من متابعة سيرهم . وأجابه صاحب البستان بصفاقة :

— اذهب أيها المتسول .. ليس لدي تمر إن ما تراه على هذه الاشجار ليس إلا حجارة .

وغضب الرسول من هذا الجواب الوقح فأشار الى التمور وقال :

— الله يجعلهم دوم الى آخر يوم .

ومنذ ذلك الحين ، قال سالم ، وكل أشجار النخيل في تلك الواحة والوادي تحمل الدوم بدلاً من التمر . وعندما يمر الحجاج من هناك في طريق عودتهم من الاماكن المقدسة يحملون معهم من هذه الثمار للذكرى دليلاً على صدق كلمة الرسول محمد بن عبدالله .

وعندما قمنا للنوم كانت الساعة التاسعة والنصف وكان الجو بارداً ملبداً بالغيوم ، والبرق والرعد البعيدان ينذران بعاصفة هوجاء . وبدأنا نحتاط لهذه العاصفة فنهض سالم واقتاد اغنامه للجوء تحت سقف خيمته لأنه في مثل تلك الليلة تكثر الذئاب . ولم ينس ان يحذر الرعاة من ذلك ويطلب اليهم ان يوقدوا النار حول المكان طوال الليل .

كانت مخاوف سالم في محلها . اذ ان ذئبين ، ذكر وانثى كما تبين من آثارهما ، هاجما القطيع الساعة الواحدة صباحاً عندما كانت السماء قد بدأت تمطر ، وحملا معهما نعجة ممتازة .

وبالرغم من النباح الشديد الصادر عن كلاب الرعاة ، تمكن الذئبان من الفرار بفريستهما التي وجدنا بقاياها في الصباح الباكر وقد أكلتها الذئاب كلها باستثناء

العظم والجلد على حوالي ثلاثمائة ياردة من الخيمة .

ومن السهل تصور ما حدث . ان الكلاب هاجمت بعنف وبجرأة ولكن أحد الذئبين كان يصدها فيما راح الآخر ينهش من الفريسة والعكس بالعكس . ونظراً لشدة الظلام والمطر لم يتمكن الرجال من القيام بمطاردة فعالة .

وعدنا الى الكويت نشعر ببعض الأسى ولكن عائلة سالم التي تبعتنا بعد يومين لم يكن يبدو عليها أي قلق بل على العكس كانوا شاكرين لعودتهم ورؤية اصدقائهم .

وقبل ان نغادر رجم الجهنان أفضت لنا عمشا بأنها قررت ان تسمح لسالم ان يتخذ زوجة جديدة على أمل ان تنجب له ولداً . لأن عمشا طوال هذه السنين لم تنجب له ولداً وقد رأت في نومها حلماً وهي على جبل عرفات يقضي بأن تتصرف بتلك الطريقة . وقالت ان سالم كان الى ذلك الوقت مخلصاً في حبه لها ومتعلقاً بها وانه يستحق زوجة جديدة . وتزوج سالم فتاة عوازمية انجبت له ولدين . وكانت عمشا سعيدة بهما وتعتني بهما كأنهما ولداها .

وهنالك شيء أود ان اسجله هنا وهو ان سالم عندما توجه الى مكة من أبرق خيتان حيث كان مخيماً خارج الكويت، ترك خلفه كلبيه وهما ذكر وانثى ليحرسا قطيعه في غيابه . وهذان الكلبان اسودا اللون يجيدان صد الذئاب ومطاردتها . وبعد مسيرة أربعة أيام من الكويت افاق سالم ليجد كلبته السوداء تلوح بذنبها وتبتسم له . ويبدو انها قد احست بأن سيدها ذاهب في رحلة طويلة فتبعته مستدلة على الطريق بحاسة الشم . وقد دهش سالم عندما رآها فقرر ان يأخذها معه في رحلته اذ انه لم يعد لديه وقت لاعادتها. وظلت الكلبة الوفية تتبع سيدها الى ضواحي مكة المكرمة . ورغبة منه في ان لا يدخلها الى المدينة المقدسة ، طلب سالم من فريق من البدو مخيمين الى جانب الطريق ان يعتنوا بها لمدة اثني عشر يوماً فوافقوا وشدوا رباطها لمنعها من اللحاق بصاحبها .

وفي طريق العودة من مكة مر سالم ليأخذ الكلبة فقالوا له انها قطعت رباطها وهربت . ولم يكن بامكان سالم ان يؤخر رحلته فقضى يوماً واحداً في

البحث ثم أكمل سيره . ولما وصل الى رجم الجهثان وجد الكلب الآخر كسير القلب لا سيما بعد ان رأى ان صديقته ليست مع العائدين . ويبدو انه عرف انها ذهبت مع سالم فظل ينتظرها بفارغ الصبر مدة ثلاثة أشهر وبعد ان بحث عنها يومين متواصلين ولم يجد لها أثراً قضى ثلاث ليال متواصلة فيما يشبه النحيب ثم قضى نحبه .

وعلق سالم على هذه الحادثة بقوله : الحيوانات كالبشر تحب اصدقاءها .. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

انقطاع السوار

بقلم فيوليت ديكسون

في شتاء سنة ١٩٤٤ وربيع سنة ١٩٤٥ أقمنا مخيمنا في بلاد الحمض عبر الشق على بعد ستين ميلا من الكويت . وقضيت هناك عدة أيام في نهاية شهر شباط فيما بقي زوجي في المدينة . وكان معنا بالاضافة الى سالم المزين ونسائه عدد من عائلات آل مرّه وعدوان وعوازم ومن فرع الدياهين في مطير .

وكان في الخيمة المجاورة لنا صالح المرّي وزوجته قمزه وابنه محمد . ولصالح صلة قربى بالصعق شيخ فرع البهية في آل مرّه ، وكان يعمل في خدمة الشيخ عبدالله المبارك الصباح كرئيس لمقتفي الآثار . وقد انجبت قمزه طفلها الثاني في المخيم في كانون الثاني وصادفت ولادة معسرة وأياماً عصيبة أثرت على صحتها مما اضطر صالح لأن يحصل على اجازة ويبقى إلى جانبها ريثما تتحسن حالها ولكي يكون بامكانه الاشراف على جماله وأغنامه . وقد أخذنا لها بعض الدواء من الدكتورة الآنسة كراوز وبعض الأرز لانها لم تكن تستطيع أكل مسحوق الحنطة او الشعير الذي كان كل ما تستطيع الحصول عليه بموجب بطاقة الاعاشة .

وخلال ليلتنا الأولى في المخيم استيقظت على اصوات رجال يتحدثون بالقرب منا عرفت صوت احدهم وهو سالم المزين الذي كان يتحدث الى رجل آخر ليس

بعيداً عنه .

ولم تكن لدي فكرة عن الوقت الذي جرت فيه الحادثة ولم يقلقني ذلك بل عدت الى النوم من جديد . وفي صباح اليوم التالي ذهبت لأشرب القهوة في خيمة سالم فأخبرني عن وصول ذلك الغريب اثناء الليل .

كان سالم نائماً في خيمته عندما سمع الكلاب تنبح بضراوة فهب ليعرف السبب لأنه ظن أن ذئباً قد تعقب اغنامه مع ان الذئاب لا تأتي في مثل ذلك الوقت من السنة . وسمع سالم صوت رجل ينيخ جمله ورأى في ضوء القمر بدوياً ينزل خارج خيمتي فذهب اليه وطلب منه ان يأتي الى خيمته حيث سقاه القهوة وأطعمه التمر واللبن . واستراح الغريب عدة ساعات استأنف بعدها سيره الى الكويت . وكان لديه اكياس مليئة ببعض الثمار البرية التي ينوي بيعها في المدينة مستعجلاً الوصول لأنه سمع في اليوم السابق ان الاسعار مرتفعة . كل ذلك كان وقائع عادية .

وفيما نحن نتحدث عن الغريب جاء صالح المرّي من خيمته الصغيرة وانضم الينا حول النار . وبعد تناول القهوة اخذته الى حيث قعد الجمل خارج خيمتي وسألته عن لون الجمل فأجاب على الفور : « انه جمل ذكر اصفر اللون » .

وهرع الى المكان الذي ركع فيه الجمل امام خيمة سالم وعاد ليقول : « نعم انه ذكر اصفر اللون » .

وسألته : من يكون راكب الجمل ؟

ولكن أناساً كثيرين قد مروا امام الخيمة منذ الصباح الباكر بحيث ان آثار اقدام الغريب قد ضاعت . واراد سالم ان يمازح صالح المرّي فهمس في أذني قائلاً :

– والله ان الجمل اصفر اللون لأنني رأيته بوضوح في ضوء القمر . ولكنني سأقول لصالح انه على خطأ وان الجمل أنثى بنية اللون . ونصحته ان لا يفعل ذلك لانه ليس عدلاً . وقلت لصالح انه على حق فأكد سالم ذلك .

وفي اليوم التالي خرجت طول النهار مع صالح لجمع الثمار البرية بصحبة

« المعشتين » عمشا زوجة سالم وعمشا ابنة أخيه ، وشاب يدعى حمود كان يرعى جمال سالم في ذلك الوقت . وقد حملنا غداءنا المكون من اللـــبن والتمر والشاي والقهوة والخبز على حمار . وبعد ان قطعنا مسيرة ثلاث ساعات اتينا الى منخفض رائع مليء بشجيرات الرمض الكبيرة والأزهار البرية الجميلة التي يبلغ ارتفـاعها حوالي قدمين . وهنالك أشعلنا نارين واحـــدة للنساء وأخرى للرجال وتناولنا الغداء وشوينا بعض الثمار التي اقتلعناها كما نشوي البطاطا وأكلناها بعد ان رششنا عليها الملح .

ولمح صالح بعض الآثار فناداني قائلاً : ان هنالك ارنباً برياً في مكان ليس ببعيد ولكنني لا استطيع ان اتتبع آثاره لان الأرض صلبة . فيها عشب كثير .

وبعد الغداء كنت اتجول في المكان فرأيت ثـــلاثة ارانب صغيرة نائمة تحت احدى الشجيرات ولم اخبر صالح بذلك لأنني لم اكن أريده ان يمسكها . واكملت جولتي لالتقاط الازهار فقفز من تحت احدى شجيرات الرمض ارنب كبير على بعد مسافة من الأرانب الصغيرة . ولما عدت الى الجماعة اخبرت صالح بما شاهدت فشرح لي ان الأم لا تبقى بالقرب من صغارها اثناء النهار ولكنها تعود اليهـم في الليل . وقال : ليس هنالك شك في أن الصغار الثلاثة هم أولاد الأرنب الكبير ولو رأيتهم لنصبت لها فخاً وامسكت بها هذا المساء عندما تعود اليهم .

وفي طريق عودتنا اعربت عن رغبتي في العثور على عش للحبارى فيه بيوضها ، فأجاب صالح بأنه يعرف كيف ينصب الفخ للايقاع بالحبارى . ويبدو ان هـذا الطائر يترك أثراً عندما يتوجه الى عشه ولكنه عندمـا ينهض عن بيوضه يغادر العش تاركاً آثاراً أقل وضوحاً من الآثار الاولى . فالذي يريد التقاطها يبني حول بيوضها جداراً من الحصى من ثلاث جهات ارتفاعه خمس بوصات وينصب الفخ على المدخل . وهذا الفخ ليس مغطى بالتراب بل بقطعة قماش قـــذرة لمنع انكسار أرجل الطائر عندما ينطبق عليها الفخ . وقال صالح ان الذكر منها أحياناً يدور ويدور حول الشجيرات في مكان ليس بعيد عن العش ويمكن الامساك به بنفس الطريقة . ولسوء الحظ لم نصادف أي أثر للحبارى في طريقنا .

وفي الأول من آذار جاء زوجي «ابو سعود كما يسميه البدو الى المخيم . وصادف ان كان ذلك اليوم هو اليوم الأربعين لولادة الابن الثاني لصالح المرّي الذي جاء الى خيمتنا بعد الغداء وجلس الى جانب النار ثم أخذ يشرح لنا بصورة جدية ان العادات الدينية لآل مرّه تقضي بأن يربط خيط فيه قطعة من اللبان حول يد الطفل اليمنى . ويقطع هذا الخيط في اليوم الأربعين .

وقال صالح : وهذه المهمة يقوم بها رجل شجاع كريم صالح تقي مستقيم .

ثم أعرب عن رغبته في ان يقوم ابو سعود بهذه المهمة . فبالرغم من وجود عدد كبير من الرجال الذين تنطبق عليهم الأوصاف المطلوبة ، لم يفكر صالح وزوجته بأحد افضل من ابي سعود لهذه المهمة .

وأبدى زوجي موافقته وترحيبه ثم توجهنا الى خيمة صالح . وكان الطفل نائماً في « مزبح* » ملفوفاً بقطعة قماش مشدودة بحبل من الصوف . وعندما جلسنا أخذته أمه من المهد وفكت الرباط بحيث تمكنت من سحب ذراعه اليمنى . ثم أتى صالح بمقص سلمه لزوجي وقال : « باسم الله الرحمن الرحيم » .

وقص زوجي الخيط متمنياً للطفل باسم الله عمراً طويلاً وحظاً سعيداً متمنياً أن يصبح الطفل فارساً شجاعاً كأبيه . وقد سر الوالدان بذلك الحديث سروراً كبيراً .

وقال صالح :

— « لقد اسميناه دكسان . ان قبيلة آل مرّه تعرف ذلك الآن لأنني أرسلت لهم خبراً .

وقبلت قمزه ان يسمى ابنها دكسان ولكننا كنا نعرف انها في الحقيقة تود ان تسميه سالم فاقترح زوجي أن يسمى الطفل سالم دكسان .. فساد السرور الجميع .

وقال صالح :

---

* — المزبح يعني المهد بلغة آل مره . هو مصنوع من الجلد الذي يمكن تعليقه بين عمودي الخيمة او على كتفي الام عند الانتقال . ويسميه العجمان الحبابه .

– سأجد خروفاً عمره ستة أشهر وعشرة أيام وأذبحه بهذه المناسبة . وسأدعوكم ان شاء الله يوم الجمعة القادم لتأتوا وتشاركونا في الوليمة .

وقلت له ان الارز علينا وسنحضر معنا خمسة وعشرين رطلاً من أجل الوليمة .

ابنة قمزه

بقلم فيوليت ديكسون

أنجبت قمزه طفلة في حوالي منتصف شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ . وقد رأيتها في اليوم التالي فوجدتها طفلة حلوة ذات وجه مدوّر .

وقالت قمزه : لقد اسميناها خاتون على اسمك .

وخاتون معناها السيدة وكان يناديني العرب بهذا الاسم .

وفي التاسع من شباط في السنة التالية كتبت عن خاتون ما يلي :

أصبح عمرها الآن حوالي الثلاثة أشهر وهي تنمو كأحسن ما يكون نمو الاطفال في عمرها . وكانت نائمة بهدوء في مزبجها وقد شدت ملفتها جيداً . ومع ان الطقس كان بارداً لكنها كانت دافئة . واخبرتني قمزه سر ذلك بأن ارتني هاوناً نحاسياً كبيراً تدق فيه القهوة وقد امتلأ جمراً . وفكّ رباط خاتون وسمح لها ان تلعب فترة قصيرة في حضن والدتها . وعندما بدأت تشعر بالبرد نقلتها قمزه الى جانب النار حيث كانت تغلي الهريسة للعشاء ، ومددتها على قطعة قماش جافة فوق بعض الرماد الدافىء الذي أخذته من الهاون ، ثم رشت بعض الرماد على ساقيها وذراعيها ولفتها بالقماش بعد ان مددت لها رجليها وشدت يديها الى صدرها ثم لفتها بقطعة قماش ثانية ربطتها من الأعلى الى الاسفل جيداً . وكانت تبتسم شاعرة بالدفء فأرضعتها امها قليلاً قبل ان تضعها في المهد لتنام .

« وشرحت لي قمزه ان الرماد المأخوذ من براز انثى الجمل له رائحة طيبة . وبهذه الطريقة وبعد تضميخ الملفة بدخان البخور تظل الطفلة نظيفة مرتاحة .

وقالت لي : « انظري ما اسمن ساقيها كل ذلك لأنني ابقيها دافئة غير مبللة.

الشيخ عبدالله المبارك الصباح في مجلسه [illegible]

في حفلة تنصيب صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح





تناول الشاي بعد الظهر في دار الضيافة التابعة لشركة النفط في الاحمدي
ويبدو في الصورة من اليمين الى اليسار : ل. ث. جوردان المدير العام للشركة ،
سمو حاكم الكويت ، الشيخ علي بن ثاني حاكم قطر ، المؤلف الكولونيل ديكسون

اني اغير لها الملفة كل صباح وكل مساء . انظري الى ابن سالم المزين انــه نحيل بارد رجلاه لا يعرفان الدفء وتقول أمه انهـا حضرية وتغسل له ثيابه دائماً وبذلك يبقى رطباً بارداً .

« إن نساء آل مرّه يعرفن في الحقيقة كيف يعتنين باطفالهن . وعندما تبلغ خاتون أربعة أشهر من العمر ستصنع لهـا والدتها زناراً دائرياً محشواً بالاعشاب المطيبة تربطه حول عنقها . ويقولون ان ذلك يمنع الامراض . »

فلك اسماعيل

بانتهاء الحرب العالمية الثانية تسلم العمليات في شركة نفط الكويت مدير عام أميركي معه جهاز من الموظفين الانكليز والاميركيين . وفي خريف عـام ١٩٤٥ بدأ الحفر والتنقيب من جديد .

وفي تلك الأثناء كنت اقضي مع زوجتي اجازة قصيرة في بلدة شتورا اللبنانية في سهل البقاع على طريق دمشق . وفي حزيران الماضي كانت قد قامت ثورة في دمشق فقصف الفرنسيون المدينة من مواقعهم في الصالحية . كان كل شيء هادئاً الآن بعد ان تم جلاء الجيوش الفرنسية عن سورية . وكانت الفرقة الهندية المسلحة الواحدة والثلاثين تعسكر بالقرب من المدينـة فكان ينظر الى البريطانيين بأنهم أصدقاء الجميع . وكان ولدنا سعود في فرقـة هودسون الخيالة التي تشكل جزءاً من الفرقة الهندية ، فلذلك اتيحت لنا الفرصة ان نقابله في دمشق .

كان الكولونيل ستيرلينغ* الذي عاد مؤخراً من لندن بعد ان قضى اجازته هناك يعيش في دمشق ويدير منطقة الصحراء . وقـد قابلناه صدفة عندما جاء الى الفندق الذي ننزل فيه في شتورا ذات صباح . وقد ذكرنا أمامه اننا نود ان نرى « مركب اسماعيل » او « فلك اسماعيل » الخـاص بفرع آل روله في قبيلة

* – اسمه الكامل جيمس ارسكين ستيرلينغ وهو رجل مدهش له معرفة لا تضاهى بشؤون الشرق الأوسط . وقد نجا قبل ثمانية اشهر من محاولة لاغتياله اذ دخل خمسة مسلحين الى منزله في دمشق وأطلقوا عليه النار فأصيب في خمسة أماكن من جسمه .

عنيزه . وكان الأمير فواز بن نوري الشعلان شيخ الروله الذين يقطنون الصحراء المجاورة لدمشق قد عاد من رحلة الى الولايات المتحدة وبريطانيا استغرقت ثلاثة أشهر . وحدث أن التقى به الكولونيل ستيرلينغ في لندن قبل عدة أسابيع فرحب به وأكرمه ودعاه الى الغداء في فندق سافوي . وقال ستيرلينغ انه يمكن ترتيب زيارة للامير في مخيمه الصيفي بعذرا على بعد عشرين ميلا الى الشمال الشرقي من دمشق .

والمركب عبارة عن هودج كبير خاص بالنساء له إطار خشبي من أغصان شجر استوائي خاص وهذا الاطار مغطى بريش النعام . ويسمى هذا المركب « فلك اسماعيل » تخليداً لأول عربي رحّل اسماعيل بن ابراهيم الخليل من زوجته المصرية هاجر .. ويقال ان اسماعيل قد بنى المركب الأصلي . ولا شك في ان المركب قديم العهد وربما كان عمره أكثر من الف ومايتي سنة وقد اهترأ خشبه وتآكل ريش النعام فيه ولكن الروله يجددونه ويصلحونه حفاظاً على قيمته التاريخية .

وعندما تدخل عنيزه في معركة تركب ابنة الشيخ المركب وتتقدم وسط قوات القبيلة لتحث المقاتلين على القيام بأعمال البطولة . ويقال انه عندما تدور رحى الحرب يكبل الجمل الحامل المركب بالسلاسل حتى لا يتراجع . واذا ما اتجهت المعركة ضد عنيزه فيسمح بالتراجع الى حد المركب فقط حيث يتوجب على الجميع القتال حتى الموت دفاعاً عنه وعن السيدة الجالسة داخله .

وقد ابلغني الشيخ أحمد مرة ان هودجاً مماثلاً استخدمه ابن سعود في معركة جراب سنة ١٩١٥ ، وان الشيخ مبارك حاكم الكويت لجأ الى نفس الطريقة سنة ١٩٠١ عندما هدد ابن رشيد بالهجوم على الجهراء بأمر من الاتراك . ووضعت ابنة مبارك في الهودج وهي من أجمل نساء آل الصباح وقد تدلى شعرها وحسر رأسها ورفع الحجاب عن وجهها . ولو لم ينسحب ابن رشيد لتجمع الكويتيون حول السيدة وقاتلوا الى آخر رجل .

ومما لا شك فيه ان هذين المركبين ليسا سوى هودجين حليا بالزينة . والاسم

الحقيقي الذي يطلق على الواحد منها هو « مكسر » اذ انــه يشبه سرج الجمل العادي الذي تستخدمه نساء مطير وعجمان وحرب وظافر . وقد اخبرني الشيخ خالد الهذلان (ذيب سهان) سنة ١٩٣٤ ان عجمان لا زالت تستخدم مثل هذا المركب عندما تذهب الى الحرب ، وتوضع أجمل سيدات القبيلة فيه سافرة لحث الرعاديد المتلكئين من الاندفاع الى المعركة .. ولكن عجمان تسميه « مكسر » ايضاً . وحسب معرفتي فــان الروله هي القبيلة الوحيدة التي تستخدم المركب الحقيقي كشعار للقبيلة ومما لا شك فيه انه يعود الى اقدم الأزمان .

وبعد عدة أيام عاد الكولونيل ستيرلنغ لزيارتنا بعد ان قابــل الامير فواز وقال ان الامير سيقيم مأدبة عشاء في خيمته مساء الأحد عند الغروب واننــا سنكون بين المدعوين لهذه المأدبة . وفي الساعة السادسة والربــع من مساء يوم الأحد الســادس عشر من أيلول وصلت مــع زوجتي وابني الى منزل الكولونيل ستيرلنغ حيث التقينا بالمدعوين الآخرين وهم : تريفور ايفانس القنصل البريطاني في الشام وزوجته ، وقائد القوات البريطانيــة ، والكولونيل مورغان من دائرة الاستخبارات ، وأربع أو خمس ضباط آخرين من القيادة العامة .

وتوجهنا جميعنا مع الكولونيل ستيرلنغ على طريق بغداد الرئيسية الى القرب من عذرا حيث كان أحد المرشدين في استقبالنا فاقتادنا في طريق فرعي مسافة نصف ميل الى خيمة الامير التي كانت تشعشع بالكهرباء بعــد غياب الشمس بحيث انها حجبت جميع خيام القبيلة المحيطة بها . وكان صوت المحرك الذي يولد الكهرباء يأتي من مبنى خاص الى اليمين . وقد اصطف بجانب الخيمة عــدد من السيارات وسيارة كبيرة تتسع لخمسة عشر راكباً .

كانت الخيمة التي تتجه مقدمتها الى الجنوب تقوم على أحــد عشر عموداً مركزياً . وعند العمود الخامس من جهة الغرب قسمت الى قسمين بقاطع مطرز فخم ارتفاعه اثنا عشر قدماً ويصل الى أعلى الخيمة ويمتد مسافــة عشر ياردات من واجهتها . اما القسم الغربي فكان مغطى بسجاد فخم عليه طنافس ومــساند للضيوف . وأعتقد ان سيدات الأمير كن يشغلن القسم الشرقي من الخيمة .

وفيما نحن نسير لنحتل مقاعدنا في الطرف الشرقي من القسم الغربي من الخيمة رأينا المركب امام القاطع والى يمينه ويساره عبيد مسلحون يقومون على حراسته . وكان منظره رائعاً اذ يبلغ طوله خمسة عشر قدماً وارتفاعه سبعة اقدام وكان قد أصلح فظهر في حالة جيدة عليه تسع شمائل من ريش النعام بنية وسوداء اللون وضعت اثنتين اثنتين عند القمة تلوح مع النسيم . وكانت جوانبه مغطاة بريش نعام صغير رمادية اللون الصقت بالاطار الخشبي .

وعندما جلسنا في اماكننا على الفرش امام المركب انضم البدو في الخارج الى بعضهم حول الجهات الثلاث المكشوفة في الخيمة مشكلين جداراً حياً صامتاً اذ لم ينبس أحدهم ببنت شفة مع ان عددهم كان يربو عن الخمساية رجل .

ووقف في وسط الخيمة عبدان معهما بندقيتاهما ويلبسان ثياباً قرمزية موشاة بالذهب على الطراز النجدي ، في مواجهتنا ينتظران الأوامر . وجاء أولاد الأمير الثلاثة — أظن ان أسماءهم هي : محمد ومتعب وسلطان — وجلسوا بيننا . وكان متعب الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً يتكلم الانكليزية جيداً وأخذ يخبرنا عن الحياة في الصحراء . وكان في جيبه قلم حبر اشتراه له والده من اميركا ولكنه لم يكن بإمكانه استخدامه لعدم وجود حبر عنده ! ووعدته السيدة ايفانس بأن ترسل له زجاجة حبر وآمل ان لا تكون قد نسيت .

وكان الأمير فواز مضيفاً رائعاً فكان ينتقل من ضيف الى ضيف ويتحدث بالعربية او الفرنسية أو عن طريق كاتبه .

واقترب موعد العشاء لأن بساطاً أسود قد مد على طول الخيمة ، كما دلت على ذلك أيضاً تحركات البدو الذين شغلوا بإحضار الطعام . ثم دخل العبيد يحملون خمس صواني كبيرة من اللحم والأرز ، يبلغ قطر الواحدة منها ستة اقدام على الأقل وضعت وسط البساط الأسود . وهذه الصواني هي من نوع « ابو كرسي » الواسع الانتشار بين البدو وهي عبارة عن لوحة مستديرة من النحاس بلون الفضة تقوم على قاعدة معدنية ارتفاعها ثماني بوصات ولها مقابض تحمل بها من الجانبين . ووضعت حول الصواني صحون صغيرة من المرق وأرغفة

من الخبز المرقوق .

وقال مضيفنا « سموا » فلبينا دعوته وبدأنا الأكل . وقـدم لكل ضيف أوروبي صحن إضافي مع سكين وملعقة وشوكة ووضعت على ركبته محرمـة بيضاء جديدة . وكان الأرز على شكل تلة صغيرة مغطاة بقطع اللحم فوقها على كل صينية رأس خروف. ومن عدد الرؤوس الموجودة تبين لي ان خمساً وعشرين خروفاً قد ذبحت لهذه الوليمة .

ولم تؤثر جهودنا التي بذلناها في الأكل على أكوام الطعـام الموضوعة أمامنا . ولاحظت ان الأمير الذي كان جالساً الى يميني لم يأكل من الطعام شيئاً بل كان يساعدني ويساعد غيري من الضيوف في انتقـاء قطع اللحم الشهية . وبعد ان انتهينا من الأكل نهضنا عن المائدة وقام الذين أكلوا بأيديهم مثلنا وغسلوا أيديهم عند طرف الخيمة قبل ان يعودوا لاحتلال مقاعدهم .

ثم اطبق الشيوخ على الطعام ونهضوا بعـد ان أكلوا كفايتهم تاركين نقصاً ملحوظاً في كمية الطعام . وجلس وفدان آخران على المائدة وتناولوا طعامهم قبل ان تنقل الصواني من الخيمة وقـد فرغت تقريباً . ولم يبق في الصواني حتى العظام لأن العادة جرت ان يأخذ بعض المدعوين معه قطعة او قطعتين لشخص صغير في خيمته لم يكن له شرف الحضور مع والده . وبعـد أن أزيح الصحن الأخير ونقل البساط الاسود بقيت على قطع السجاد في ارض الخيمة حبوب من الأرز تناثرت هنـا وهناك فهرع أربعة عبيد وأخذوا السجاجيد ونفضوها في الخارج بلمح البصر وأعادوها الى مكانها بالسرعة ذاتها .

وأدار علينا القهوة عبد يحمل عدداً من الفناجين في يده اليمنى وابريق القهوة في يده اليسرى . ثم دارت علينـا كؤوس الشاي وبعدهـا اقترح الكولونيل ستيرلنغ أن نعود الى دمشق ولكن الأمير استوقفنا قـائلا : لم تأكلوا الفاكهة بعد .

وطلب الفاكهة فأحضرت على طاولة طويلة ارتفاعها قدم واحد ومحملة بالعنب الأبيض والأسود والبطيخ الأصفر والأحمر والخوخ ووزعت علينـا الصحون

والـكاكين فيا جلسنا حول الطـاولة واستمتعنا كثيراً بتلك الفاكهة الشهية . وأشار الامير الى انه دفع مؤخراً في لندن سبعة جنيهات ثمن كميــة من العنب توازي ما بقي في الصحن بعد ان أكلنا جميعنا منه . وبعد ان انتهينا من أكل الفاكهة صب أحد العبيد الماء على أيدينا وعدنا الى الجلوس في أماكننا السابقة . ثم دارت علينا القهوة من جديد .

وبعد برهة استأذنا الامير بالذهاب فخرج لوداعنا الى السيارات . وكنا على وشك الذهاب عندما قيل لنـا اننا يجب ان نرجع لسماع خطاب أعده متعب الصغير .. فعدنا الى حيث كنا لنجد متعب واقفاً وسط الخيمة وفي يده خطاب مكتوب أخذ يلقيه . ورحب الخطاب بنا الى خيمته وأعرب عن الأمل في توطيد الصداقة مع الذين أنقذوهم من الفرنسيين .

وبالتالي حصلت على معلومات وافية عن المركب من نايف بن نوري الشعلان شقيق الأمير والذي كان موظفاً في الحكومة السعودية بالطائف .

قال لي : ان هذا المركب هو الفريد من نوعه في العالم الآن . ولكن القبائل الأخرى كفرع عمارات في عنيزه تملك هوادج عادية أصغر بكثير يزينونها بريش النعام ويسيرون خلفها الى المعركة .. وهي ليست كالذي عندنا .. انها نسخ عنه . أما إذا استولى الاعداء على هذا المركب فإن قبيلتنا تنتهي الى كل الأزمان لأننا جميعنا نموت دفاعاً عنه . وإذا أخذ منا لا سمح الله فلن يصنع واحـد جديد ليحل محله في قبيلتنا .

وسألته :

– في حالة الحرب مع قبيلة أخرى .. أي السيدات تركب فيه ؟

فقال : احدى سيدات الشعلان اما ابنة الشيخ او ابنة اخيه واما ابنة أقرب الذكور إليه .

مقتل رجل من عجمان

أثناء غيابنا عن الكويت وقع حادث في أوائل ايلول بمكان ليس بعيداً عن

آبار جاريه[1] . وتورط في الحادث فيصل بن عبدالعزيز الماجد الدويش الابن الأكبر لصديقتنا فيحا شقيقة عمشا .

كان الدوشان يقضون اشهر الصيف عند آبار حابه[2] قرب الصفا[3] وكانوا يعتزمون الانتقال قريباً ولكن الى مكان آخر بجوار الآبار الى ان تهطل الامطار الاولى . وقرر فيصل ان يذهب مع صديق له من عتيبه الى الاحساء لتصفية أعمال تتعلق بموسم التمر الجديد .

وركبا ذلولين ممتازين وسارا على بركة الله الى أن وصلا بعد مسيرة يومين الى مكان عند الظهر فيه رجلان من قبيلة عجمان ينتميان الى قوم الشيخ عبدالله بن جمعه حيث كانا يرعيان جمالها . وترجل فيصل ورفيقه والقيا التحية على الرجلين اللذين ردا بمثلها ، وطلبا وعاء يحلبان فيه احدى النوق لأنهما يشعران بالعطش . فدلها الرجلان على قربة ملأى بالحليب قالا انهما حلباها منذ ساعات قليلة . ورفض فيصل ان يشرب من القربة وأصر على ان يعطى حليباً طازجاً من احدى النوق فنشأ صدام بالكلام أخذ فيصل على أثره الوعاء واندفع يمسك باحدى النوق ويحلبها بالقوة .

وخشي أحد العجمانيين تطور النزاع فتوجه الى جمل فيصل دون ان يلحظه أحد ونزع زناد البندقية المشدودة الى السرج والقاه بين الاعشاب ثم تبع فيصل . وتعارك الرجلان بالأيدي واللكمات ثم تباطحا على الارض . وكان فيصل أعزل من السلاح ولكن العجماني كان يحمل خنجراً على وسطه أمسك به فيصل قبل ان يستله صاحبه ، وطعن الراعي فيه بمعدته . ولم ينتظر ليرى ما اذا كانت جروح الرجل بالغة بل تركه ملقى على الارض وركب ورفيقه جمليهما بسرعة وانطلقا نحو الجنوب الشرقي .

وبعد أن ضمد الراعي الآخر جروح زميله انطلق بسرعة الى خيام رجال من آل مرّه كانوا يخيمون في مكان مجاور ورجع ومعه أحد أولاد العريف الثلاثة الذي تفحص الآثار وقال ان الغريب الذي طعن الرجل العجماني هو من عائلة الدوشان في مطير .

ووضع الجريح على ظهر جمل ونقل الى جارية عليا حيث أخبر الأمير قصته كاملة قبل أن يفارق الحياة متأثراً بجراحه في اليوم التالي . وأبلغ الأمير الحادث الى الرياض فتلقى تعليمات بان يرسل فريقـاً لمطاردة الرجلين الفارين برئاسة أحد مقتفي الآثار من آل مرّه ، وأن يرسل عـــدداً من رجاله الى آبار حابه ليحضر أحد شيوخ الدوشان كرهينة .

ولحق المطاردون بالرجلين بعد عـدة أيام في ضواحي الاحساء فأعادوهما الى جاريه حيث أودعا السجن انتظاراً لصدور حكم العدالة . وقـــد استاءت قبيلة عجمان كلها من هذه الجريمة النكراء واتفقت على ان لا تقبل أي فصل بالمـال بل طالبت برأس فيصل بن عبدالعزيز . وقدم شيوخ الدوشان جميعهم الى جاريـــة وعلى رأسهم بندر الدويش الشيخ الأعلى في مطير لمراقبة الأحداث عن كثب .

ومر شهر تشرين الأول بكامله وعجمان تصر على رفض قبول المال في تسويـة القضية وظل شيوخ عجمان وشيوخ الدوشان مخيمين في جارية . ولم يسبق ان سمعت الجزيرة العربية بحادث تزهق فيـه روح أحد الدوشان مقابل مقتل رجل من عجمان .

وفي تشرين الثاني ، وكنا قد عدنا الى الكويت ، أمر الملـك ابن سعود قبيلة عجمان ان تقبل دية قدرها اثنا عشر إلف روبية فضاً للنزاع . ومن مزايا العظمة التي يتمتع بها الملك انه لم يأمر الدوشان ان يدفعوا في الحال . وبدلاً من ذلـــك أرسل من مكة حيث كان في ذلك الوقت الى ولديه محمـــد وناصر اللذين كانا في الرياض آنئذ انيدفع كل منهما خمـة آلاف روبية الى عجمان وكان ان يدفع المبلغ الباقي فيصل وصديقه العتيبي بالتساوي وبعد اندفع المبلغ اطلق سراح السجينين وعادا الى أهليهما .

ان حكمة هذه التسوية تكمن في أن الشريعة طلبت دفع المال ، ولكن تجنباً لنشوب حرب بين عجمان ومطير افتدى الملك فيصل بنفسه . أمـا الأموال التي دفعها محمد وناصر فتأتي من اموال الدولة المخصصة لمساعدة الدوشان .

لقد أخبرني هذه القصة عبد المحسن الحبيشي ، وشياح الجبلي ، وسالم المزين ،

وزيد السنا ، وفيحا والدة فيصل بن عبدالعزيز .

مقر اجتماع العبيد

بقلم فيوليت ديكسون

نادراً ما يجد المرء عبداً ، أي زنجياً يشترى بالمال ، في مدينة الكويت ، إلا انه يوجد بعض « المولدين » ، اي الذين يخدمون في المنازل ، وقد ولدوا في الأسر من والدين عبدين كانا يعملان عند عائلة واحدة منذ سنين ، في البيوتات الموسرة الكبرى . ويعامل السادة هؤلاء العبيد بالحسنى وكأنهم أولادهم الذين يختلطون معهم على قدم المساواة . والمولد ، سواء كان ذكراً أم أنثى ، يعطى أحيانـاً مركزاً فيه الكثير من المسؤولية والثقة .

وبالرغم من انهم مسلمون ظاهرياً إلا ان هؤلاء العبيد يحتفظون ببعض عاداتهم الافريقية الامر الذي ليس مستحباً لدى الحاكم . يجتمع العبيد مساء كل يوم خميس وفي مناسبات خاصة في النوبان ، وهو الاسم الذي يطلق على مقر الاجتماع . وهنالك اثنان من هذه الاماكن في مدينة الكويت : المقر الرئيسي في حي المرقاب في الجهة الجنوبية ــ الغربية من المدينة ، ومقر آخر اصغر منه في الحي الشرقي المعروف بالميدان الذي يقطنه في معظمه الايرانيون والبحارنة وهو ليس بعيداً عن منزلنا .

وقد ذهبت الى المقر الأصغر بدعوة من باخته وبصحبة بارون « فراشنا » الايراني في حوالي الساعة التاسعة من ليل الثاني والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٤٥ وهي ليلة اكتمل فيها البدر . وباخته هي عبدة محررة كانت تملكها زوجة فيصل الدويش وقد طارت مع سيدها بالطائرة الى العراق عندما استسلم للبريطانيين سنة ١٩٣٠ .

ويقع المقر وباحته الصغيرة على طريق رئيسية ولا تميزه عن أي منزل عادي سوى صارية ارتفعت على احدى زوايا باحته . وعندما اقتربنا من الباب سمعنا اصوات الطبول والموسيقى تتخللها أصوات غريبة مما يدل على ان الرقص

قد بدأ .

وخــيم الصمت عندما توقفت الموسيقى وجلس الراقصون للاستراحة . وقرعنا الباب ففتحه أحد العبيد قليلاً وسألنا ماذا نريد .. فسأله خادمي قائلاً :

ـ هل باخته هنا ؟ لقد وعدت ان تقابل الخاتون هنا الليلة .

وأغلق الباب مرة أخرى ثم فتح بعد لحظات ليقول أحدهم ان باخته ليست هناك ولكن تتفضل الخاتون إذا شاءت . فخلعت حذائي ودخلت . كان هنالك عدد من النساء يجلسن في جانب من القاعة وعدد من الرجال يجلسون الى الحائط في الجهة المقابلة . فاقتادوني عبر القاعة الى مكان وضع فيه كرسيان لانهم توقعوا ان يكون زوجي معي . وخلع بارون نعليه وجلس مع الرجال قرب الحائط . وكان يخيم على المكان جو ديني لان الرجال والنساء كانوا يتحدثون بأصوات خافتة تشبه الهمس .

ووقفت الى جانبي زنجية طويلة تلبس ثياباً جميلة وأخذت تلوح لي بمروحة من أوراق النخيل . وكان جو الغرفة مشبعاً برائحة البخور الذي كان يحترق في موقد من الطين امام آلة موسيقية ذات أوتار تعرف بالطمبوره يقف أمامها وقفة تأمل رجل كبير في السن أشيب اللحية . وادار هذا الرجل وجهه نحو أحد العبيد ثم هز برأسه عدة مرات . فنهض العبد الى الطمبوره ولكنه قال انه لا يعرف كيف يعزف عليها ، فجاء شاب زنجي واحتل المكان . وللطمبوره صوت حنون يشبه صوت الأوتار الوسطى في العود . وبدأت الطبول الثلاثة او الأربعة الموضوعة على الأرض الى جانبها تضرب واستؤنف الغناء . ولم يكن ذلك الغناء يشبه أي غناء سمعته بين العرب او بين العبيد في زوارق صيد اللؤلؤ . لقد كان في الواقع لحناً جميلاً .

ووضعت الى يساري على منضدة واطئة صينية عليها ثلاث شموع مشتعلة ، وثلاث قوارير تحتوي على ماء الورد ، وفي وسطها صحن فيه سبع بيضات نيئة و « المشمع » . وحول هذه الاشياء كان هنالك ثلاثة عشر طبقاً فيها اشياء مختلفة قالت لي باخته فيما بعد انها ما يلي :

مهلب (او مهلبي) .. وهو نوع من الحلوى يصنع من الأرز المدقوق ويسميه العرب مهلبية .

صندل .. نوع من الزيت يستخرج من خشب بنفس الاسم .

سعاد .. نوع من النعناع .

جواني .. لست متأكدة من معناها انها كلمة زنجية وربما كانت افريقية الأصل .

علوك (او علوش) كلمة زنجية لمادة تمضغ .

المشمع .. طحالب طيبة الرائحة .

العوض الأزرق .. خشب أزرق اللون ذو رائحة طيبة . وعندما توضع قطعة منه فوق النار ينبعث منها دخان أبيض يحمل رائحة عطرية قوية .

المعمول .. كلمة زنجية للبخور .

الملح .. ملح الطعام .

الهال .. نوع من التوابل يوضع في القهوة العربية .

القرنفل .. نوع آخر من التوابل .

مستكي .. مثل العلوك ولكن من نوعية أفضل .

وفيما استمر الغناء نهض الرجال والنساء ورقصوا رقصات فيها الكثير من التلوي والانحناء ، وعندما ينتشي أحدهم يمسك ببيضة من الصينية ويطبق عليها يده ويرقص بها . وكان أحد الرجال يلبس ازاراً صنع من أذيال الغنم وعلق على خصره بحزام عريض . وعندما كان يتلوى مع الموسيقى تصطدم قطع الازار ببعضها محدثة « الخشيش » الذي سمعناه قبل ان ندخل القاعة .

وعندما انتهت الاغنية توقف الرقص وعاد الجميع الى اماكنهم . ووضع مزيد من الفحم في الموقد ووضع فوقه البخور . وهنا قرع الباب ودخل عبد شاب وتوجه رأساً الى الطمبوره ولمسها بيده ثم وضعها على رأسه قبل ان يأخذ مكانه .

وفي كل جانب من جانبي القاعة غرفتان يصنع الرجال في احداهما القهوة

وخصصت الأخرى للنساء اللواتي يردن ان يسترحن أو يدخن . ولا يسمح لأية امرأة تحضر الاحتفالات وهي غير نظيفة ، ويقال انها اذا فعلت ذلك ينقر أحد اوتار الطمبوره تلقائياً .

حضرت ثلاث رقصات ولكنني غادرت المكان قبل ان ينفعل الجميع ويتدحرجوا على الأرض في وقت متأخر من الليل . وكان عبد الشيخ عبدالله الأحمد نجل الحاكم قد عفر وجهه بالتراب نتيجة لذلك ، وكان يضع رزمة من المشمع حول عنقه .

وبعثت باختها في وقت متأخر تقول انها ذهبت الى البيت لأنها متعبة . وجاءت الي في صباح اليوم التالي لتشرح كل شيء فاعطيتها عشرين روبية لتشتري بها القهوة للنوبان . «انتهى حديث زوجة ديكسون»

القسم الرابع



ما دمتم في دارهم دارهم .

الفصل العشرون

الشحنة الأولى من النفط

٣٠ حزيران ١٩٤٦

كتب السيد سوثويل في تقريره يقول :

أجرى سمو شيخ الكويت حفل الافتتاح بأن أدار صماماً على أحد الأنابيب فتدفق النفط الخام من حقول بلاده الى أسواق العالم . وقد حضر حفل الافتتاح الكولونيل و. ر. هاي المقيم السياسي لحكومة صاحب الجلالة في الخليج الفارسي، والوكيل السياسي البريطاني، والسيد وليام كارتر بيرديت الابن، نائب القنصل الأميركي في البصره ، وجميع أعيان الكويت . وقام باستقبال سمو الشيخ السيد س. ا. ب. سوثويل ممثلاً المديرين الأميركيين والبريطانيين في شركة نفط الكويت، كما قام السيدان ل. د. سكوت و ت. اي. باتريك بإرشاده الى الصمام الرئيسي عبر الممرات بين الأنابيب . وعندما أدار الشيخ الصمام ليفتحه سمع صوت النفط وهو يتدفق إلى الناقلة « بريتيش فوزيليه » . ثم قص سموه شريطاً عند محطة الاشارات إيذاناً بمباشرة عمليات النقل .

وألقى سوثويل خطاباً في الاحتفال بالنيابة عن مديري شركة نفط الكويت وموظفيها اعرب فيه عن تقديره العظيم لحضور صاحب السمو وقال :

— « لقد اجتمعنا هنـــا لنحتفل بأول شحنة من نفط الكويت وهو حدث ضخم في تطوير موارد الكويت النفطية التي ائتمنتم سموكم شركتنا عليهـــا منذ اثني عشر عاماً . وقـــد قدرنا تقديراً عظيماً الثقة التي وضعتها سموكم في قدرة شركتنا على القيام بهذه المهمة الحيوية لازدهار دولتكم . ويسعدنا اليوم ان نحتفل مع سموكم بهذا الحدث الذي يعتبر مرحلة جديدة في التقدم النـاجح الذي حققته جهودنا بتشجيع ومساعدة من سموكم . ونتمنى ان يكون هـــذا اليوم منطلقاً للازدهار لسموكم ولدولة الكويت ولشركة نفط الكويت .

« وتعلمون سموكم ان العمل الذي حققتـه الشركة أنجز على مراحل متتالية . ففي المرحلة الأولى قام جيولوجيو الشركة بدراسة البلاد لكي يروا إذا كانت هذه الدلائل مجرد آثار لآبار سحيقة في القدم ، أو انها عميقة في الارض ولا تزال فيها كميات كبيرة من النفط . وحصلنا على الجواب بواسطة الحـافرات التي مكنت الشركة بعد أبحاث مطولة ان تتأكد من ان هنالك مخزونـاً كبيراً من النفط تحت جزء من تربة الكويت . أمـــا الآن فقد وصلنا الى المرحلة الثالثة من العمليات وهي الانتاج الفعلي ونقله الى أسواق العالم .

« وأظن ان سموكم توافقون على ان النتائج الناجحة التي حققتها جهود الشركة ومحاولاتها ليست عملاً بسيطاً لا سيما وان الجزء الأكبر من العمل قد تم في ظروف صعبة بسبب الحرب لأن صنع آلات الحفر الضرورية وغيرها من التجهيزات قـد أرجئت مراراً ، ولأن صعوبة الشحن بين أوروبا والكويت فرضت على نشاطنا عوائق جسيمة .

« ان النجاح الكبير الذي توج جهودنا لم يكن ليتحقق لولا الصبر الذي تحليتم به سموكم وصداقتكم المخلصة وتعاونكم الوثيق ولولا العمل الممتاز الذي قـام به موظفو الشركة بفضل مهاراتهم الفنية وموارد الشركة الكبيرة التي أسهمت بها الى حد كبير المصالح البريطانية والاميركية .

« ولن يكون هنالك ظل من الشك بإذن الله على ان هذه الشحنة التي نحتفل بهـا اليوم ليست سوى واحدة من شحنات كثيرة ستنقل نفط الكويت الى

أسواق العالم ، ونحن فخورون بأن شركتنا ، وهي الاداة التي اخترتموها سموكم ، قد تمكنت من تحقيق هذا النجاح والتقدم وبالتالي المساهمـــة في ازدهار دولتكم وشعبكم .

« وتعبيراً عن مشاعرنا الحارة نحوكم وعرفاننا بالجميل والصداقـة اسمحوا لي ان اقدم لسموكم هذه الهدية المتواضعة التي صنعتها أيادي حرفيين من الغرب لهذه المناسبة السعيدة » .

وهنا قدم السيد سوثويل للشيخ صندوقاً ذهبياً مرصعاً صنعته شركة لندن لصياغة الفضة والذهب ونقشت عليه عبارة تخليد للاحتفال .

ورد الشيخ على خطاب سوثويل بكلمة قال فيها :

ـ « انه ليوم سعيد هذا اليوم الذي نحتفل فيه بتصدير الشحنـة الاولى من نفط الكويت . ولا أشك في ان كل شخص من شعبنا واصدقائنا سيفرح معنـا بهذا الحدث السعيد الذي هو بحمدالله بداية لمستقبل زاهر .

« انني اقدر الجهود الجبارة التي بذلتها الشركة لإكمال هذه العمليات قبل وبعد توقف العمل اثناء الحرب . واشكر الله لمثل هذه الفرصة التي ستساعدنا على إكمال التحسينات التي نرغب في تحقيقها من أجل سعادة وتقدم دولتنا وشعبنا . وانني أخص بالذكر المساعدات الجلى التي قدمتها الشركة لنا اثناء العمليات في دولتنا ؛ واشكر حكومة صاحب الجلالة لمساعدتها في إنجاح هذه العمليات ، كما أشكر اصدقائي مديري الشركة البريطانيين والأميركيين . واقدم شكري كذلك الى سائر موظفي الشركة سواء كانوا من الخارج ام من بلادنا الذين أسدوا خدمـــات قيمة في هذا المضمار . وانني اقبل بمزيد من الشكر الهدية التذكارية التي قدمتها لي الشركة تخليداً لهذه المناسبة . وآمل ان تستمر علاقاتنا الودية بالشركة وتسودها روح الإخاء والنوايا الحسنة » .

وتلت هذا الاحتفال احتفالات اخرى جرت في المدينة تخللتهـــا رقصات الحرب وألعاب نارية وأقامت شركة نفط الكويت مأدبة عشاء للشيخ وموظفي الدولةوالاعيان والمعتمدين الأجانب، في منزل السيد ل . د . سكوت . وقد أقام

عدد من وجهاء الكويت مآدب مماثلة بهذه المناسبة . واقام نادي صغار الموظفين مأدبة عرض بعدها شريط سينمائي قدمه بادر هوايت من البصرة ، واقيمت حفلة راقصة في نادي كبـار الموظفين في مقهى تخللتها مآدب في الهواء الطلق على الطريقة العربية .. وهذه الحفلة أقيمت على شرف العمال والفنيين .

وجهة النظر اللبنانية ١٩٥٠

أجريت في بيروت في ٣١ آب سنة ١٩٥٠ حديثاً مفيداً مع أحد السياسيين اللبنانيين البارزين كنت أعرفه منذ عدة سنوات.

ولهذا السياسي آراء عنيفة . وقد بدأ النقاش بملاحظة أبديتها وهي أنه من المؤسف ان تكون العلاقات السورية – اللبنانية سيئة الى هذه الدرجة لا سيما وان ضحاياها تجار ابرياء ومسافرون يتطلعون على أعمالهم . وذكرت انـه في ٢١ آب اوقفت سيارتي أربع مرات للتفتيش على الهويات والامتعة بـين شتورا ودمشق .

واجابني منفعلاً بقوله :

– نعم انني اوافقك .. ولكن هل تعلم غلطة من هي ؟

– لا .

– اذن سأخبرك . انهـا نتيجة مؤامرات أكبر دولتين ديمقراطيتين – أو هكذا يفترض ان تكونا – في العالم وهما الولايات المتحدة وبريطانيا بـلادك . انهما تتآمران في الليل والنهار لتقسيم الشرق الاوسط بينهما أو على الأقل لإقامة مناطق نفوذ منفصلة لهما . فالولايات المتحدة مثلاً تسعى لتجعل لبنان تحت نفوذها . وبريطانيا تدفع العراق للاستيلاء على سوريـة بعلم الملك عبدالله ملك الأردن . وهذا ما يدفع المملكة العربية السعودية بتأييد من اميركا لأن تـدعم سورية فقدمت قرضاً بالدولارات للحكومة الحالية هناك وهي مصممة لأن تدق اسفيناً بين الملك عبدالله والامير عبد الاله ولي عهد العراق لتمنع نجاح خطة الحكومة البريطانية .

« واميركا تدعم اسرائيل .. كما ان بريطانيا تدعم الملك عبدالله وأصبحت مصر معادية للطرفين لاعتقادها ان هنالك محاولة مكشوفة من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا لتحطيم الجامعة العربية عن طريق زرع الشقاق بين اعضائها . والنتيجة ان الشعور المعادي للاوروبيين يزداد يوماً بعد يوم في جميع انحاء الشرق الاوسط ولا سيما ضد الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين تظنان انها تستفيدان من التفرقة بين دول الشرق الاوسط .

« والمؤسف في هذا كله ، انه في الوقت الذي لاميركا وبريطانيا فيه رجال اكفاء ومستشارون في شؤون الشرق الاوسط – رجال عاشوا فترات طويلة في هذه المناطق – فإن مشورة هؤلاء الرجال لا تطلب أو لا تؤخذ بعين الاعتبار . وهذا أمر محزن لأنه من شأنه ان يساعد روسيا السوفياتية على كسب ثقة بلدان الشرق الاوسط وخاصة الجيل الجديد فيه . وفي الحقيقة ان الاتحاد السوفياتي في مركز ارتياح ينتظر سعيداً الثمرة التي ستسقط لوحدها في فمه عند نضوجها . وللسوفيات عملاؤهم في الشرق الأوسط الذين هم على اتصال وثيق بالسفارات السوفياتية في كل مكان ويبشرون في كل لحظة ان الذئب الكبير المفترس ومصدر الشقاء في الشرق الاوسط هو الولايات المتحدة وبريطانيا التي تدور في فلكها .

وقلت لمحدثي :

– « لا بد للرئيس ترومان والمستر اتلي ان يصغيا لمستشاريهما من أهل الخبرة في شؤون الشرق الاوسط ان لم يكن اليوم فغداً .. وعندئذ تتحسن الأمور قليلاً .

– « لا .. انك مخطيء . ان مستشاري ترومان النافذين اليوم يمثلون كتلة اليهود القوية في نيويورك وهذا الشيء ينطبق على لندن ولكن الى درجة أقل . صدقني اذا قلت لك ان اليهود هم الذين يملون سياسة بلادك في الشرق الأوسط .. وها هي النتائج المحزنة . انهم يحبذون فكرة بريطانيا والولايات المتحدة في الاستيلاء على بلدان الشرق الاوسط او تقسيمه الى مناطق نفوذ لأنهم يعتقدون انهم بذلك وبذلك فقط يستطيعون تثبيت اقدام اسرائيل وتحسين حالتها

الاقتصادية الحرجة المتردية . ان اسرائيل دولة مفلسة وتحتاج الى المتاجرة مع البلدان المجاورة. كيف تظن انهم يعملون لتحقيق ذلك ؟ طبعاً باستخدام شركات النفط الكبرى في الشرق الاوسط.. في السعودية والخليج الفارسي. وهم يحاولون الآن افساد علاقات الحكومات العربيـــة في الشرق الأوسط مع شركات النفط الكبرى بكل الوسائل المتوفرة لديهم وذلك لكي يجبروا الولايات المتحدة وبريطانيا على حماية مصالحها باتخاذ سياسة أشد تجاه الدول العربية .

« وصدقني يا كولونيل ديكسون انه ليس من قبيل الصدفة ان تطالب الدول العربية في المنطقة بزيادة عائداتها من النفط تحت التهديد بأن شيئاً ما سيحدث اذا لم تنفذ هذه المطالب . وتقضي الخطة اليهودية بالضغط على شركات النفط للجوء الى حكوماتها من أجل المساعدة الدبلوماسية وغيرها في محاولة لبذر الشقاق بين هذه الشركات والدول التي تعمل فيها . اننـــا نرى السعودية والبحرين والعراق وإيران تطالب بزيادة العائدات وحذا لبنـان وسورية حذو الدول المذكورة في المطالبة بزيادة اجرة مرور النفط في أراضيها .. والدولة الاخرى التي ضمت الى القائمة هي الكويت التي بدأت بدورها تطالب بالزيادة .

هذه المحادثة المفيدة هي مثل على كيف يفكر اللبنانيون بقضية فلسطين وهم مستعدون ان يضربوا بالقانون عرض الحائط فيما يتعلق بقضية النفط الدقيقـــة وبسياسة الشرق الاوسط عامة . وهذا يظهر بصورة خاصة وثوق العلاقات بين بيروت والكويت .

وأضاف محدثي قائلاً :

— « ان فرصة بريطانيا الوحيدة هي ان ترفض السير على خطى اميركا . ان بريطانيا صديقة قديمة للعرب وتفهم واقع الدول الاسلاميـة في الشرق الأوسط اكثر من الاميركيين ، ولذلك يجب ان تتعاون مع العرب لا ان تهددهم . والاهم من ذلك يجب على شركات النفط ان تتعاون مع البلدان العربية وحكامهـا لا ان تلجأ الى حكوماتها للمساعدة فتساهم في سوء التفاهم. هذه هي غلطة شركة النفط في إيران .. وهنا سيقعون جميعهم في هذا الخطأ . واليهود يعرفون ذلك جيداً

بوسائلهم السرية التي يجيدون استخدامها ، فيعملون على إفهام الدول العربية بان انكلترا واميركا تنويان إذا اقتضى الامر السيطرة على بلادها بحجة الدفاع عن مصالحها النفطية المهددة بالخطر لأنها لا تستطيع ان تسمح لأحد بأن يهدد هذه المصالح . وهذا ما زاد في شكوك الدول العربية . لذلك يتوجب على بريطانيا ازالة هذه الشكوك من اذهان العرب . يجب ان تقول لهم : « سيّروا شؤونكم بانفسكم وسنساعدكم اذا ما طلبتم المساعدة منا » .

« ولا تنس يا كولونيل ديكسون ان السلطات السوفياتية تراقب وضع النفط في الشرق الاوسط كالقطط في هذه الايام ، وهي على استعداد لبث اية دعاية تزيد من كراهية الولايات المتحدة وبريطانيا في الشرق الأوسط . أما بالنسبة للكويت فنحن في لبنان نعرف ان الحكومة البريطانية تحاول فرض مستشار مالي على الشيخ الجديد لكي يتخلص من سكرتيره اللبناني المحبوب ، ويعين وريثاً لعرشه أحد أفراد آل الصباح الموالين للانكليز . ولكن الحكومة البريطانية عرفت مدى رعونة هذه الخطوة ويتضح ذلك من عدم اقدامها على تنفيذ خطتها الاساسية » .

عدم ارتياح في المملكة السعودية

قبل ثلاث سنوات من وفاة الملك العظيم عبدالعزيز آل سعود في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ ، كتبت ما يلي : —

« ان الذي يراقب الاشياء من جهة الكويت في الجزيرة العربية يعرف ان ابن سعود قد تخلى عن التعاليم الوهابية كوسيلة سياسية للوصول الى غاية معينة . فبعد ان ركز سلطته في الجزيرة العربية أخذ يتطلع الى تطوير علاقاته بالقوى الخارجية ، وتقوية الوسائل التي تمكنه من تشديد قبضته في الداخل . ويبدو انه عاكف على العمل لضمان عرش منيع لورثته وخلفائه في حال موته حتى يتمكنوا من اكمال ما بدأه بدون أن يواجهوا ثورات وانقسامات في المملكة .

« لقد بلغ ابن سعود من العمر عتيا بحيث انه لم يعد يقدر على السير على قدميه. وقد اعطى كثيراً من السلطات لأولاده ومستشاريهم السوريين والمصريين الذين كما يقول البدو يجيدون كتمان مجريات الامور عن حاكمهم المحبوب. وهذا هو أحد الاسباب للكره المتزايد للنظام السعودي الذي اخذ يبرز ببطء بين القبائل العربية. وبلغ هذا الشعور حداً جعل بعض زعماء الاخوان السابقين يصفونه بانه حاكم جبار – أي طاغية. انهم لا يقصدون بذلك الملك المسن بل الحكم الحاضر الذي أصبح بعد ان آل الى الجيل الجديد من آل سعود ومستشاريهم الاجانب، اكثر تركيزاً وقسوة واقتباساً عن الغرب وفقد رابطته العاطفية مع الشعب كما كان في القديم. ويقال ان هؤلاء الزعماء مشمئزون من الزيارات المتكررة التي يقوم بها أفراد العائلة المالكة الى اوروبا واميركا حيث في رأيهم يختلطون بالمسيحيين الذين يكثرون من شرب الخمر، فيكتسبون عادات سيئة وينسون واجباتهم نحو الله. والحقيقة ان الانتقال نحو الحياة العصرية هو السبب الجوهري لهذه المشاكل. فالبدو يتوقون الى عودة الحكم للملك شخصياً الذي كان في متناول الجميع بمن فيهم احقر رعاياه واكثرهم تواضعاً.

« ويقول المتتبعون للاحداث انه إذا حدث مكروه لابن سعود لا سمح الله ستنشأ مشاكل تستنزف جميع موارد السعودية. اما انا شخصياً فلست اعتقد ان ذلك سيحدث لأن أهل نجد ما زالوا في قلوبهم يفخرون بعبد العزيز آل سعود بطلهم القوي ومليكهم الشجاع بسبب مآثره العظيمة داخل الجزيرة وبسبب مواقفه المشرفة التي وقفها دائماً في وجه النفوذ الاجنبي والعدوان. انه مثل شاكا ملك الزولو القديم الذي كان الرجل الابيض يرتجف أمامه ولا يزال شعبه يفتخرون بذلك ولا ينسونه.

« وفيما عدا شعبية ابن سعود الشخصية، فان شعبه يريد سلطة أقل مركزية لانهم يخشون قدوم مدنية الرجل الأبيض التي هي في نظرهم معادية للدين ونسيان لله وعبودية حتمية. وأكثر من ذلك فهم يفضلون العودة كلياً الى النظام القبلي حيث لا سلطة الا لزعماء القبائل. ولكن أحداً من أفراد عائلة آل سعود لا

يفكر أبداً في العودة الى مثل ذلك النظام ، لأن السلطة ، كما يقول العرب ، هي اعز شيء في الدنيا على البيت السعودي والحكم بالنسبة لهم هو اكسير الحياة .

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة ان الوريث المحتمل للعرش السعودي ، الأمير سعود ، الذي آلت اليه معظم السلطات عندما مرض والده ، بدأ يتحسس تفكير شعبه فقرر التشدد فيما يتعلق بالدين وبالطقوس الدينية . فقرر مثلاً منع استيراد المشروبات الكحولية التي كان يحصل عليها موظفو شركة النفط . واعتبر حصول اي بدوي من السكان على زجاجة من المشروبات الروحية جريمة كبرى يلقى مرتكبها أشد العقاب .

ولكن هل هذا في وقته ؟

تأثير الغرب .. ١٩٥٣

وضع صديقي الدكتور هارولد ستورم أحد أعضاء الإرسالية الأميركية في الخليج الفارسي الذي يدير حالياً مستشفى في الهفوف ، كتاباً بعنوان « الجزيرة العربية .. الى اين ؟ » . واذ اكتب هذا التعليق عن موضوع مهم وهو التأثير الغربي في الجزيرة العربية ، تجرأت واقتبست من مجمل الوضع كما وصفه الدكتور ستورم بمهارة . واذ أستخدم أفكاراً ليست لي ، فانما افعل ذلك معترفاً بفضل الدكتور ستورم وناشري كتابه .

قلما توجد أماكن في العالم اليوم يسير فيها القديم والحديث جنباً الى جنب كما هي الحال في الجزيرة العربية . ففي أعماق الصحراء يرى المرء نموذجاً للحياة كما كانت في زمن ابراهيم الخليل بكل تفاصيلها ووقائعها . وما زال البدو الرحل على الصورة التي رسمت في التوراة وتفكير البدوي ايضاً ما زال كما كان في زمن أيوب . اما عناده واستقلاله واعتزازه وكفايته الذاتية فقد جسّمها الاسلام في حين تقولبت حياته الدينية في نظام جامد من التقاليد والشكليات .

لقد غير التأثير الغربي وجه عدد من المدن الساحلية التي يأتي إليها البدوي الجائع بحثاً عن الطعام والمؤن . وهو يتطلع الى التغييرات حوله باحتقار ويعود

الى صحرائه وهو أشد اقتناعاً بهـــا وبالحياة فيها . لكن رحى الحضارة تدور بدون توقف ولا يستطيع أبناء الصحراء الهروب منها .

وربمـا ليس هنالك عامل واحد غيّر تفكير العربي في الصحراء كالسيارة . فالحج إلى مكة الذي كان يستغرق أربعين يوماً على ظهور الجمال أصبح يستغرق ستة أيام فقط . وعندما يسافر حـاكم السعودية من عاصمته الداخلية الرياض الى مكة يركب وحاشيته أحدث الطائرات وأفخمها ويضم موكبه بين مايتي سيارة وخمسماية سيارة يسوقها رجال من الكويت وباكستان ومصر والصومال وسورية وحتى من اندونيسيا . وليس من الصعب التحقق من التأثير الكبير لكل هـذه المظاهر لأنه ليست السيارة فقط هي التي تحدث التغيير بـل السائق أيضاً الذي يجلب معه أفكاراً جديدة وعادات وتقاليد جديدة . ففي الرياض مثلاً يجد المرء السائقين يعيشون في مجتمع خاص خارج أسوار المدينة . وبينما لا تسترعي هـذه الفئة انتباه او تفكير أفراد الطبقة الحاكمة ورجـال الدين ، إلا ان الزائرين يتدفقون عليها من المدينة والصحراء . وبذلك تتسرب الأفكار ، الجيدة منها او الرديئة ، والتي تحمل معهـــا بعض ما في الكويت والقاهرة ودمشق وعدن وكراتشي ، الى البدو الذين يتقبلونها مـــع مرور الأيام لبساطتهم وسذاجة تفكيرهم .

إن سهولة التنقلات حملت معهـا كماليات جعلت وسائل الراحـــة متوفرة ولكن لهذا العامل تأثير الخلاقي . فالشيخ العربي لم يعد يريد ركوب الخيل لأنه أصبح يفضل قيادة السيارات . والصيد بالباز الذي كان في يوم من الأيام الرياضة العربية الأساسية ، تحول الى مذابح لآلاف الحبارى سنوياً لأن ممارسته أصبحت تتم بواسطة السيارات التي أدخلت أيضاً في صيد الغزلان التي أوشكت ، لهـــذا السبب ، على الانقراض . فقد ضاع الإحساس القديم بالفروسية والرياضة .

والتأثير الملحوظ للسيارة هو التأثير على نفسية العربي . فقـــد بلغ التنافس أشده على أفضل السيارات وأغلاها ثمناً ، بين الأمراء الأثرياء وتجـار المدينة . وعدم القدرة على شراء السيارات يولد مرارة وعـدم ارتياح بين أفراد الطبقات

الوسطى والسفلى . ومن جهة ثانية ليست كل التأثيرات سيئة . فقــد قصرت المسافات وتقلص استقلال القبائل . وأصبحت الطرقــات تخترق المراعي التي كانت فيما مضى صعبة المسالك ، كما أصبح نقل المؤن الى المخيمات النائيــة سهلاً وسريعاً . وبذلك أصبح الاتصال بين الحاكم والشعب وثيقاً .

ولكن التأثير الأشد للسيارة كان على سيدات المدن اللواتي أصبح بإمكانهن زيارة أماكن لم يكن بإمكانهن اختراقها من قبــل ، وازداد تبادل الزيارات بين عائلات الطبقة الواحدة فأصبح النساء يسمعن أكثر ويرين اكثر . وربما أصبحت السيارة فيما بعد عاملاً في التخلص من الحجاب مع ان ذلك صعب جداً جــداً فيما يتعلق بالجزيرة العربية .

ومع ان النساء في الجزيرة العربيــة لم يتحررن بأي معنى حقيقي للكلمة إلا ان تحسينات كثيرة قد طرأت على حياتهن الجافة . فالراديو ينقلهن الى عالم من الموسيقى والناس والأماكن والأحداث لم تكن أمهاتهن قد سمعن بها من قبل او تحسسن وجودها . لقد وصلت السيارة وآلة الخياطة الى أقصى المــدن والقرى العربيــة . وبينما كانت أعداد كبيرة من العبدات يقضين ساعات وأيام في صنع ملابس أهل البيت في السابق أصبح هذا العمل يستغرق ساعات قليلة ، وقد زاد اهتمام هؤلاء النسوة بالعطور والمساحيق والصابون وأدوات التجميل الأخرى .

وساعد الطب الحديث المرأة العربية على تخفيف آلامهــا سواء في الولادة او في الأمراض العادية . ففي السابق كانت تقوم بهذه المهمة نساء جاهلات وقابلات لا يعرفن للنظافة معنى . امــا اليوم فيقف على علاج المرضى اطباء بريطانيون واميركيون وممرضات من الارساليات وغيرها مما خلق رغبة في الخضوع لمنطق العلم الحديث . ويتزايد الاهتمام كذلك بالتغذية والطعام والعناية بالاطفال . وكما هو متوقع ، فقد احدث ذلك نزاعات خطيرة في كثير من البيوتات العربيــة . فالجيل الجديد من النساء يرغب في اتباع الافكار الحديثة في التغذية والنظافــة للاطفال فيصطدمن بمعارضة الجيل القديم المتحجر .

ونظراً لتبني ابن سعود لجهاز لاسلكي في طول بــلاده وعرضها ، فقد اصبح

هنالك اكثر من عشر محطات في المراكز الكبرى وعدد مماثل من المحطات المتنقلة. وهذه الأخيرة يستخدمها الحاكم الحالي ووريث العرش واشقاؤه وامير الحجاز وكبار المسؤولين الذين مهما ابتعدوا في الصحراء يظلون على اتصال دائم ومباشر مع العاصمة وانحاء أخرى من البلاد . وهكذا فانه يمكن اخماد اية انتفاضة قبل ان تبدأ .

وتتصل اجزاء أخرى من الجزيرة ببعضها بمحطات مختلفة للبرق . ولذلك فان اي تبدل بالاسعار في اسواق بومباي يلاحظ في اليوم ذاته في اسواق البحرين ومسقط والكويت وجدة والرياض . والاذاعات التي تبث برامج باللغة العربية من لندن وبيروت والأردن وبغداد وانقره وموسكو ، تجعل الناس على اتصال دائم بالأحداث العالمية . ومن جملة الجهود الرامية الى توحيد التفكير الاسلامي ، تبث دعايات اسلامية متنوعة . واذا ما حدث نزاع بين العرب واليهود في فلسطين ، فان العرب يسمعون به ويناقشونه من وجهة نظرهم . وفي الكويت وحدها اليوم هنالك اكثر من ثمانماية جهاز استقبال. كذلك فان الصحف اللبنانية والمصرية والعراقية والهندية تفسر الاحداث الدولية وتنقلها الى كل جزء من الجزيرة والعالم العربي . وكثيراً ما توزع منشورات معادية للمسيحيين الامر الذي يعيق عمل الارساليات بسبب نقل الاخبار على غير حقيقتها . فعندما عزل الفرنسيون سلطان المغرب ونفوه الى جزيرة كورسيكا أحدث ذلك مناقشات حامية في أسواق الكويت ومقاهيها بعد يومين فقط من الحادث .

ان العربي في الصحراء اليوم الذي يلبس على طريقة اجداده ، ويعيش كآبائه ويفكر بنفس مقاييس الماضي ، يجد نفسه مضطراً لمواجهة التقدم والحياة العصرية وقبول تأثيرها على حياته .

ان اكتشاف النفط في البحرين مؤخراً واكتشاف مخزون جديد منه في السعودية والكويت وقطر حمل معه طرقاً عصرية وعادات جديدة وتأثير الحضارة الغربية الى جميع انحاء مناطق الخليج الفارسي . فالدولة العربية الصغيرة ، الكويت ، تحولت من مدينة صغيرة مجهولة الى زهرة زاهية على الخليج

بفضل النفط . وبالرغم من ان بريطانيا اتخذت من البحرين قاعدة بحرية لها في الخليج ، وان تلك الجزيرة هي مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج .

وقد برز عامل آخر اشد خطورة يمكن تسميته المادية الحديثة التي يصعب تقدير نتائجها. ففي الماضي اصطدم الاسلام بديانات عديدة لكنه لم ينهزم أمامها اما اليوم فيبدو انه سينحل وينتهي في موطنه الأصلي . ومع كل سيارة وصحيفة تدخل البلاد تدخل معها المادية العلمية و «عدم الإيمان» الغربي والوثنية الحديثة التي هي عدو كل معتقد ديني . ولا يستطيع أحد يتكهن بمدى امتداد هذه الوثنية الجديدة ولكن مما لا شك انها آتية كالطوفان . كان تأثيرها الى الأمس القريب محصوراً في فئة قليلة من الوسط التجاري ولكنه امتد اليوم الى أقصى أقاصي الصحراء وتزداد قوته تدريجياً . ولا غرابة اذا كان الذين يخافون الله من العرب والذين يشتهرون بسمعتهم الجلية قد بدأوا يقلقون ويخافون .

ان المادية التي اشاعها العلم الحديث قد اضعفت الاسلام بنفس الطريقة التي عملت نظرية « الخلاص بالمعرفة » على لغم المسيحية في القرون الأولى . ويدعي الماديون انهم ليسوا اعداء الدين بل حلفاءه تماماً كما كان يدعي «العارفون» القدامى . وفي هذا الادعاء تكمن حقيقة خطرة . ان التقدم المادي هو ثروة للدين ، اي دين ، ولكن عندما تصبح حيازة الممتلكات الدنيوية هدف الانسان الأوحد ، اي القوة الدافعة لحياته ، بدل التفاني في سبيل الحق والصلاح ، يتأثر الدين عندئذ . فالازدهار المادي الذي ليس صالحاً او شريراً بحد ذاته ، يشبه النار التي تتوقف فائدتها او اضرارها على طريقة استخدامها .. هذا الازدهار كان من شأنه ان يضعف الاسلام لا ان يعمل على تقويته .

ومع امتداد المادية والحضارة الغربية ، تسربت الى حياة العربي روح القومية الموجودة في أماكن اخرى من العالم . ولكن انتشار هذه الروح لم يكن متطرفاً كما هي الحال في تركيا او مصر ، بل وجدت تعبيراً شديداً عن نفسها في ولاء العربي لعنصره . وقد ساهمت قضية فلسطين في تقوية وتركيز هذا الولاء ، كما ان الخطط الحديثة والدعايات الواسعة للوحدة العربية ساعدت على تدعيم

ذلك الولاء .

وفي سنة ١٩٣٤ كما رأينا آنفا ، قام الملك ابن سعود بعد نزاع حاسم قصير الأمد باغتصاب منطقة عسير ثم عقد معاهدة صداقة اسلامية مع الامام يحيى امام اليمن . وكانت هذه المعاهدة بشيراً لمعاهدات وتفاهم اوسع بين الدول الاسلامية . فبعد توقيع هذه المعاهدة مباشرة بدأت المفاوضات لإنشاء حلف رباعي بين تركيا وايران والعراق وافغانستان . وفي الوقت نفسه قرر الإمام يحيى الانضمام الى معاهدة الصداقة والتحالف التي تم توقيعها في الثاني من نيسان سنة ١٩٣٦ بين حكومتي العراق والمملكة العربية السعودية . وقد عقدت معاهدة ثانية بين السعودية واليمن في الثالث من تشرين الثاني عام ١٩٣٧. وبذلك اصبحت أكبر مملكتين عربيتين مستقلتين في نفس الخط مع تركيا وايران والعراق وافغانستان الذين وقعوا المعاهدة فيما بينهم سنة ١٩٣٧ . ولتحقيق تفاهم أفضل مع مصر انهى الملك ابن سعود الخلاف الذي كان قد مضي عليه عشر سنوات مع الحكومة المصرية التي وافقت ان تستأنف ارسال الكسوة السنوية الى مكة .

ومن الصعب التكهن بالنتائج البعيدة المدى لهذه المعاهدات السياسية . وانه لأمر بالغ الاهمية بالنسبة لأصدقاء العرب ان يروا هذا التقارب والتفاهم بين الدول الاسلامية الأمر الذي قد ينتج عنه تحالف حقيقي بين تلك الدول . ولكنه من المستحيل على المرء ان يتكهن ما اذا كان ذلك سيؤدي الى احياء الحضارة الاسلامية والحماس الديني او انه سينتج عنه انفصال السلطة السياسية عن الدين .

ان المصالح الأجنبية بريطانية في معظمها ولكن دولاً أخرى بدأت تهتم بالشؤون العربية . ويصح هذا القول بصورة خاصة على الولايات المتحدة الاميركية التي تحاول الحصول على نفوذ سياسي في الجزيرة العربية في اعقاب توسع شركة النفط العربية ــ الاميركية (ارامكو) في الظهران . وتجاوباً مع الطلبات المتزايدة بدأت الاذاعة البريطانية منذ سنوات في بث برامج باللغة العربية . واخذت السفن الحربية الاميركية مؤخراً تزور الخليج الفارسي منافسة بذلك

صديقاتها البريطانيات !

وتتتبع الجزيرة العربية باهتمام في هذه الايام مجرى الاحداث في اوروبا الأمر الذي يدفع الناس في كل مكان لاصدار أحكام اكثر دقة على الشؤون الاوروبية . وليس متوقعاً ان تلعب الجزيرة العربيـــة تحت الحكم الاسلامي دوراً مهماً في الشؤون الدولية دفعة واحدة مع انها ستبقى محور السياسة الاسلامية ومركز العالم الديني في الاسلام .

ان الأحداث الاجتماعيـــة والسياسية التي وقعت في مصر وباكستان وشمال افريقيا ولبنان وايران بدأت تؤثر في الجزيرة العربية . وهذه الحركات الجديدة لن تفشل في النهاية في فرض تأثير متزايد على مجرى الاحداث . فقد بـــدأت القومية تمسك بالزمام وذلك من قبيل التحدي للغرب وخاصة بريطانيا . وقـد قال لي عربي بارز من الكويت في ٢٨ تشرين الأول ١٩٥٣ ما يلي :

ــ « انكم لا تستطيعون الانحاء باللائمة على العرب لأنهم يريدون تقليد الغرب وادخال بعض الاساليب الغربية كالنقابات لحماية حقوق عمال شركات النفط ، في الوقت الذي نتعلم هذه الأشياء يومياً عن طريق الاذاعات الصادرة عن بريطانيا واميركا . فاذا سمعنا ان سائقي السيارات في لندن قد اعلنوا الاضراب للحصول على زيادة في اجورهم .. فلماذا لا يحق لنا ان نفعل نفس الشيء » ؟

ان مصدر الخطر في دولة كالكويت هـو بـــدون شك تدفق الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين والايرانيين والمصريين وغيرهم من الأجانب بشكل لم يسبق له مثيل ولم يكن يحلم به أحد . وهذا الشيء ما زال قائماً لاسيما وان عملية البناء والانشاء تسير على قدم وساق . وسواء كان هؤلاء من المشردين الفلسطينيين ، او من العمال اللبنانيين المهرة ، او من العمال العاديين القادمين من العراق وايران ، او صحافيين من الاقطار العربية ، او تجـاراً من بيروت ، فانهم جميعهم يغرسون في ذهن الكويتي الشعار القائل « بلاد العرب للعرب والكويت للكويتيين » .

ويتقرب هؤلاء من الكويتيين بطريقة ذكية على أساس ان الكويت امـــارة عربية مستقلة فلماذا يكون فيها مثل هذا النفوذ السياسي للبريطانيين .. ولماذا

يكون فيها وكيل سياسي بريطاني ؟ ويقولون إن الاوضاع يجب ان تصحح ويجب ان يزول نفوذ الوكيل السياسي .. والقادرون على هذا التصحيح هم الكويتيون أنفسهم . وينتقدون كذلك الامتيازات البريطانية ويدعون الى التخلص منها والى جعل الوكيل السياسي قنصلاً عادياً أو وزيراً مفوضاً لدى حاكم الكويت . وهم ينصحون أفراد الجيل الجديد من آل الصباح ان يعملوا على اقامة وضع شبيه بالسعودية بقولهم : « ما أحسن شركة أرامكو في الظهران .. وما أحسن معاملة الاميركيين للعرب هناك وما أروع علاقاتهم بالحكومة السعودية » . ومن خلال هذه الاخطار يحذر بالاميركيين والبريطانيين على السواء حيثما وجدوا ، ان يتذكروا أن العرب الذين لا يكنون الود لهم والذين يحملون آراء متطرفة ، يهتمون بافساد العلاقات بينهم .. فقد تعلموا اصول اللعبة ايضاً !

وهذه الدعايات الشريرة تقلق بال الكويتيين القدامى الذين يحبون البريطانيين ، ولكنها تجد وقعاً حسناً في نفوس الشبان الكويتيين المتطرفين الذين ليس أحب لديهم من ان يروا الكويت تحت سيطرة العراق السياسية بحجة ان العراق دولة مسلمة تظل افضل بكثير من بريطانيا المسيحية . ولا يخفى ان العراق يشجع هذه الدعايات بشتى الطرق ولاسيما عن طريق آلاف العراقيين العاملين في الكويت .

وآخر الطرق العراقية في مغازلة الكويتيين هي التلويح لهم بالفوائد الجمة التي يجنونها من جر مياه شط العرب الى الكويت بواسطة أنبوب قطره ٣٢ بوصة ، الأمر الذي من شأنه ان يحول الأراضي القاحلة بجوار مدينة الكويت والجهراء الى حدائق غناء ، ويضاعف كميات الشرب المتوفرة في الكويت والتي هي بأمس الحاجة لها . وهم يعرفون انه إذا تم ذلك فإن الفلاحين الذين سيتولون زراعة الأرض المستصلحة سيأتون من العراق وبذلك يسيطرون على جزء كبير من الأراضي الكويتية فيطلبون بالتالي حماية دولتهم إذا نشأ أي نزاع بينهم وبين حكومة الكويت حتى ولو كان مفتعلاً . والشبان المتطرفون في الكويت – وهم ليسوا قلة – يعرفون ذلك حق المعرفة . فهم لا يؤيدون هذه الخطة فحسب بل يدعون لها ليل نهار ويعبرون عن هذه الرغبة في الصحف العراقية واللبنانية .

والمؤسف في ذلك كله ، أنـــه في الوقت الذي يتزايد فيه شعور الشبان المتطرفين القوميين ضد الأجانب وضد البريطانيين بصورة خاصة ، فإن عرب الصحراء القدامى وكبار تجار المدينة النافذين الذين مـا زالوا يحبون ويحترمون الانكليز ، بدأوا يتحولون ببطء ضد الغربيين لأسباب تختلف تمامـاً . فهؤلاء ، وهم مؤمنون متدينون ، يرون في التأثير الغربي بماديته الرهيبـــة خطراً يهـدد عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم ودياناتهم بصورة خاصة . لقد بدأوا يرون أولادهم يشبون على العادات السيئة فيشربون الخمر ، ولا يذهبون الى الصلاة ، وينكرون الدين وأخلاقيته ، ويرفضون طاعة والديهم . ولذلك يقولون بينهم وبـين أنفسهم ان مرد ذلك الى الغرب وأمواله وعاداته غير الدينية .

وبحـافز من الدفاع عن النفس أخذ الجيل القديم المحافظ يتحول ضد الغرب فأطلقوا صرخة متعصبة جديدة تقول: ان الدين في خطر . ولأنهم يظنون أن الغرب أصبح يسيطر على بلادهم وعلى أولادهم وبناتهم فإن هـذه الصرخة صارت اليوم « ما لنا وللغربيين .. انهم لم يعودوا كما عرفناهم من قبل » . وهكذا نجـد أن العربي المرح الذي ينتمي الى المدرسة القديمة أصبح ضـــد الأجنبي ، ضد البريطانيين والأمريكيين ، على الرغم من أن الأسباب الموجبـة لهذا الشعور ليست مماثلة للأسباب الدافعة لأبنا الجيل الجديد .

ما هو الجواب لهذا الوضع المؤسف ؟ انني أتجرأ لأقول انه الآتي :

فليتخلَّ الغرب عـــن فرض مفاهيمه الحضارية كتحسين مستوى المعيشة ، والأفكار التربويـة الحديثة ، ورفع المستوى ، والأطعمة الممتـــازة والملابس الفخمة ... الخ . وليبشر بالتطور والبنـــاء على صخر بدل البناء على الرمل . فليبشر بأن التقدم الذي لا يمكن وقفه يجب أن يأتي على مهل وليس كالنـــار الأكولة كجهنم . فليبشر الغرب بفضائل بناء الأخلاق ومبادىء الدين والايمـان بالله واحد خالق الكل .. وليبشر أيضاً بعالمية قدسية الوصايا العشر .

يتوجب على الغرب وعلى كل الرجال ذوي النوايا الحسنة ان يحاربوا الشرور القادمة مع المدنية ... ويعددوا فضائل الأشياء الحسنة القادمة من الغرب .. لأن

الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية

جانب من المأدبة التي اقامتها شركة نفط الكويت في الاحمدي تكريماً للملك سعود

. مدير شركة نفط الكويت المستر سوتويل لدى وصوله الى الكويت من لندن

« ماك » جيمس ماكفرسون مؤسس ارامكو

الشرور القادمة مع التقدم كالمشروبات الروحية والسينما وغيرها تزيد في عددها على النواحي الصالحة .

تقدم شركة نفط الكويت ١٩٥٣

> هذا المقال ملخص لمقال بقلم الآنسة مارغريت كلارك نشر في صحيفة « بتروليوم تايمز » بتاريخ ٣٠ تشرين الأول ١٩٥٣ وهو عرض رائع لتقدم شركة نفط الكويت منذ استئناف عملياتها بعد الحرب العالمية الثانية .

في حزيران سنة ١٩٤٦ صدر اول برميل من نفط الكويت . وقد بلغ الانتاج الاجمالي من خزان النفط العجيب القائم تحت رمال الكويت الملتهبة حتى أوائل هذا الشهر ألف مليون برميل . الف مليون برميل في أقل من ثماني سنوات رقم قياسي يعتبر من أهم المنجزات الصناعية في العصر الحديث لم يسبق لها مثيل في تاريخ حقول النفط .

ولم يسبق ان طورت حقول للنفط بمثل هذه السرعة . والنجاح الذي يشهد عليه هذا الرقم القياسي سيظل مثلاً على التعاون الانكلو – الاميركي في ارقى مستوياته . وحتى بلوغ هذا الرقم لم يكن هنالك سوى ثمانية بلدان سجلت انتاجاً اجمالياً يعادل الف مليون برميل من النفط الخام . وهذه البلدان هي : الولايات المتحدة الاميركية، المكسيك ، فنزويلا ، رومانيا، الاتحاد السوفياتي، ايران ، المملكة العربية السعودية ، واندونيسيا . والآن اصبحت الكويت وهي أصغر دولة في العالم ، تحتل مكانها بين جبابرة النفط . وقد حققت هذا النصر في وقت أقصر من الوقت الذي لزم لسابقيها الثمانية .

ان شركة نفط الكويت التي تملك امتيازاً يشمل حقوق الاستكشاف والاستثمار في جميع الاراضي الكويتية ، مع انها مسجلة بانها شركة بريطانية، تملكها بالتساوي شركة الخليج وشركة دارسي (الشركة الانكلو – إيرانية)* .

---

* – المدير العام لشركة نفط الكويت هو المستر ل . ت . جوردان من تكساس . وهو يحظى بحب واحترام وتقدير جميع العرب في الكويت من الحاكم حتى اصغر بدوي في الصحراء . وهم يصفونه بانه اكثر الناس استقامة في البلاد .

وقد منح الامتياز سنة ١٩٣٤ ولمدة خمس وسبعين سنة . وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥١ وقعت اتفاقية جديدة بين الشركة وحاكم الكويت . وتقضي بان تخضع الشركة لضريبة دخل حسبت بشكل اصبحت الارباح تقسم بالتساوي بين الشركة والحاكم. وقضى التعديل ايضاً بان تعتبر مدة الامتياز وهي خمس وسبعون سنة من تاريخ الاتفاقية الجديدة .

ويمكن القول ان عمليات الانتاج بدأت في أول حزيران سنة ١٩٤٦ عندما توجه الشيخ أحمد الجابر الصباح الى ميناء الاحمدي وأدار الصمام لتعبئة اول ناقلة « بريتيش فوزيليه » – بشحنة من النفط الخام الى غرانجموث – وهذا دليل للمستقبل لأن بريطانيا هي المستهلك الرئيسي لنفط الكويت منذ ذلك الوقت .

وقد تمت العمليات في وجه صعوبات عديدة نشأ معظمها من واقع ان المنطقة بعيدة عن النشاط الصناعي أسهم مناخها في خلق تعقيدات غير اعتيادية . وقبل اكتشاف النفط في بلادهم التي تبلغ مساحتها ٦٠٠٠ ميل مربع على رأس الخليج الفارسي ، كان الكويتيون يحصلون على معيشتهم من الصيد والتجارة وبناء السفن . ولذلك لم تكن هنالك تقاليد صناعية بالمعنى الغربي يمكن ان تقوم عليها صناعة جديدة . فلم تكن هنالك ايد عاملة ماهرة ولا مواد اولية ولا مواصلات . وبالرغم من تخطي هذه المصاعب فانه لم تكن هنالك اسواق ملائمة لامتصاص النفط . ان الشمس والرمال عدوان منيعان في بلاد لا ماء فيها ولا يزيد هطول الامطار فيها عن خمس بوصات في السنة وتبلغ درجة الحرارة في الظل بين ١١٠ درجات فارنهايت و ١٢٠ درجة وحتى ١٢٨ درجة . هذه الاحوال الصعبة التي عمل الرجال وعاشوا فيها لا سيا في المراحل الاولى تجعل هذا النجاح خارقاً رائعاً .

وبموجب برنامج لتنمية موارد البلاد النفطية اكمل حتى الآن حفر ١٥٣ بئراً. وهنالك ثلاث آبار على وشك الانتهاء . ان الطبقات الحاملة للنفط في الكويت كلية متوسطة العمر . وهنالك اربع طبقات رملية النوع ثلاث منها واضحة المعالم . والعمق الأدنى الى قمة الطبقة الأولى يبلغ ٣٥٤٥ قدماً ، ويبلغ العمق

الأقصى الى الطبقة الرابعة الحاملة للنفط ٤٧٧٢ قدماً . وأغلب الآبار في حقل الكويت ذات انتاج مزدوج . ان الطبقتين الثـالثة والرابعة هما أكبر الطبقات انتـاجاً وتحتوي الطبعة الثالثة على النسبة الأكبر من الاحتياطي . ويتراوح الانتاج الفردي بين ٨٠٠ برميـل يومياً للآبار في الطبقة الأولى وبـين ٦٠٠٠ الى ٩٠٠٠ برميل يومياً للآبار في الطبقة الثـالثة . انه انتـاج عظيم للبئر الواحـدة اذا ما قيس بالحقول القديمة العهد بالإنتاج وخاصة تلك الموجودة في اميركا الشمالية .

ومع انه تأكد وجود النفط في الكويت ، وان آبار الكويت هي من أغنى خزانات النفط في العالم ، وبالرغم من انه لا توجد صعوبات في نقله من الآبار الى الشاطىء الذي يبعد ١٤ الى ٢٠ ميلاً فقط ، ولكن الواقع شيء آخر . ان كل قطعة من الآليات التي استخدمت في كل مرحـلة من مراحل التنقيب والنقـل والتعبئة احضرت من بريطانيا أو من اميركا على بعـد آلاف الأميال . ان مياه الخليج الفارسي المجاورة ضحلة على مسافة طويلة من الشاطىء وليس هنالك مدخل او خليج صغير يحمي السفن من الرياح الشديدة التي تهب هناك . وحتى في خليج الكويت الى الشمال تضطر السفن الى القاء مراسيها على مسافة أميال من الشاطىء. ولذلك كان من الضروري اعادة نقل التجهيزات بواسطة سفن صغـيرة الى الشاطىء ثم عبر الصحراء الى مواقع العمليات . وفي كل مرحـلة كان هنالك احتمال تحطم تلك المعدات، وفي الواقع كانت هذه المشكلة في السنوات الأولى من أهم المشاكل الرئيسية . ومع ذلـك ازدادت كمية التجهـيزات المستوردة نظراً لاتساع الاعمال .

وفي شهر واحد ، شباط سـنة ١٩٤٨ ، انزلت على الشاطىء بهذه الطريقة معدات بلغ وزنها ٢٥ الف طن . وقد بلغ وزن المعدات المستوردة تلك السنة ١٩٠ الف طن وهو رقم قياسي . هذا بالطبع كان احدى المصاعب التي توجب التغلب عليها قبل استمرار العمل وتنميته . وبالاضافة الى ذلك كانت هنالـك مشكلة تدريب العمال المحليين على الطرق الغريبة في العمـل .. وهذه المشكلة

اقتضت احضار فنيين من الخارج مع مستلزمات عملهم ومعيشتهم في الصحراء . ان الحقائق والارقام الواردة هنا يجب ان لا تحجب ضخامة هذا العمل الجبار .

يجري النفط من الآبار الى تسعة مراكز للتجمع ثم يضخ الى الخزانات في الاحمدي القائمة على سلسلة مرتفعات على بعد خمسة اميال من الشاطىء . وهذه الخزانات تتسع لاكثر من اربعة ملايين برميل ومنها ينحدر النفط في ستة أنابيب قطر الواحد منها ٢٢/٣٠ بوصة ، الى الميناء والمصفاة في ميناء الاحمدي . وهنالك انبوبان قيد البناء احدهما قطره ٣٤ بوصة ويعتقد انه اضخم انبوب للنفط في العالم .

البلدان التي أنتجت ألف مليون برميل من النفط الخام مع تاريخ بلوغ هذا الرقم . هذه الإحصاءات مأخوذة من دائرة المناجم الأميركية .

الكويت	١٩٤٦ – ١٩٥٣	٨ سنوات
المملكة العربية السعودية	١٩٣٦ – ١٩٥١	١٦ سنة
فنزويلا	١٩١٧ – ١٩٣٤	١٨ سنة
المكسيك	١٩٠١ – ١٩٢٣	٢٣ سنة
إيران	١٩١٣ – ١٩٤٠	٢٨ سنة
الولايات المتحدة	١٨٥٩ – ١٩٠٠	٤٢ سنة
روسيا	١٨٦٣ – ١٩٠٥	٤٣ سنة
اندونيسيا	١٨٩٣ – ١٩٤١	٤٩ سنة
رومانيا	١٨٥٧ – ١٩٤٣	٨٧ سنة .

وقد جعلت هذه النتائج الباهرة من الممكن ارتفاع معدل الإنتاج كما يبدو في اللائحة أدناه :

السنة	عدد البراميل
١٩٤٦ (السبعة أشهر الأخيرة فقط)	٥,٩٢٧,٩٧٦
١٩٤٧	١٦,٢٢٧,٩٠٦
١٩٤٨	٤٦,٥٤٦,٧٩٥

١٩٤٩	٨٩,٩٣٠,٤٤٤
١٩٥٠	١٢٥,٧٢٢,٣٩٦
١٩٥١	٢٠٤,٩٠٩,٦٦٢
١٩٥٢	٢٧٣,٤٣٢,٨٩٥
١٩٥٣ (الأشهر الثمانية الأولى فقط)	٢٠٦,٠٩٥,١٩٢

وخلال الأشهر الستة الأولى من هذه السنة أنتجت الكويت ١٥٢,٠٤٩,٣٩١ برميلاً من النفط فتكون بذلك قد احتلت المرتبة الثالثة بين الدول المنتجة بعد الولايات المتحدة وفنزويلا .

ويتضح ان الوصول الى هذه القدرة في وقت قصير كهذا لم يكن ممكناً لولا وجود نظام دقيق للنقل والتخزين والشحن منذ البداية . وقد اتخذت جميع الاحتياطات للتأكيد بأن سير هذه الترتيبات يجب ان يتوسع بسرعة الانتاج .

ففي مطلع سنة ١٩٤٦ مد أول أنبوب من عدة أنابيب قطرها ١٢ بوصة تحت سطح البحر . وبالاضافة الى ذلك وصل هذا الأنبوب بخرطوم لتعبئة الناقلات بسرعة . وبين سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٤٩ مدت عشرة أنابيب مماثلة اتصل كل اثنين منها بمرسى خاص بشحن النفط . وكان عدد هذه المراسي المستخدمة في ذلك الوقت خمسة . وفي نهاية سنة ١٩٤٩ أنشىء أكبر رصيف لناقلات النفط في العالم في ميناء الأحمدي ويمتد هذا الرصيف داخل البحر ٤١٠٠ قدم وعليه طريق عرضه ٢٤ قدماً صمم بشكل يستطيع معه حمل أثقل سيارات الشحن بالإضافة الى ممر للأنابيب يضم ثمانية خطوط للنفط الخام قطر الواحد منها ٢٤ بوصة ، وعدد آخر من الأنابيب الصغيرة تحمل الوقود والماء للسفن والهواء المضغوط للرافعات .

إن القسم الشمالي من الرصيف الذي يبلغ طوله ٢٨٠٠ قدم وعرضه ١٠٥ أقدام، فيه ستة مراسي يمكن تحميل الناقلات فيها بسرعة ، اما الناحية الجنوبية التي يبلغ طولها ١٠٥٠ قدماً وعرضها ١٠٠ قدم فيقوم بالخدمات لمرسيين كانا يستخدمان أصلاً لتفريغ المعدات والتجهيزات ، ولكنهما يستخدمان حالياً

لتحميل النفط . ويمكن للسفن على هــذا الرصيف ان تحمل بمعدل مليون برميل وله قدرة على العمل في الليل والنهار بصورة متواصلة .

وبالنظر الى هذه التسهيلات المستخدمة فقد نشطت حركة الناقلات وزادت على الوجه التالي :

الســنة	عدد الناقلات التي حملت النفط من الكويت
١٩٤٦	٦١
١٩٤٧	١٦٨
١٩٤٨	٤٣٦
١٩٤٩	٨٠٣
١٩٥٠	٩٩٥
١٩٥١	١٧٣٥
١٩٥٢	٢٢٨٠
١٩٥٣ (الاشهر التسعة الاولى)	١٨١٣

وسيصبح من الممكن استقبال مزيــد من الناقلات في السنة القادمة لأن التسهيلات والخدمات في قطاع تحميل النفط تتوسع باستمرار . وهنالـك ثلاثة مراس جديدة قيد الانشاء يتصل كل منها بالشاطىء بانبوب للنفط الخام قطره ٢٤ بوصة .

ان سعة مصفاة ميناء الاحمدي تبلغ ٣٠ ألف برميل يومياً . وفي سنة ١٩٥٢ كانت تكفي وحدها لـسد حاجات السوق المحلية الى الوقود والزيوت ومشتقات النفط الاخرى بما في ذلـك احتياجات الشركة والناقلات والسفن القادمــة الى الكويت . وقد اقيم بالقرب من المصفاة معمل لصنع الاسفلت بـــدأ الانتاج في أوائل هذه السنة . وهذا المعمل ينتج من ٢٥ الى ٣٠ طناً من الاسفلت يوميـــاً تستخدمها الدولة في تعبيد الطرقات .

وأنشأت الشركة في ميناء الاحمدي محطة لتوليد الطاقة الكهربائية قوتهـــا ٢٢,٥٠٠ كيلواط ، ومعملاً لتكرير مياه البحر سعته ٦٠٠ الف غالون يومياً ،

ومحطات للضخ، ومستودعات تخزين، وجهاز ضبط كهربائي يضمن تدفق النفط الى المصفاة والى منشآت التحميل في الميناء . وقد ادخلت على حقل العمليات اجهزة اوتوماتيكية لضبط العمليات بقدر الامكان بعيداً عن الاماكن المركزية مما يضمن مزيداً من الدقة والتكييف السريع والتوفير في الأيدي العاملة .

وهنالك انبوب طوله ٢٧ ميلا يربط المصفاة بمدينة الكويت الى الشمال ويسد احتياجات المدينة الى المنتجات النفطية . وتنتقل هذه المنتجات الى خمس محطات للخدمة من المستودع الرئيسي في المدينة، وتوزع على المستهلكين من تلك المحطات . وهنالك ايضاً انبوب للغاز طوله ٣٠ ميلاً وقطره ثماني بوصات ، ينقل الغاز من حقول النفط الى المدينة .

وعملت الشركة مع تطوير انتاج النفط على تحسين احوال عدد كبير من موظفيها ومستخدميها من جميع الجنسيات . والجدير بالتأكيد هنا انه عندما بدأت العمليات كانت تلك المنطقة صحراء جرداء لا تنمو فيها سوى اعشاب خشنة ولم يكن فيها من الموارد الطبيعية سوى بعض الماء غير الصالح للشرب في آبار شديدة الملوحة .

وقد حلت مكان المساكن المؤقتة مدينة جميلة بنيت منازلها على احدث الطرق الهندسية فيها مراكز للترفيه وللعناية الطبية والتعليم . وهي تضم مستشفى وعيادة ومدارس وكنائس ومساجد ومصابغ ومصنعاً للثلج ومخبزاً وعدداً من الحوانيت . وقد اقيمت هذه التسهيلات الضرورية للحياة اليومية في كل مجتمع متمدن للموظفين وعائلاتهم وهو انجاز ضخم لأن هنالك اكثر من ٩٠٠ اميركي وبريطاني يعملون في شركة النفط بالاضافة الى ٣٠٠٠ هندي و ٢٤٠٠ كويتي و ١٨٠٠ من جنسيات عربية اخرى .

وبالإضافة الى ذلك اسست مدرسة للتدريب المهني تخرج منها كثيرون من العرب الذين تخلوا عن اعمالهم الاصلية ذات التقدم الاقتصادي المحدود بحثاً عن فرص أوسع في خدمة شركة النفط . وستعمد الشركة الى ارسال بعض المرشحين الى الخارج لإكمال دراستهم الفنية او الجامعية حتى يتمكن الكويتيون من الحلول

محل الاجانب في الوظائف العليا . وهذا العمل لا يقل عن العمليات في حقول النفط لأنها من شأنها ان تكفل تحقيق التوسع في الانتاج .

ولكن نتائج إنماء وتطوير موارد نفط الكويت لا تقف عند هذا الحد . فقد اتسع اقتصاد البلاد القومي الامر الذي مكن الحاكم الحالي من وضع الخطط لإيجاد خدمات بلدية عصرية بما فيها الصحة العامة والماء والكهرباء . وقد اسهم التوظيف الكامل وارتفاع مستوى الاجور في الارتفاع العام الذي شهده مستوى المعيشة . ولكن بما ان حصة الحاكم من عائدات النفط بلغت حوالي ٥٠ مليون جنيه استرليني في السنة الماضية ، وبما ان هذا الدخل في دولة صحراوية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ٢٠٠ الف نسمة لا يمكن امتصاصه كله مهما بلغت التحسينات والخدمات العامة ، فان استخدام الاموال العائدة من النفط لها أيضاً مشاكل بحد ذاتها . ورأى الحاكم ان تدفق الثروة المفاجيء على بلاده قد يحدث صعوبات كبيرة كتلك الناجمة عن الفقر في بلدان اخرى . ولذلك كرس جهوده ليضمن ان هذا الانتقال المفاجيء من الندرة الى الكثرة سيتم بصورة هادئة بطيئة. وبإدارته الحكيمة الواعية يجرب حالياً استثمار الفائض الكبير للمستقبل.

ان العامل الرئيسي الذي جعل انتاج الكويت من النفط يتضخم بهذه الصورة خلال السنوات الثلاث الماضية هو بدون شك انفتاح الاسواق العالمية الناجم عن توقف الانتاج في إيران في حزيران سنة ١٩٥١ . ان مقارنة صادرات الكويت في سنة ١٩٥١ و ١٩٥٢ تظهر ليس فقط كيفية ارتفاع الصادرات منذ الازمة الايرانية ، ولكنها تظهر ايضاً كيف ان البلدان المختلفة استفادت من الوضع .

إن المكانة المهمة التي يحتلها نفط الكويت على الصعيد الدولي ، بعد مضي ثماني سنوات فقط من ارسال اول شحنة من ميناء الاحمدي ، لا تحتاج الى تأكيد . والمعروف ان البلدان التي هي خارج منطقة الدولار تستفيد بصورة خاصة من نفط الكويت وقد ساهم في ذلك انخفاض كلفته بالدولار بالنسبة للنفط من البلدان المجاورة كالسعودية والبحرين . ولكن منطقة الدولار استفادت هي

ايضاً منه . فالنفط الكويتي بلغ مثلاً ١٥,٦ بالمئة من المستوردات الاجمالية للولايات المتحدة في النصف الاول من هذه السنة ، و ٤٥ بالمئة من مستوردات الولايات المتحدة من الشرق الاوسط في الفترة ذاتها .

شحنات النفط الخام من الكويت

البلدان	١٩٥٢	١٩٥٠
	البراميل	
بريطانيا	٩٧,٠٤٧,٩١٧	٢٨,٠٥٣,٦٢٣
فرنسا	٥٦,٨٤٠,٣١٤	٢٨,١٦٨,٨٦٤
هولندا	٣٠,٥٥٥,١٤٩	١٧,٨٤١,١٥١
الولايات المتحدة الاميركية	٢٧,٢٢٣,٠٨٧	٢٦,٣٦١,٤٢٨
ايطاليا	١٤,٧٢١,٩٦٥	١٠,٦٣١,٥٣٢
بلجيكا	١٢,٥٢٥,٩٧٨	—
الارجنتين	٩,٠٧٢,١٩٤	—
السويد	٤,٠١٧,٦٢١	١,٤٣٢,١٥١
بلدان أخرى	١٢,٠٢٤,٠٤٦	٤,٢١٦,٢٥٤
المجموع	٢٦٤,٠٢٨,٢٧١	١١٦,٧٠٥,٠٠٣

ليست هنالك دولة تميل الى نفط الكويت كبريطانيا . فبرامج توسيع المصافي في المملكة المتحدة التي كررت ٠٠٠ و ٣٠٦و١٦٤ برميل من النفط الخام في السنة الماضية، تنجح او تسقط تبعاً لامكانية الحصول على النفط من الشرق الأوسط والكويت هي اليوم المصدر الرئيسي لبريطانيا .

ففي الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٤٦ قبل الحصول على النفط الخام من الكويت ، كانت مصادر بريطانيا الأساسية هي : الأنتيل الهولندية ٤٤ بالمئة ، فنزويلا ٢٦ بالمئة ، ايران ١٥ بالمئة ، الولايات المتحدة ١٤ بالمئة ، بلدان أخرى واحد بالمئة .

ولكن هذه الصورة تغيرت في الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٥٠ فأصبحت مصادر بريطانيا الاساسية هي: الكويت والبحرين ٤٠ بالمئة (الكميات المستوردة من البحرين لا تذكر اذا قيست بالكويت) ايران ٢٥،١ بالمئة، الانتيل الهولندية ١٢،٤ بالمئة ، المملكة العربية السعودية ١٢،١ بالمئة ، العراق ٤،٣ بالمئة ، فنزويلا ٢،٩ بالمئة ، بلدان اخرى ٣،٢ بالمئة .

وفي الأشهر الستة الأولى من هذه السنة قفزت الكويت قفزة كبيرة في تصدير النفط الى بريطانيا فاصبحت مستوردات بريطانيا في هذه الفترة كما يلي : الكويت ٥٧،٨ بالمئة ، العراق ٢٨،٨ بالمئة ، البحرين ٥،٩ بالمئة ، الانتيل الهولندية ٢،٤ بالمئة ، فنزويلا ٢،٣ بالمئة . وتتزايد مساهمة نفط الكويت في بناء الاقتصاد البريطاني يوماً بعد يوم ، اذ ان واردات بريطانيا من نفط الكويت ارتفعت خلال الأشهر التسعة الأولى من هذه السنة الى ٥٩،١ بالمئة من مجموع الواردات النفطية . واذا اخذنا جميع الواردات بعين الاعتبار تبلغ نسبة نفط الكويت فيها ٤٦،٩ بالمئة .

فاذا كان هذا البحث تخطى اشياء كثيرة بحيث يعتبره البعض انه أصبح « تاريخاً قديماً » ، فهو فقط للدلالة على ان أهمية نفط الكويت في الاقتصاد البريطاني ليس مبالغاً فيها . وربما كانت نصف سيارات لندن تسير بواسطة نفط الكويت وهو واقع يعرفه الجميع . ولذلك ليس من المناسب ، في بريطانيا خاصة ، ان تمر جهود الشركة التي وصلت الى هذه الأهمية بدون ملاحظة . يجب ان يقدّر كل العاملين في شركة نفط الكويت الذين ساهمت جهودهم في الوصول الى هذه النتائج الرائعة ، وحاكم الكويت ورعاياه الذين بتفهمهم وتعاونهم ساعدوا على ايجاد شراكة بين الشرق والغرب لولاها لما اثمرت هذه المشروعات .

ولكن النجاح الحالي ليس نهاية القصة . فالعمليات تقوم بطريقة تعطي اكبر انتاج ممكن ضمن خطط للصيانة تضمن أطول حياة ممكنة للحقول في الكويت . وتشير التقديرات الى ان الكويت تملك أغنى مخزون للنفط في العالم بحيث ان تاريخ الانتاج الرائع مع انه صغير العمر ليس إلا في بداية الطريق .

فهرست